جوزفين تاي

ابنة الزمن

ترجمة عبد الفتاح عبد الله ونيرة محمد صبري




تليجرام
مكتبة سور الأزبكية

ابنة الزمن

تأليف

جوزفين تاي

ترجمة

عبد الفتاح عبد الله

نيرة محمد صبري

مراجعة

محمد حامد درويش



ابنة الزمن

جوزفين تاي

The Daughter of Time

Josephine Tey

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٩٥١ ٥

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٥١.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

المحتويات



الفصل الأول

استلقى جرانت على سريره الأبيض المُرتفِع وحدَّق في السقف. حدَّق فيه بنظرةِ بُغْض. لقد حَفِظ عن ظهرِ قلبٍ كل شرخ ضئيل أحدَثَه الزمن مُؤخَّرًا في سطحه النظيف الجميل. كان قد رسم بخياله خرائط على هذا السقف ومضى فيها مُستكشِفًا أنهارًا وجُزرًا وقارَّات. وقد اتَّخَذ من هذا السقف مادةً لألعاب التخمين واكتشف أشياء خفيةً؛ وُجوهًا وطيورًا وأسماكًا. لقد استخدَمه لإجراءِ حساباتٍ رياضية وأعاد اكتشاف طفولته؛ نظريات وزوايا ومُثلَّثات. لم يَعُد بوسعه تقريبًا أن يفعل أي شيء آخر سوى التحديق فيه. لقد كَرِه منظر هذا السقف.

كان جرانت قد اقترح على «القزمة» أن تُدير سريره قليلًا حتى يُتاح له استكشافُ رقعةٍ جديدة من السقف. لكن كان يبدو أن هذا سيُفسِد التناسق في الحجرة، وفي المستشفيات يحتلُّ التناسق مرتبةً تلي النظافة مباشرةً وتسبق الصلاح بمسافةٍ شاسعة. كان أيُّ شيءٍ خارج نمَط التماثل يُمثِّل انتهاكًا لحُرمة المستشفيات. لماذا لم يقرأ؟ هكذا تساءلت. لماذا لم يَمضِ في قراءة بعض من تلك الروايات الجديدة الباهظة التي دأب أصدقاؤه على جلبها له.

أجابها: «ما أكثرَ من يُولَدون في العالم، وما أكثر الكلمات التي يخطُّها البشر. تتدفق الملايين والملايين من هذه الكلمات من المطابع كلَّ دقيقة. إنها خاطرةٌ فظيعة.»

قالت القزمة: «تبدو مُتصلِّبَ الرأي.»

كانت «القزمة» هي المُمرِّضة إنجهام، وكانت في الواقع امرأةً لطيفة جدًّا يَبلُغ طولها خمس أقدام وبوصتَين، وكان كل شيء في مظهرها مُتناسبًا بدقة. أطلق عليها جرانت اسم «القزمة» من باب مُواساة نفسه لِكونه كان خاضعًا لتحكُّم امرأة، أشبهَ بتِمثالٍ جميل من خزف دِرسدِن، كان يُمكِنه أن يحملها بيدٍ واحدة. بعبارةٍ أدقَّ عندما كان في كامل صحته.

لم تَكُن تكتفي بأن تقول له ما كان بوسعه أن يفعله أو لا يفعله، بل كانت تتعامل مع طوله الذي كان يزيد على ست أقدام ببساطةٍ عفوية وجدَها جرانت مُهينة لكبريائه. على ما يبدو، لم تَكُن الأوزان تعني شيئًا لها. كانت تُلقي بحَشيَّات الأسِرَّة هنا وهناك في رشاقةِ وشُرودِ بهلوان في السيرك يُدير الأطباق الدوَّارة. في حال كانت خارج وقت مُناوَبتها، كانت ترعاه «الأمازونية»، وهي إلهةٌ ذات ذراعَين تُشبهان غُصن شجرة زان. كانت «الأمازونية» هي المُمرِّضة دارول، القادمة من مقاطعة جلوسترشير، والتي كانت تُعاني من الحنين إلى مَسقط رأسها في كل مَوسم لتفتُّح النرجس البري. (كانت «القزمة» من بلدة ليثام سان آنز؛ لذا لم يَكُن لديها هراء النرجس البري.) كان لدَيها يدان ناعِمتان ضخمتان وعينان عطوفتان واسعتان كعيون البَقر، وكانت تبدو آسِفةً لحالِك على الدوام، لكن أقلَّ جهدٍ بَدني كان كفيلًا بأن يدفعها للتنفس وكأنها مِضخَّة شفط. إجمالًا، شعَرَ جرانت بأن مُعامَلته باعتباره حِملًا ثقيلًا تَحمِل من الإهانة أكثر ممَّا تَحمِله مُعامَلته كأنه عديم القيمة على الإطلاق.

كان جرانت طريح الفِراش، ويخضع لرعاية «القزمة» و«الأمازونية»؛ وذلك لسقوطه عبر بابٍ أُفقي خفي. كانت هذه الحادثة، بلا شك، في غاية المَهانة؛ بحيث بدَت أنفاس «الأمازونية» الثقيلة وسهولة قذف «القزمة» للأغراض مُقارَنةً بها مُجرَّد نتيجة طبيعية. كان السقوط عبر بابٍ أُفقي خفي أمرًا في غاية العبث؛ حدثًا صِبيانيًّا سخيفًا ينطوي على غرابةٍ مُنفِّرة. قُبَيل لحظة اختفائه من فوق السطح الطبيعي للأرض كان جرانت في مُطارَدةٍ حثيثة يُحاوِل اللحاق ببيني سكول، وكان مَشهد بيني وهو يُهرَع مُنعطِفًا مُرتميًا في أحضان السيرجنت ويليامز هو العزاء الوحيد الذي حمله هذا الموقف الذي لا يُطاق.

كان بيني حينئذٍ «مُبعَدًا» منذ ثلاث سنوات، وهو ما كان مُرضِيًا للغاية للقيادات، لكن بيني كان سيحصل على إطلاق سراح مُبكِّر لحُسن سيره وسلوكه. في المستشفيات، لم يكن يُوجَد إفراجٌ مُبكِّر لحُسن السير والسلوك.

توقَّف جرانت عن التحديق في السقف، وأدار عينَيه ليَنظُر شزرًا إلى كومة الكتب المُستقرَّة فوق الطاولة إلى جانب فِراشه؛ تلك الكومة البهيجة الباهظة الثمن التي لطالما حثَّته «القزمة» على الانتباه إليها. كان يعلو هذه الكومة كتاب تُزيِّن غِلافَه صورةٌ جميلة لمدينة فاليتا مُتَّشِحة بلونٍ زهري غير مُعتاد، تَسرُد فيه مُؤلِّفته لافينيا فيتش سنةً مليئة بالابتلاءات من حياةِ بطلةٍ بريئة. بالنظر إلى صورة «المرفأ الكبير» على الغلاف، لا بدَّ أن فاليري أو أنجيلا أو سيسيل أو دينيس كانت زوجةَ ضابطٍ بَحري. كان جرانت قد فتح الكتاب لا لشيء إلا لقراءة الرسالة الرقيقة التي كتبَتْها لافينيا بداخله.

أما في رواية «العَرَق والأُخدود»، فتجد مُؤلِّفتها، سيلاس ويكلي، واقعية، وتُسمِّي الأشياء بمُسمَّياتها طوال صفحات الرواية السبعمائة. كان بوسعك أن تُدرِك من الفقرة الأولى أنَّ الحال لم يتغيَّر كثيرًا منذ كتاب سيلاس الأخير: أمٌّ حُبلى بمولودها الحادي عشر في الطابق العُلوي، وأبٌ مخمور فاقد الوعي بعد كأسه التاسعة في الطابق السُّفلي، وابنٌ أكبر يغشُّ الحكومة داخل حظيرة البقر، وابنةٌ كُبرى يُضاجِعها عشيقها داخل مخزن التبن، أما باقي شخصيات الرواية فيختبئون داخل الإسطبل. تقاطرَت حبَّات المطر من بين عيدان قش السقف، وتحلَّل الروث فتصاعد منه البخار. لم تتخلَّ سيلاس قطُّ عن ذكر الروث. لم يَكُن ذنبها أنَّ بُخاره هو العنصر الوحيد في الصورة الذي كان يتحرك إلى أعلى. لو كان بإمكانها اكتشاف نوع من البخار ينحدر إلى أسفل لقدَّمَته في رواياتها.

تحت غِلاف رواية سيلاس بظلاله وإضاءاته المُوحِشة كانت تستقرُّ قصةٌ أنيقة تعجُّ بالزخارف الإدواردية والسخف الشديد التكلف، بعنوان «مُتلهِّفة إلى اللقاء». تدور هذه القصة حول الخطيئة كما يتناولها روبرت روج في أسلوبٍ خبيث مُتلاعِب بالألفاظ. دائمًا ما يَستدرجك روبرت روج إلى الضحك في الصفحات الثلاث الأولى. في الصفحة الثالثة تُلاحِظ أن روبرت قد تعلَّم من ذلك المخلوق الخبيث جدًّا (دون أن يكون شِرِّيرًا بالطبع)، جورج برنارد شو، أنَّ أسهل طريق لكي تبدوَ خفيفَ الظلِّ سريعَ البديهة هو أن تستخدم ذلك الأسلوب التقليديَّ الرخيص، وهو المُفارقات اللفظية. بعد ذلك يُمكِنك أن ترى النِّكات والفُكاهات آتيةً بعد ثلاث جُمَل.

كان الشيء ذو الغِلاف الأخضر الذي يسطع على امتداده وميضُ بنادق أحمر هو أحدث مُؤلَّفات أوسكار أوكلي. ثُلَّة من الأفظاظ يتشدَّقون بلكنةٍ أمريكية مُصطنَعة لا تمتُّ بِصِلة إلى خِفَّة الظل ولا إلى السخرية اللاذعة. شقراوات وقُضبان من الكروم ومُطارداتٌ خطرة. هُراءٌ مُثير للغاية.

أما «قضية فتَّاحة العُلَب المفقودة» لمُؤلِّفها جون جيمس مارك، فكانت أول صفحتَين فيها تحتويان على ثلاثة أخطاء في سير الأحداث، وعلى الأقل منحَت جرانت خمس دقائق مُمتعةً قضاها وهو يَصوغ رسالةً خيالية إلى مُؤلِّفها.

لم تُسعِفه الذاكرة في تَذكُّر عنوان الكتاب الأزرق الرفيع الراقد أسفل كومة الكتب. لكنه كان كتابًا جادًّا يضمُّ إحصاءات، حسبما ظن. كان عن ذُباب التسي تسي، أو السُّعرات الحرارية، أو السلوك الجنسي، أو ما شابَه.

حتى في ذلك الكتاب، كنتَ تَعرِف ما تتوقَّع قراءته في الصفحة التالية. أمَا عاد أحدٌ في هذا العالم يُغيِّر حكاياته بين الحين والآخر؟ هل صار الجميع في تلك الأيام مُولَعًا بالقوالب المُبتذَلة؟ كان كُتاب هذه الأيام يلتزمون التزامًا حثيثًا بأنماطٍ مُعيَّنة في كتاباتهم، حتى إن قُرَّاءهم أصبحوا يَتوقَّعونها. كان العامة يتحدَّثون عن «سيلاس ويكلي جديدة» أو «لافينيا فيتش جديدة»، تمامًا مِثلما كانوا يتحدَّثون عن «أداة بناء جديدة» أو «فرشاة شعر جديدة». لم يكونوا يقولون أبدًا «كتابٌ جديد بقلم فلان». لم يَكُن اهتمامهم مُوجَّهًا إلى الكِتاب، بل إلى حداثته. كانوا يعرفون جيدًا كيف سيبدو الكتاب.

أشاح جرانت بنظره بتقزُّز بعيدًا عن كومة الكُتب المُتنافِرة وهو يفكر في أنه ربما سيكون أمرًا حسنًا لو توقَّفَت مطابع العالَم جميعها لجيلٍ كامل. ينبغي أن يَحدُث تعليق للإنتاج الأدبي. يَحسُن أن يخترع أحد الرجال الخارقين شُعاعًا قادرًا على إيقافها كُلها في الوقت ذاته. عندئذٍ لن يُرسِل إليك أحدٌ كومةً من الهُراء السَّخيف بينما أنت مُسْتلقٍ على ظهرك، ولن تتوقَّع منك نِساءٌ تافهات مُتسلِّطات أن تقرأها.

سمع صوت الباب وهو يُفتَح، لكنه لم يُدِر نظرَه ليرى من القادم. كان قد أشاح بوجهه نحو الحائط، حرفيًّا ومجازِيًّا.

سمع صوت خطوات قادمة نحو فِراشه، فأغلق عينَيه ليتجنَّب أي مُحادَثة مُحتملة. لم يَكُن يرغب في هذه اللحظة في تعاطفِ مُمرِّضة جلوسترشير ولا في خِفَّة مُمرِّضة لانكشير. في اللحظة التالية، داعَب أنفَه إغراءٌ خافت يَحمِل نسمةً مُفعَمة بالحنين إلى الماضي قادمةً من كل حقول مدينة جراس. استنشَقها مُفكرًا فيها. كان يشمُّ رائحة الخُزامى من «القزمة» التي كانت تستخدم مسحوقًا بهذه الرائحة لجسمها، أمَّا «الأمازونية» فكانت تنبعث منها رائحة الصابون واليودوفورم. ما كان يَحُوم حول أنفه بسخاءٍ كان عطر لونكلو نوميرو سينك. كانت تُوجَد امرأةٌ واحدة فقط من بين معارفه تستخدم لونكلو نوميرو سينك. إنها مارتا هالارد.

فتح جرانت إحدى عينَيه واختلس النظر إليها. كان من الواضح أنها قد انحنَت لترى ما إذا كان نائمًا، وكانت الآن واقفةً في تردُّد — إن كان يمكن وصفُ أي شيء تفعله مارتا بالتردد — وانتباهها مُوجَّه إلى كومة الكتب الجاثمة فوق الطاولة، والتي لم يَكُن يَخفى مُطلَقًا على الناظر أنها لم تُقرأ بعد. كانت تَحمِل في إحدى ذراعَيها كتابَين جديدين، وفي الأُخرى باقةً كبيرة من زهور الليلك البيضاء. تساءل في نفسه عمَّا إذا كانت قد اختارت زهور الليلك البيضاء لأنها تُجسِّد رؤيتها للأزهار التي يَلِيق إهداؤها في الشتاء (كانت تُزيِّن

غُرفة ملابسها في المسرح من شهر ديسمبر إلى مارس)، أو أنها اختارتها لأنها لن تُشتِّت الأنظار عن زِيِّها الأنيق بلونَيه الأسود والأبيض. كانت تَلبَس قُبَّعةً جديدة وعِقْدها اللؤلئيَّ المُعتاد؛ العِقد الذي كان جرانت يومًا ما السبب في استعادتها إياه. بدت بارعةَ الجمال، يعلوها بهاءٌ باريسي، وأبعد ما تكون عن روح المستشفيات.

قالت: «هل أيقظتُك يا آلان؟»

أجاب: «لا. لم أكُن نائمًا.»

قالت وهي تطرح الكتابَين إلى جانب أقرانهما المنبوذين: «يبدو أنني أُحضِر الماءَ إلى حارة السقَّائين.» وأردفَت: «آمُل أن تجد هذَين الكتابين أكثر إمتاعًا مما يبدو أنك وجدتَ في كومةِ الكتب هذه. ألم تُحاوِل أن تستسيغ رواية لافينيا ولو نزرًا قليلًا؟»

«لا أستطيع قراءة أي شيء.»

«أتشعر بألم؟»

«ألم مُبرِّح. لكن ليس في قدَمي ولا ظهري.»

«ماذا إذَن؟»

«إنه ما تدعوه قريبتي لورا «وخْز الملل».»

قالت: «يا لك من مِسكين يا آلان! وكم هي على حق لورا!» التقطت مجموعةً من أزهار النرجس من كوبٍ زُجاجي كان كبيرًا للغاية مُقارنةً بحجمها، وألقتها في الحوض مع واحدة من أفضل إيماءاتها، وشرَعَت في إبدالها بزهور الليلك. واستطردت: «يتوقَّع المرء أن يكون الملل شعورًا هائلًا يبتلع المرء، ولكنه ليس كذلك بالطبع. إنه شيءٌ مُزعِج صغير.»

«إنه شيءٌ تافِه صغير. شيءٌ تافِه مُزعِج. إنه يُشبِه التعرُّض للضرب بسياطٍ من نبات القراص.»

«لمَ لا تُجرِّب شيئًا جديدًا؟»

«أتقصدين الاستفادة من وقتي؟»

«أقصد الاهتمام بعقلك. هذا فضلًا عن رُوحك ومزاجك. لعلك تشرع في دراسة إحدى الفلسفات. يُمكِنك أن تُمارِس اليوجا أو شيئًا من هذا القبيل. لكني لا أظن أنَّ تأمُّل التفكير في الأمور المجردة هو أفضل ما يمكن أن تشغل به عقلًا تحليليًّا كعقلك.»

«فكَّرتُ بالفعل في العودة إلى دراسة الجبر. تَشغلني فكرة أنني لم أُوفِّ الجبر حقَّه أبدًا وقتما كنتُ طالبًا بالمدرسة. لكنني أجريتُ الكثير من الدراسات الهندسية على هذا السقف اللَّعين، حتى إنني سئمتُ الرياضيات قليلًا.»

«حسنًا، لا أظن أنه من المُجدي أن أقترح لعب أحاجي الصور المُقطعة على شخص في مِثل وضعك. ماذا عن الكلمات المُتقاطِعة؟ بوسعي أن أُحضِر لك كتاب كلمات مُتقاطعة، إن ودِدتَ ذلك.»

«لا سمح الله.»

«بإمكانك ابتكارها بالطبع. سمعتُ أن ابتكارها أكثر إمتاعًا من حلِّها.»

«ربما. لكن يَلزمُني قاموس يَزِن عِدَّة أرطال. إلى جانب ذلك، لطالما كرِهتُ البحث عن شيء في الكتب المَرجعية.»

«أتلعب الشِّطرنج؟ لا أذكُر ذلك. ما رأيُك في حلِّ ألغاز الشطرنج؟ الدور في اللعب على الأبيض ويموت الملك في ثلاث حركات، أو ما شابَه ذلك.»

«اهتمامي الوحيد بالشطرنج اهتمامٌ فني.»

«فني؟»

«القِطع المُنمَّقة رائعة الزخرفة، الحِصان والبيادق وما شابَه. بديعة للغاية.»

«رائع. يُمكِنني أن أُحضِر لك رُقعة شِطرنج لتلعب بها. حسنًا، لنستبعِدِ الشِّطرنج. يُمكِنك أن تُجريَ بعض البحث الأكاديمي. ذلك يُشبِه الرياضيات إلى حدٍّ ما. إيجاد حل لمُشكلة بلا حل.»

«تقصدين جريمةً ما؟ أحفظ جميع سجلَّات القضايا عن ظهر قلب. ولا يُوجَد المزيد مما يُمكِن أن يبذله أحد حيالَ أيٍّ منها. بالتأكيد ليس على يدِ أحدٍ مُمدَّد على ظهره.»

«لم أعنِ قضيةً من مِلفَّات سكوتلاند يارد. قصدتُ شيئًا أكثر — ماذا يُطلَق عليه؟ — شيئًا كلاسيكيًّا. أقصد شيئًا حيَّر العالَم على مدار عصور.»

«مِثل ماذا، مثلًا؟»

«رسائل الصندوق، مثلًا.»

«ليس ماري، ملكة اسكتلندا!»

«ولمَ لا؟» تساءلت مارتا التي كانت، مِثل كل المُمثِّلات، ترى ماري ستيوارت عبر طبقات من حُجبٍ بيضاء.

«قد تستهويني النساء السيئات، أمَّا السخيفات فلا أهتمُّ بهنَّ مُطلَقًا.»

ردَّت مارتا بصوتٍ خفيض غاضب: «سخيفات؟»

«سخيفات للغاية.»

«أوه، آلان! كيف تجرؤ على قول هذا؟»

«لو كانت قد ارتدَت نوعًا آخر من أغطية الرأس لَمَا كان قد التفت إليها أحد على الإطلاق. إن تلك القُبَّعة هي التي تُغْري الرجال.»

«أتظنُّ أنها لو كانت اختارت قَلَنسُوةً شمسية لأصبحت قصة حبها أقلَّ عظمة؟»

«لم تكن قصة حُبها عظيمة على الإطلاق، في أي قلنسوة ارتدَت.»

بدت على ملامح مارتا الصدمة بقدْرِ ما أتاح لها ما أمضَته من عُمرها على خشبة المسرح وساعة استغرقَتْها في وضع مساحيق التجميل بعناية.

«لمَ تظنُّ ذلك؟»

«كان طولُ ماري ستيوارت ست أقدام. أغلب النساء الفارعات الطول باردات المشاعر. اسألي أيَّ طبيب.»

وبينما كان يقول تلك الكلمات تساءل في نفسه عن السبب في أنه لم يَخطُر على باله، طَوالَ كل تلك السنوات منذ اختارته مارتا رفيقًا احتياطيًّا لها عندما دعَتْها الحاجة إلى رفيق، أن يتساءل عما إذا كانت نظرتها العقلانية الشهيرة نحو الرِّجال لها علاقة بطول قامتها. لكن مارتا لم تكن قد توصَّلَت إلى أي وجهٍ للتشابه بينها وبين ماري؛ إذ كان ذِهنها لا يزال مُنشغلًا بملكتها المُفضَّلة.

«على الأقل كانت شهيدة. يجب أن تُقرَّ لها بذلك.»

«شهيدة في سبيل ماذا؟»

«دينها.»

«بل كانت شهيدة الروماتيزم ليس إلا. لقد تزوَّجَت دارنلي دون إذْن البابا، ثم تزوَّجَت إيرل بوثويل وَفقًا للطقوس البروتستانتية.»

«بعد لحظة ستقول لي إنها لم تُسجَن!»

«مُشكلتكِ أنكِ تتخيَّلينها حبيسةَ غُرفة ضيِّقة في قِمة إحدى القِلاع، لا ترى العالَم إلا من وراء قُضبان النافذة، ولا يُؤنِس وَحشتَها سوى خادمةٍ عجوز وفيَّة تُشاركها صلواتها. الحقيقة أنه كان لدَيها حاشية تتألَّف من سِتِّين خادمًا شخصيًّا. ولمَّا تقلَّص هذا العدد إلى ثلاثين خادمًا — ويا له من عددٍ قليل! — تذمَّرَت بشدة، وكادت تموت كمدًا عندما تقلَّص العدد إلى أمينَي سرٍّ وعِدَّة نساء وعامل تطريز وطاهٍ أو اثنَين. وكان على إليزابيث أن تتحمَّل تكاليف كل هذا من مالها الخاص. ظلَّت تتحمَّل التكاليف طيلة عشرين عامًا، وطيلة عشرين عامًا مضت ماري ستيوارت تَعرِض تاج اسكتلندا في جميع أنحاء أوروبا على أي شخص لديه استعداد لإشعال ثورة وإعادتها إلى العرش الذي فقدَته، أو إلى العرش الذي كانت إليزابيث تعتليه.»

تطلَّع إلى مارتا فوجدها تبتسم.

سألَته: «هل هو أفضل حالًا قليلًا الآن؟»

«ما هو؟»

«الوخز.»

ضَحِك جرانت.

«أجل. لقد نسيتُ أمره لدقيقةٍ كاملة. على الأقل ذلك إنجازٌ وحيد يُمكِن أن يُنسَب إلى ماري ستيوارت!»

«كيف تعرف كل هذه المعلومات عن ماري؟»

«كتبتُ مقالًا عنها في عامِي الدراسي الأخير.»

«وأستنتج أنك لم تُعجَب بها.»

«لم يُعجِبني ما اكتشفتُه عنها.»

«إذَن لا ترى أن حياتها كانت مأساوية.»

«بل مأساوية للغاية. لكن لا أقصد أنها كانت مأساوية على أي نحو يُصوِّرها به الاعتقاد الشائع بين الناس. تَكمُن مأساوية قِصتها في كونها وُلِدت ملكةً بعقلية ربَّة منزل ضيِّقة الأُفق. إن محاولة النَّيل من السيدة تيودور المُقيمة في الشارع المُجاوِر بلا ضرر والمُسلِّية؛ فربما تؤدي بكِ إلى إفراط لا داعيَ له في الشراء بالتقسيط، لكنها لن تؤثر على غيرك. لكن عندما تستخدمين الأسلوب ذاته مع الممالك، فالنتيجة كارثية. إذا كنتِ لا تَجدين غضاضة في إغراق بلد تَعْداده عشرة ملايين نسمة بالديون لكي تنالي من خَصمٍ ملَكي، فسوف ينتهي بكِ الحال إلى أن تصيري فاشلةً بلا صديق.» لَبِث جرانت يُفكر في الأمر بُرهة. وأردف: «كانت ستُحقِّق نجاحًا ساحقًا لو كانت مُعلِّمة في مدرسة للبنات.»

«أنت قاسي القلب!»

«كنت أقصد المعنى الطيِّب. كانت زميلاتها سيُحبِبنها، وكانت ستعشقها كل التلميذات. هذا ما قصدته بوصف حياتها بالمأساوية.»

«آه، حسنًا. يبدو أن رسائل الصندوق ليست خيارًا مُناسبًا. ما الخيارات الأخرى المُتاحة؟ الرجل ذو القناع الحديدي.»

«لا أتذكَّر من كان هذا الشخص، لكن لا يُمكِن أن يروق لي أي إنسان يَستتر خلف قطعة من الصفيح. لا يُمكِنني أن أهتمَّ بأي إنسان على الإطلاق دون أن أرى وجهه.»

«آه، أجل. نسيتُ شغفك بالوجوه. كان آل بورجيا يمتلكون وجوهًا رائعة. أظنُّ أنهم سيُقدِّمون لك لغزًا صغيرًا أو لُغزَين تُزجِّي بهما وقتك بالبحث عن حلول لهما. أو لَدَيك بيركن واربيك، بالطبع. انتحال الشخصية أمرٌ مُذهل دائمًا. أكان هو حقًّا أم لا؟ لعبةٌ مُمتعة. لا يمكن أبدًا ترجيح أي الاحتمالَين على الآخر على وجه اليقين. كلما دفعْتَه إلى أسفل ارتدَّ إلى أعلى، مثل واحدة من ألعاب اليويو للأطفال.»

انفتح الباب فإذا بوجهِ السيدة تينكر الودود يبدو من فُرجة الباب تعلوه قُبَّعتها العتيقة الأكثر دفئًا وحميمية. ظلَّت السيدة تينكر تَلبَس القُبعة ذاتها منذ بدأت ترعى جرانت، ولم يَكَد يتخيَّل شكلها في أي قُبعة أخرى. كان يعرف أنها تمتلك بالفعل قُبعةً أخرى؛ لأنها اقترنت بشيءٍ أشارت إليه بوصف «أزرقي». كان «أزرقها» شيئًا عابرًا، بالمَعنيَين المُباشِر والمجازي، ولم يظهر قطُّ في بيته رقم ١٩ تينبي كورت. كان ارتداؤه يُصاحبه وعيٌ شعائري، وكانت السيدة تينكر تستخدمه حال ارتدائه كمِعيار للحُكم على الوقائع. («هل استمتعتِ به يا تينك؟ كيف كان؟» «لا يستحقُّ ارتداء أزرقي.») ارتدَته في حفل زفاف الأميرة إليزابيث، وفي مناسباتٍ ملكيةٍ مُتنوعة أخرى، وظهرت لثانيتَين مُرتديةً إيَّاه في شريطٍ إخباري يُوثِّق قصَّ دوقة كِنت لشريطِ مشروعٍ ما، لكن بالنسبة إلى جرانت فقد كان مُجرَّد لازمة من لوازم السُّمعة؛ مِعيارًا للقيمة الاجتماعية لمناسبةٍ ما. كان الشيء يُصنَّف من ناحية كونه يستحقُّ ارتداء «أزرقي» أم لا.

بادرَت السيدة تينكر قائلةً: «سمعتُ أن لدَيك زائرة، وكنتُ أستعدُّ للمغادرة عندما خطر لي أن الصوت يبدو مألوفًا، فقلتُ لنفسي: «إنها الآنسة هالارد ولا أحد غيرها.» لذا دخلتُ.»

كانت تحمل عدة حقائب ورقية وحُزمةً صغيرة مُحكَمة من شقائق النعمان. ألقَت على مارتا تحية امرأة لامرأة، فقد كانت تُساعد المُمثِّلات في شبابها على اختيار أزيائهن؛ ولذا لم تُكنَّ تعظيمًا مُبالَغًا فيه لربَّات المسرح، ونظرَت شزرًا إلى التنسيق الجميل لفروع الليلك التي أينعَت بفضل رعاية مارتا. لم تلحظ مارتا هذه النظرة، لكنها رأت باقة زهور شقائق النعمان الصغيرة، فتسلَّمت دفَّة الموقف وكأنه شيءٌ تدرَّبَت عليه من قبل.

«لقد أهدرتُ نقودي الشحيحة على شراء الليلك الأبيض من أجلك، وها هي السيدة تينكر تُثير استيائي بإحضار زنابق الحقل.»

ردَّت السيدة تينكر بارتياب: «زنابق؟»

«تلك هي زنابق سليمان في كل مجده. تلك التي لا تتعب ولا تَغزِل.»

لم تكن السيدة تينكر تذهب إلى الكنيسة إلا لحفلات الزفاف والتعميد، لكنها كانت تنتمي إلى جيلٍ كان يُرسَل إلى مدارس الأحد. نظرت بشغفٍ جديد إلى حَفْنة المجد الصغيرة التي كان يضمُّها قُفَّازها الصوفي.

«حسنًا. لم أكُن أعرف ذلك على الإطلاق. تبدو هكذا أكثر منطقية، أليس كذلك؟ كنتُ أتخيَّلها دائمًا مِثل نباتات اللوف. حقول وحقول من اللوف. إنها باهظة الثمن، كما تعرفين، لكنها تبعث على الكآبة قليلًا. إذَن فقد كانت مُلوَّنة؟ حسنًا، لماذا لا يقولون ذلك؟ لماذا يُطلِقون عليها زنابق؟»

مضت الاثنتان في الحديث عن الترجمة، وكيف يمكن لترجمة الكتاب المُقدَّس أن تكون مُضلِّلة (قالت السيدة تينكر: «دائمًا ما تساءلتُ عن معنى «ارمِ خُبزك على وجه الماء».») وانقضت اللحظة المُحرِجة.

بينما كانتا لا تزالان مُنهمِكتَين في الحديث عن الكتاب المُقدَّس، أقبلت «القزمة» بزهريَّاتٍ إضافية. لاحَظ جرانت أنَّ الزهريَّات كانت مُصمَّمة بحيث تحمل زهور الليلك لا شقائق النعمان. كانت الزهريات لفتةَ تقدير لمارتا؛ مُقدِّمةً لمزيد من التواصل. لكن مارتا لم تكن تعبأ قطُّ بالنساء ما لم يكن لهنَّ نفعٌ فوري لها، أما أسلوبها مع السيدة تينكر فكان من باب اللَّباقة الاجتماعية ليس غير؛ استجابة شَرطية. إذَن فقد اختُزلَت «القزمة» من كونها طرفًا في علاقةٍ اجتماعية إلى مجرد أداة وظيفية. جمعَت أزهار النرجس المُلقاة في الحوض وأعادتها إلى إحدى الزهريَّات في خضوع. كان مشهد «القزمة» وهي خاضعةٌ أجملَ ما رأى جرانت وقرَّت به عينه منذ وقتٍ طويل.

بعد أن أنهت مارتا تنسيق زهور الليلك ووضعتها حيث يُمكِنه أن يراها، بادرَته قائلةً: «حسنًا، سأترك السيدة تينكر لتُطعِمك كل الأطايب التي تضمُّها هذه الحقائب الورقية. عزيزتي السيدة تينكر، أيُمكِن أن تحتويَ إحدى هذه الحقائب على أيٍّ من كعكاتك الرائعة؟»

انتشَت السيدة تينكر وتألَّق وجهها.

«أترغبين في كعكة أم اثنتَين؟ أتت طازجةً من الفرن منذ قليل، ما قولكِ؟»

«حسنًا، يجب عليَّ بالطبع بعد ذلك أن أُكفِّر عن تناولي إيَّاها؛ فهذه الكعكات الدسمة تُسبِّب السمنة، لكن أعطيني اثنتَين أضعهما في حقيبتي لأتناولهما مع الشاي في المسرح.»

اختارت كعكتَين بتأنٍّ مُصطنَع («أُحِبُّها بحوافَّ بُنِّية قليلًا») وألقَتهما في حقيبتها، وقالت: «حسنًا، وداعًا يا آلان. سوف أعودك بعد يوم أو يومَين وأبدأ في تعليمك حياكة جورب. أعتقد أنه ما من شيءٍ أكثر تهدئةً للأعصاب من الحياكة. أليس كذلك أيَّتها المُمرِّضة؟»

«أوه، أجل. أجل، بالفعل. كثير من مرضاي من الرجال يُمارِسون الحياكة. يجدونها وسيلةً لطيفة جدًّا لتَزجِية الوقت.»

بعثَت مارتا إليه قُبلةً من عند باب الغُرفة وغادرت، تتبعها «القزمة» في احترام.

قالت السيدة تينكر، وهي تشرع في فتح حقائبها الورقية: «سوف أندهش لو كانت هذه الوقِحة لا تعيش حياةً ماجنة.» لم تكن تُشير إلى مارتا.

الفصل الثاني

لكن لمَّا عادت مارتا بعد يومَين لم يكن معها إبَر حياكة وصوف. أقبلت عقب وقت الغداء وهي في غاية الأناقة مُرتديةً قبعةً قوقازية مائلةً بطريقة لا مُبالية، لا بدَّ أنها استغرقت في تثبيتها عدة دقائق أمام المرآة، بعد الغداء مباشرةً.

«لن أبقى طويلًا يا عزيزي. أنا في طريقي إلى المسرح. إنه الحفل النهاري، وليَكُن الله في عوني. صواني الشاي والأغبياء. يَجب علينا اعتلاء خشبة المسرح المُرعِبة لنُلقيَ كلماتٍ لم يعُد لها أي معنًى لنا. لا أظنُّ أن هذه المسرحية ستتوقف يومًا ما. ستصير مثل مسرحيات نيويورك التي تُعرَض لمدة عشر سنوات لا لسنةٍ واحدة. إنه أمرٌ مُخيف للغاية. لن يقوى عقل المرء على مُواصلة هذا الأمر. ضاعت الكلمات من جيفري في مُنتصَف الفصل الثاني ليلة أمس. كادت عيناه تَخرُجان من مَحجرَيهما. ظننتُ لوهلةٍ أنه أُصيب بسكتةٍ دماغية. قال لاحقًا إنه لا يتذكَّر أيًّا مما حدث بين ظهوره على خشبة المسرح والمرحلة التي وجد فيها نفسه في منتصف الفصل.»

«تقصدين فقدانًا مؤقتًا للذاكرة؟»

«لا. أوه، لا. بل فقط أن يتصرَّف المرء على نحوٍ آلي. يقول كلمات دوره ويؤدي الحركات بينما يُفكر في شيءٍ آخر طوال الوقت.»

«إن صحَّت الروايات، فليس هذا بأمرٍ غير مُعتاد على المُمثِّلين.»

«لو كان باعتدال، لا. يمكن لجوني جارسون أن يُخبرك بعدد الأوراق في المنزل بينما يجهش بالبكاء على قدَم أحدهم. لكن هذا يختلف عن أن تكون «شاردًا» طيلة نصف فصل. أتُصدِّق أن جيفري طرد ابنه من المنزل وتشاجر مع مُديرة منزله واتَّهم زوجته بخيانته مع أعز أصدقائه، وكل هذا وهو لا يعي ما يفعل؟»

«وماذا كان يعي؟»

«يقول إنه كان قد قرَّر أن يُؤجِّر شقَّته في بارك لين لدولي داسر، وأن يشتريَ منزل تشارلز الثاني الكائن في ريتشموند، والذي عرضته عائلة لاتيمر للبيع لأنه نال منصب المُحافِظ. كان قد فكَّر في مسألة قلَّة الحمَّامات، وقرَّر أن الغُرفة الصغيرة في الطابق العُلوي التي يُغطِّيها ورق الحائط الصيني الذي يرجع إلى القرن الثامن عشر ستكون مناسبة جدًّا. يمكنهم إزالة ورق الحائط الجميل واستخدامه في تزيين الغُرفة الصغيرة الكئيبة في الطابق السُّفلي في مؤخرة المنزل. فجدران هذه الغُرفة الصغيرة المُملَّة مُغطاة بالأُطر الفيكتورية. كان قد أعاد النظر أيضًا في أمر نظام الصرف، وتساءل عما إذا كان لدَيه ما يكفي من المال لتغيير البلاط القديم، ثم راح يُخمِّن نوع المَوقد الذي لديهم في المطبخ. كان قد قرَّر لتوِّه التخلُّص من الشُّجَيرات النامية عند البوَّابة عندما وجد نفسه وجهًا لوجهٍ أمامي، على خشبة المسرح، في حضور تسعمائة وسبعة وثمانين شخصًا في منتصف حوار مسرحي. لا عَجب في جُحوظ عينَيه. أرى أنك تمكَّنتَ من قراءة كتاب واحد على الأقل من الكُتب التي أحضرتُها لك، لو جاز للغلاف المُجعَّد أن يكون معيارًا.»

«أجل. الذي يحتوي على صورة جبل. لقد كان هبةً من الرب. لقد أمضيتُ ساعاتٍ أُشاهد الصور. لا شيء يُضاهي الجبال في سرعة وضعها الأمور في نصابها الصحيح.»

«أجد النجومَ أفضل في هذا الأمر.»

«أوه، لا. النجوم تختزل مكانة المرء إلى مجرد أميبا. النجوم تَسلُبنا آخِر ما تبقَّى من كبريائنا البشرية، آخر بصيص من ثِقتنا بذواتنا. أما الجبال الجليدية فهي مقياسٌ رائع يُناسب الإنسان. لقد استلقيتُ وأخذت أتأمَّل قمة جبل إيفرست، وشكرتُ الربَّ على أنني لم أتسلَّق تلك المُرتفَعات الشديدة الانحدار. إن فِراشًا في مُستشفًى يعدل ملاذًا دافئًا ومُريحًا وآمنًا إذا ما قُورن بالجبال، أما «القزمة» و«الأمازونية» فهما من أرقى مُنجَزات الحضارة.»

«أه، حسنًا، إليك المزيد من الصور.»

فتحت مارتا الظرف الذي كانت تحمله وألقت مجموعةً من الأوراق فوق صدره.

«ما هذا؟»

أجابت مارتا في ابتهاج: «وجوه.» وتابعَت: «عشرات الوجوه من أجلك. وجوه رجال ونساء وأطفال. جميع الأنماط والحالات والأحجام.»

التقط إحدى هذه الأوراق التي على صدره وتأمَّلها. كانت نموذجًا محفورًا لوجهٍ يعود إلى القرن الخامس عشر. وجه امرأة.

«من هذه؟»

«لوكريسيا بورجيا. أليست لطيفة؟»

«ربما، لكن أتُلمِّحين إلى أنه كان يُوجَد غموض بشأنها؟»

«أوه، أجل. لا أحد يعرف على وجه اليقين هل كانت أداةً في يد أخيها أم شريكةً له.»

طرح صورة لوكريسيا جانبًا والتقط ورقةً أخرى. تبيَّن أنها صورة لولدٍ صغير في ثيابٍ تعود إلى القرن الثامن عشر، وقد كُتِب أسفلها بحروفٍ باهتة: لويس السابع عشر.

قالت مارتا: «والآن يُوجَد لُغزٌ مُمتع من أجلك. الدوفين.» وأضافت تسأله: «هل فرَّ هاربًا أم مات في الأَسر؟»

«من أين جئتِ بكل هذه الصور؟»

«لقد أخرجتُ جيمس من جُحره في متحف فيكتوريا وألبرت، وأجبرتُه أن يَصحبني إلى إحدى المطابع. كنتُ أعرف أنه سيكون مُلمًّا بشيء كهذا، كما أنني على يقينٍ أنَّ ما من شيءٍ يُثير اهتمامه في متحف فيكتوريا وألبرت.»

بدا أن مارتا كان لدَيها يقينٌ لا يُساوِره شك في أن مُوظفًا حكوميًّا لن يجد غضاضةً في ترك عمله والتنقُّل بين المطابع من أجل إرضائها، فقط لأنه تَصادَف أنه كان كاتبًا مسرحيًّا وخبيرًا في البورتريهات.

قلبَ جرانت صورةً فوتوغرافية لوجهٍ يعود إلى العصر الإليزابيثي. كان رَجلًا في ثوبٍ مخملي مُرصَّع باللؤلؤ. أدار الصورة ونظر إلى الجزء الخلفي منها ليعرف هُويَّة هذا الشخص، واكتشف أنه إيرل ليستر.

قال: «إذَن هذا روبين صديق إليزابيث.» وتابَع: «لا أظنُّ أنني شاهدتُ صورةً شخصية له من قبل.»

نظرت مارتا إلى الوجه المُمتلئ الذي يشعُّ رجولةً وقالت: «خطر لي للمرَّة الأولى أن واحدةً من مآسي التاريخ الكبرى هي أنَّ أفْضل الرسَّامين لم يُقدِموا على رسمك إلا بعد أن مرَّ ريعان شبابك. لا بدَّ أن روبين كان رجلًا بكلِّ ما تحمله الكلمة من معانٍ. يقولون إن هنري الثامن كان باهرًا في شبابه، لكن كيف هو الآن؟ مجرد شيء على بطاقات اللعب. نعرف هذه الأيام كيف بدا تينيسون قبل أن يُعفيَ تلك اللحية المُرعِبة. يجب أن أُغادِر سريعًا. لقد تأخَّرت في الواقع. كنتُ أتناول الغداء في بليج، وجاءني الكثيرون ليتحدَّثوا معي لدرجة أنني لم أستطع أن أُغادِر مُبكِّرًا كما كنتُ أنوي.»

قال جرانت وهو يرمق القُبَّعة: «أرجو أن تكوني قد أثَرتِ إعجاب مُضيفك.»

«أوه، أجل. إنها مُلمَّة بالقبعات. ألقت نظرةً واحدة وقالت: «جاك تو، على ما أظن.»

قال جرانت مُندهِشًا: «إنها!»

«أجل. مادلين مارش. أنا مَن دعوتُها إلى الغداء. لا تندهش هكذا؛ هذا ليس تصرُّفًا لبقًا. إذا كنتَ مُصرًّا على أن تعرف، فأنا أتطلَّع إلى أن تكتب لي تلك المسرحية التي تتناول حياة الليدي بليسنجتون. لكن جرى الكثير من المُناقشات بحيث لم تتسنَّ لي فرصة لأن أُثير إعجابها. لكنني قدَّمتُ لها وجبةً رائعة. يُذكِّرني هذا بتوني بيتميكر الذي كان يستضيف رفقةً من سبعة أشخاص. الكثير من قنانيِّ الخمر. كيف تتخيَّل أنه يُواصِل ما يفعل؟»

أجاب جرانت: «لنقصِ الأدلة»، وضحكت مارتا وغادرت.

عمَّ السكون المكان، فعاد إلى التفكير في روبين صديق إليزابيث. ما الغموض الذي كان يُحيط بروبين؟

أوه، أجل. آيمي روبزارت، بالطبع.

حسنًا، لم يَكُن مُهتمًّا بآيمي روبزارت. لم يَكُن يُبالي بكيفية سقوطها من أعلى الدَّرَج، ولا بسبب سقوطها.

لكنه أمضى وقتًا سعيدًا للغاية عصر ذلك اليوم مع بقية الوجوه. لطالَما استمتع بمُشاهَدة الوجوه قبل التحاقه بالشرطة بزمنٍ طويل، وفي أعوامه التي أمضاها في سكوتلاند يارد كان قد تبيَّن أن ذلك الشغف يُمثِّل متعةً شخصية ومِيزةً مِهنية على السواء. يَذكُر أنه جاء في أيامه الأولى مع رئيس الشرطة أثناء طابور عرض للمُشتبَه فيهم. لم يَكُن مسئولًا عن تلك القضية، وكان كلاهما مُنشغِلًا بشأنٍ آخر، لكنهما بَقِيا في خلفية هذا الموقف وشاهَدا رجلًا وامرأة يمرَّان، كلٌّ على حِدة، على صفٍّ مُكوَّن من اثنَي عشر رجلًا لا يميزهم أي شيء، باحثَين عن الجاني الذي كانت الشرطة تأمُل في التعرُّف عليه.

همس رئيس الشرطة إلى جرانت قائلًا: «أيُّهم تشامي، أتعرف؟»

أجاب جرانت: «لا أعرف، ولكن بوسعي التخمين.»

«هل بوسعك ذلك؟ أيُّهم حسب ظنك؟»

«الثالث من اليسار.»

«ما التهمة؟»

«لا أدري. لا أدري أيَّ شيء عنها.»

رمَقه رئيس الشرطة بنظرةِ استمتاع، لكن عندما أخفق كلٌّ من الرجل والمرأة في التعرُّف على الجاني وغادَرا، وتحوَّل الطابور إلى مجموعة من الأشخاص الذين يتجاذبون

أطراف الحديث ويرفعون ياقاتهم ويُحكِمون ربطات أعناقهم، قبل العودة إلى الشارع وحياتهم اليومية التي كانوا قد استُدعوا منها لمساعدة القانون، كان الشخص الذي لم يتحرَّك هو الثالث من اليسار. بقيَ هذا الرجل مُنتظرًا في استسلام لمن يقوده إلى زنزانته مُجدَّدًا.

قال رئيس الشرطة: «يا إلهي!» وأردف: «احتمالٌ نِسبته واحد إلى اثنَي عشر، ونجحتَ فيه. كان هذا عرضًا رائعًا»، ثم التفت إلى المفتش المحلي مُفسرًا: «لقد تعرَّف على المُشتبَه به من بين المجموعة.»

تساءل المفتش بقليل من الدهشة: «هل كنتَ تعرفه؟» وأضاف: «إنه لم يتورَّط في مشكلاتٍ من قبلُ مُطلَقًا، حسب عِلمنا.»

«لا، لم أرَه قطُّ مِن قبل. أنا حتى لا أعرف التُّهمة المُوجَّهة إليه.»

«ما الذي جعلك تختاره إذَن؟»

تردَّد جرانت، مُحلِّلًا لأولِ مرةٍ العملية التي يتبعها في الاختبار. لم تَكُن المسألة مسألةَ استدلال. لم يَقُل: «وجه الرجل يحمل هذه السمة أو تلك؛ لذلك فهو الشخص المتهَم.» كان اختياره مدفوعًا بالغريزة في المقام الأول؛ كان السبب كامنًا في عقله الباطن. أخيرًا، بعد أن سبَر أغوار عقله الباطن، اندفع يقول: «كان الوحيد من بين الاثنَي عشر الذي يخلو وجهه من أي خطوط.»

ضحِكا من تفسيره. لكن ما إن أخرج جرانت السر إلى النور، حتى تعرَّف على كيفية عمل غريزته وأدرك المُبرِّر الكامن خلفها. أضاف: «قد يبدو الأمر ساذجًا، لكنه ليس كذلك.» وأردف: «البالغ الوحيد دون خطوط في وجهه على الإطلاق هو الأحمق.»

قاطَعه المُفتِّش قائلًا: «فريمان ليس أحمق، خُذها منِّي.» وتابَع: «إنه فتًى مُراوِغٌ شديد الحذَر، صدِّقني.»

«لم أقصد ذلك. أقصد أن الأحمق شخصٌ غير مسئول. الأحمق مثالٌ لانعدام المسئولية. جميع الرجال الاثنَي عشر في هذا العرض كانوا في الثلاثينيات من أعمارهم، لكن واحدًا فقط كان وجهه ينمُّ عن انعدام المسئولية. لذا تعرَّفتُ عليه فورًا.»

بعد تلك الواقعة أصبح مُفتِّشو سكوتلاند يارد يُردِّدون دعابةً ظريفة يَصِفون فيها كيف يُمكِن لجرانت أن «يتعرَّف عليهم من أول نظرة». ذات مرة قال له مُساعِد المُفوِّض ساخرًا: «لا تَقُل لي أيُّها المفتش إنك تُصدِّق أنه يُوجَد ما يُسمى بالوجه الإجرامي.»

لكن جرانت أجاب حينها بالنفي؛ فهو لم يكن بهذه البساطة. وقال: «لو كان يُوجَد نوعٌ واحد من الجرائم، فربما كان ذلك مُمكنًا يا سيدي، لكن الجرائم تتنوَّع بتنوُّع الطبائع

البشرية، ولو حاوَل أحد رجال الشرطة تصنيف الوجوه فسوف تخيب مَساعيه. يُمكنك أن تُخمِّن كيف يبدو النمط المُعتاد من النساء السيئات السُّمعة بمجرد السير في بوند ستريت في أيِّ يومٍ ما بين الساعة الخامسة والسادسة، ومع ذلك تبدو أسوأ النساء سُمعة في لندن مثلَ قديسةٍ بريئة.»

ردَّ مُساعِد المُفوِّض، وقد تعرَّف على السيدة المقصودة دون أدنى صعوبة: «لم تعُد تبدو بهذه البراءة مُؤخرًا؛ فهي تُفرِط في شرب الخمر هذه الأيام»؛ ثم تحوَّلت دفة الحديث إلى أمورٍ أخرى.

لكنَّ شغف جرانت بالوجوه استمرَّ وتعاظَم حتى تحوَّل إلى دراسةٍ واعية. كان مسألةً تُعنى بدراسة سجلات الحالات والمقارنات. كما قال جرانت، لا يمكن تصنيف الوجوه، لكن من الممكن تحديد سِمات وجوه الأفراد. على سبيل المثال، في إعادة نشر لوقائع محاكمة شهيرة، حيث عُرِضَت صورٌ فوتوغرافية للفاعلين الرئيسيين في القضية من أجل الصالح العام، لم يكن يُوجَد أدنى شك فيما يتعلق بتمييز المتهَمين عن القاضي. في بعض الأحيان، ربما بدا مُمكنًا أن يتبادل المُحامون والمتهَمون أماكنهم؛ فالمحامون في نهاية المطاف عينةٌ عشوائية من البشرية، عُرضة للأهواء والطمع كبقية البشر، أمَّا القاضي فكان يتمتع بمِيزةٍ خاصة؛ النزاهة والتجرد. لذا، فحتى إن لم يرتدِ ذلك الشَّعر المُستعار، فلا يمكن أن يخلط المرء بينه وبين المتهَم في قفص الاتهام، الذي كان يفتقر إلى النزاهة والتجرد.

كان من الواضح أن جيمس، الذي كانت ماريا قد أخرجَته من «جُحره»، قد استمتع بوقته، وأبقت هذه المجموعة المُختارة من صور الجُناة، أو ضحاياهم، جرانت مُستمتِعًا إلى أن أحضرت «القزمة» له الشاي. بينما كان يُرتِّب أغطية فِراشه استعدادًا لوضعها في خِزانته لمسَت يده صورةً كانت قد انزلقت عن صدره، وبقيَت طوال العصر على غطاء الفراش دون أن يُلاحظها. التقطها جرانت وتأمَّلها.

كانت صورة بورتريه لرَجلٍ يرتدي قَلَنسُوةً مخملية وصدريَّة ذات أكمام مشقوقة على طِرازِ أواخر القرن الخامس عشر. كان رجلًا في الخامسة والثلاثين أو السادسة والثلاثين من عمره، نحيلًا وحليق اللحية. كان يرتدي ياقةً فخمة مُرصَّعة بالمجوهرات، ويُصوِّره الرسم وهو يضع خاتمًا في بِنْصِر يده اليُمني. لكنه لم يكن ينظر إلى الخاتم. بل كان ينظر إلى الفراغ.

من بين جميع البورتريهات التي شاهَدها جرانت عصر هذا اليوم، كان هذا البورتريه الأكثر تفردًا. بدا كأن الفنَّان بذل جهده ليُعبِّر على قماش القُنب عن شيء لم تكن موهبته

كافية لتُترجِمه إلى رسم. فقد أعجزه هذا التعبير الذي تنطق به العينان؛ هذا التعبير الآسِر البالغ التفرُّد. وكذا الفم؛ لم يعرف كيف يجعل شفتَين رفيعتَين هكذا ومُتَّسعتَين هكذا تبدوان كأنهما تتحركان؛ لذلك بدا الفم مُتخشِّبًا ودالًّا على إخفاق الفنَّان. ما أجاد في تصويره كان البنية العظمية للوجه؛ عظام الوجنتَين القوية، والتجاويف بينها، والذقن البالغ الاتساع للدلالة على القوة.

تأنَّى جرانت قبل أن يَقلب الصورة ليتأمَّل الوجه للحظةٍ أخرى. قاضٍ؟ جندي؟ أمير؟ كان الرجل الذي صوَّرته ريشة الرسَّام شخصًا مُعتادًا على تحمُّلِ مسئوليةٍ عظيمة، ولدَيه إحساس بالمسئولية يُظهره في ممارسته لسُلطاته. شخصٌ ذو ضميرٍ يقِظ للغاية. مُحارِب، وربما كان توَّاقًا للكمال. رجلٌ يبدو هادئًا في العموم، لكنه يهتمُّ بالتفاصيل. مُعرَّض للإصابة بقرح المعدة. يبدو لجرانت أيضًا أنه شخصٌ عانى من اعتلال صحته أثناء طفولته. كانت لدَيه تلك النظرة التي يتعذَّر وصفها، والتي تُخلِّفها مُعاناة الطفولة، أقل وضوحًا من النظرة على وجوه المُقعَدين، لكنها تُماثِلها في كونها محتومةً لا مَهرب منها. استوعب الفنَّان تلك النظرة وترجمها بريشته. الجَفن السُّفلي مُتورِّم قليلًا، وكأنه جفن طفل أفرط في النوم، تكوين البشرة؛ نظرة رجل مُسنٍّ على وجهٍ يافع.

قلَب الصورة بحثًا عن اسم صاحب البورتريه.

كانت هذه الكلمات مطبوعة في الخلف: «ريتشارد الثالث. من البورتريهات المعروضة في المَعرِض الوطني للبورتريهات. بريشة رسَّام مجهول.»

ريتشارد الثالث.

إذَن كان هذا هو صاحب البورتريه. ريتشارد الثالث. الأحدب. وحش قصص الطفولة. مُدمِّر البراءة. كان اسمه مُرادفًا للشر.

قلَب الورقة مرةً أخرى وتأمَّلها. أكان ذلك ما حاوَل الرسَّام إيصاله عندما رسم تلك العينَين؟ هل رأى في تلك العينَين نظرة رجل مُعذَّب؟

عكف طويلًا على النظر إلى ذلك الوجه؛ إلى هاتَين العينَين غير العاديتين. كانتا عينَين واسعتَين، قريبتَين من حاجبَيهما، أما الحاجبان ففيهما ذلك العُبوس المهموم والقلق الزائد. كانتا تبدوان للوهلة الأولى كأنهما تُحدِّقان، لكن عندما تتأمَّلهما تُدرِك أنهما في الحقيقة شاردتان، تكادان تكونان تائهتَين.

لما عادت «القزمة» بصينية الشاي كان لا يزال يُحدِّق في البورتريه. لم يكن قد صادَف شيئًا كهذا لسنوات. لا تعدو الموناليزا أن تكون مُلصَقًا إعلانيًّا مُقارنةً به.

فحَصت «القزمة» فنجان الشاي الذي لم يُمَس، وأمسكت الإبريق بيدٍ مُتمرِّسة وقد بدا التذمُّر على وجهها. دلَّت ملامح وجهها على أن لديها أنشطةً أجدى نفعًا من إحضار صوان لا يعبأ بها.

دفع إليها البورتريه.

سألها عن رأيها بشأنه. لو كان هذا الرجل أحدَ مَرضاها، فكيف كان سيغدو حُكمُها على شخصيَّته؟

علَّقت «القزمة» بوضوحٍ وحزم: «كبدٌ عليل»، ثم رفعت الصينية بضجرٍ مُبتعدةً تدقُّ الأرض بكعبَيها في اعتراض، وشعرها الأشقر المُموَّج يتطاير.

لكن الجرَّاح، الذي أقبل في لُطف وعفوية يتناقضان مع برود «القزمة»، كان له رأيٌ آخر. دعاه جرانت لرؤية البورتريه، فألقى عليه نظرةً فاحصة دامت بُرهةً ثم قال:

«الْتِهابُ سِنجابيَّةِ النُّخاع.»

قال جرانت: «شلل أطفال؟» وتذكَّر فجأةً أن ريتشارد الثالث كانت لدَيه ذراعٌ ضامرة.

تساءل الجرَّاح: «من هذا؟»

«ريتشارد الثالث.»

«حقًّا؟ هذا مُثير للاهتمام.»

«هل كنتَ تعلم أنه كانت لدَيه ذراعٌ ضامرة؟»

«حقًّا؟ لم أتذكَّر ذلك. كنتُ أظنُّ أنه كان أحدب.»

«كان كذلك بالفعل.»

«ما أذكره بالفعل هو أنه وُلِد مُكتمِل الأسنان، وكان يأكل الضفادع حية. حسنًا، يبدو أن تشخيصي صحيح على غير العادة.»

«غريب. لمَ اخترتَ شلل الأطفال؟»

«لا أدري بالضبط، ولكن ما دمتَ تطلب مني الآن أن أكون مُحدَّدًا، فأظن أنه ذلك السمت البادي على الوجه. إنه السمت الذي تراه على وجوه الأطفال المُقعَدين. إن كان مولودًا بالحدَب فهذا هو السبب غالبًا لشلل الأطفال. لقد لاحظتُ أن الفنَّان لم يُظهِر الحدب.»

«أجل. لا بدَّ أن يكون لدى رسَّامي البلاط قليلٌ من اللباقة. لقد كان أوليفر كرومويل أول من طلب من الرسَّامين تصوير «البثور وغيرها من العيوب».»

استطرد الجرَّاح وهو يتأمَّل في شرودٍ الجبيرة المُثبَّتة على ساق جرانت: «لو طلبتَ رأيي، فإنني أرى أن كرومويل هو مَن بدأ هذا التواضع المُتصنَّع الذي نُعاني منه جميعًا

الآن. «أنا رجل عادي؛ رجل جادٌّ وعملي.» وبلا أدب ولا لباقة ولا كرم أيضًا.» ضغط الجرَّاح على أخمص جرانت غير عابئ. استطرد: «إنه مرض مُتفشٍّ. انحرافٌ مُريع. في بعض مناطق الولايات المتحدة، حسبما أعلم، حياة المرء السياسية تُعادِل ذَهابه إلى بعض الدوائر الانتخابية مُرتديًا رابطة عُنقه ومِعطفه. أي أن تكون مُعتدًّا بنفسك. هذا هو النموذج الذي يُحتذى به»، ثم أضاف، مُشيرًا إلى الأخمص الكبير لقدَم جرانت: «يبدو في صحةٍ جيدة للغاية»، ثم عاد من تلقاء نفسه إلى البورتريه المُستقر على غطاء الفِراش.

قال: «مُثيرة للاهتمام مسألة إصابته بشلل الأطفال. ربما كان مُصابًا بالفعل بشلل الأطفال؛ وهو ما يُفسِّر الذراع الضامرة.» ظلَّ يتأمَّل البورتريه دون أن يُحرِّك ساكنًا. ثُم أضاف: «مُثير للاهتمام، على أي حال. بورتريه لقاتل. هل ترى فيه نمط القتلة؟»

«لا يُوجَد نمط للقتلة. الناس يَقتلون للكثير من الأسباب المختلفة. لكنني لا أذكُر أي قاتل يُشبِهه، سواء من واقع خِبراتي الشخصية أو من سجلَّات القضايا التي اطَّلعتُ عليها.»

«ليس له مُنافِس في فئته بالتأكيد، أليس كذلك؟ لا بدَّ أنه لم يكن يعرف معنى وخزِ الضمير.»

«لا.»

«رأيتُ أوليفر يؤدي دَورَه ذات مرة. كان التقديم الأكثر إبهارًا للشر المُطلَق. كان طوال الوقت على وشْكِ أن ينقلب إلى مسخٍ مُشوَّه، لكنه لم يفعل قط.»

ردَّ جرانت: «عندما أريتُك البورتريه، قبل أن تعرف من هو، هل خطرَت له فكرة الشر؟»

أجاب الجرَّاح: «لا، لا، خطرت لي فكرة المرض.»

«أمرٌ غريب، أليس كذلك؟ ولا أنا فكرتُ في الشر. الآن بعدما عرفتُ من هو، وقرأت اسمه خلف الصورة، لا يَسعُني التفكير إلا في الشر.»

«أظنُّ أن الشر كالجمال في عين الرائي. حسنًا، سأطمئنُّ عليك مُجدَّدًا قُرْب نهاية الأسبوع. ليس لديك آلامٌ تشكو منها حاليًّا، أليس كذلك؟»

رحل الجرَّاح، كما أقبل، في لُطف وعفوية.

لم يخطر على بال جرانت أن البورتريه كان قد قُدِّم له ليكون بمثابة جُزء من تحرٍّ جنائي إلا بعد أن تأمَّله بإمعانٍ مُتحيِّر (استفزَّه أنه حسب واحدًا من أشهر القتلة في التاريخ قاضيًا؛ فنقلُ شخص من قفص الاتهام إلى مِنصَّة القاضي هو حماقةٌ صادمة).

ما الغموض الذي أحاط بريتشارد الثالث؟

ثم تذكَّر. لقد قتَل ريتشارد ابنَي أخيه، لكن لم يكتشف أحدٌ كيفية مَقتلهما. فقد اختفيا فحسب. اختفى الصبيَّان، لو أسعفَته ذاكرته، بينما كان ريتشارد خارج لندن. أرسل ريتشارد شخصًا ما لتنفيذ مُخطَّطه. لكن اللُّغز المُتعلِّق بمصير الصبيَّين لم يُحَلَّ قط. ظهر هيكلان عظميان — أسفلَ دَرجٍ ما — في عهد تشارلز الثاني، ودُفِنا. سلَّم الجميع جدلًا أن الهيكلَين العظميَّين كانا بقايا الأميرَين الصغيرَين، لكن لم يُثبِت أحدٌ ذلك.

كان صادمًا مدى ضآلة المعلومات التاريخية التي بقيَت في ذاكرته بعد تحصيله قسطًا وافرًا من التعليم والثقافة. كل ما كان يعرفه عن ريتشارد الثالث أنه الأخ الأصغر لإدوارد الرابع. إدوارد هذا كان شابًّا أشقر لا يَقلُّ طوله عن ست أقدام، ذا مظهرٍ حسَن لافت للأنظار، وأساليب في التودُّد إلى النساء أكثر لفتًا للأنظار؛ أما ريتشارد ذاك فكان رجلًا أحدبَ اغتصب العرش من وليِّ العهد عَقِب وفاة أخيه، وخطَّط لقتلِ وليِّ العهد وأخيه الصغير ليُجنِّب نفسه أيَّةَ متاعب أُخرى. كان يعرف أيضًا أن ريتشارد مات في معركة بوسوورث وهو يَصيح طالبًا جوادًا ليَركبه، وأنه كان الأخير في تسلسُل وراثة العرش. كان آخِر سلالة أُسرة بلانتاجانت.

لطالَما طوى طلَّاب المدارس الصفحةَ الأخيرة من سيرة حياة ريتشارد الثالث بارتياح؛ لأنه عندها تكون قد انتهت أخيرًا حروب الوردتَين، ويُمكنهم الانتقال إلى أُسرة تيودور التي كانت، على رتابتها، يَسهُل تتبُّعها.

عندما أقبلت «القزمة» لتجهيزه قبل النوم، سألها جرانت: «ألم يُصادف يومًا ما أن اقتنيتِ كتاب تاريخ؟»

«كتاب تاريخ؟ لا. ماذا عساي أن أصنع بكتاب عن التاريخ؟» لم يكن هذا سؤالًا حقيقيًّا، لذلك لم يُحاوِل جرانت أن يُقدِّم إجابة. بدا أن سكوته أثار غيظها.

أضافت على الفور: «إن كنتَ ترغب حقًّا في كتاب تاريخ فيُمكِنك أن تطلب ذلك من المُمرِّضة دارول وهي تُحضِر لك العشاء. فهي تحتفظ بكل كتبها المدرسية على أحد أرفُف غُرفتها، ومن المُحتمل جدًّا أن تجد كتاب تاريخ بينها.»

كم بدا بديهيًّا أن تحتفظ الأمازونية بكتبها المدرسية! هذا ما جال في خاطر جرانت. لا تزال مُشتاقة إلى مدرستها مِثلما تشتاق إلى جلوسترشير كُلما أزهر النرجس البرِّي. عندما دلفت إلى الغُرفة بخطواتها المُتثاقِلة حاملةً بودنج الجبن ويخنة الراوند، نظر إليها جرانت

بتسامحٍ كاد يصل إلى درجة المحبَّة. لم تعُد في نظره تلك المرأة الضخمة التي تُشبِه أنفاسها صوت مِضخَّة الشفط، بل صارت مصدرًا مُحتملًا للسرور.

أوه، أجل، كان لديها، كما قالت، كتاب تاريخ. بل تظنُّ أن لدَيها كتابَين. فقد احتفظت بكل كتبها المدرسية؛ لأنها كانت تحب المدرسة.

كاد جرانت أن يسألها عما إذا كانت لا تزال مُحتفظةً بعرائسها، لكنه منع نفسه في الوقت المناسب.

قالت: «وبالطبع أحببتُ التاريخ.» وأضافت: «كان مادَّتي المُفضَّلة. ريتشارد قلب الأسد كان بطلي.»

علَّق جرانت: «وغدٌ لا يُطاق.»

فردَّت «الأمازونية»، كأنَّ كلماته جرحَتها: «أوه، لا!»

أضاف جرانت بقسوة: «رَجلٌ جامح الطُّموح.» واستطرد: «يقطع أرجاء الكرة الأرضية جيئةً وذهابًا كأنه سهمٌ ناريٌّ رديء الصُّنع. هل ينتهي دوامكِ الآن؟»

«متى أنهيتُ إيصال الصواني.»

«أيُمكنكِ أن تجدي لي ذلك الكتاب الليلة؟»

«يُفترَض بكَ أن تنام لا أن تبقى ساهرًا تقرأ كتب التاريخ.»

«ربما يَحسُن بي أيضًا أن أقرأ بعضًا من التاريخ بدلًا من التحديق في السقف. هل ستُحضِرينه لي؟»

«لا أظنُّ أن بوسعي أن أقطع كل هذه المسافة إلى مَسكن المُمرِّضات ثُم أعود ثانيةً الليلة من أجل شخصٍ يتحدَّث بوقاحة عن قلب الأسد.»

قال جرانت: «حسنًا، طبيعتي لا تُؤهِّلني أن أكون شهيدًا. قلب الأسد، من وجهة نظري، هو نموذج الفروسية، وفارس لا غبار عليه، وقائدٌ مِثالي، وحاصل على وسام الخدمة المُتميزة ثلاث مرَّات. هل ستجلبين لي الكتاب الآن؟»

فردَّت، وهي تُسوِّي أحد أركان الفِراش بيدٍ ضخمة، وقد أعجبها ما قاله: «يبدو لي أنك في حاجةٍ ماسَّة إلى قراءة القليل من التاريخ؛ لذا سوف أُحضِر لك الكتاب عندما أمرُّ من هنا. سأخرج إلى دار السينما على أية حال.»

مضَت ساعة تقريبًا قبل أن تُعاوِد الظهور مرةً أخرى بهيئتها الضخمة مُرتديةً مِعطفًا مصنوعًا من وبَر الإبل. كانت مصابيح الغُرفة قد انطفأت فتجسَّدَت في ضوء مِصباح القراءة الخاص بجرانت كأنها إحدى الجِنِّيات الطيِّبات.

بادَرَته قائلةً: «كنتُ آمُل أن تكون قد نِمت. لا أظن حقًّا أنه يَحسُن بك البدء في هذَين الكتابَين الليلة.»

فردَّ جرانت: «إن كان يُوجَد شيء يُمكن أن يُساعدني على النوم فهو كتاب عن التاريخ الإنجليزي. لذا يُمكنكِ أن تُمسِكي بيدِ أحدهم بضميرٍ مُرتاح.»

«سأخرج مع المُمرِّضة باروز.»

«لا يزال بإمكانكِ أن تُمسِكي بيد أحدهم.»

فردَّت بلهجةٍ تفيض صبرًا: «لا صبر لي على تَحمُّلك»، ثم تراجعت مُختفيةً في الظلام.

كانت قد أحضرت كتابَين.

كان أحدهما من نوعية كُتُب التاريخ التي تُعرَف باسم «القارئ التاريخي». علاقة هذه الكتب بالتاريخ كعلاقة كتاب «قصص من الكتاب المُقدَّس» بالكتاب المُقدَّس. وبَّخ كنوت حاشيته على الشاطئ، وأحرق ألفريد الكعكات، وفرش رالي عباءته من أجل إليزابيث، وودَّع نيلسون هاردي في مَقصورته على متن سفينته فيكتوري، وكل ذلك كان مكتوبًا بخطٍّ كبيرٍ واضح مُنمَّق، وكل جملة تُشكِّل فقرةً كاملة. كانت تَعقُب كلَّ فصل صفحةٌ كاملة من الرسوم التوضيحية.

كان ثمة شيءٌ ما مُؤثِّر على نحوٍ غريب في احتفاظ «الأمازونية» بهذه الكتابات الطفولية. انتقل جرانت إلى الصفحة الأولى ليرى ما إذا كان اسمُها مكتوبًا. في الصفحة الأولى وجد الآتي:

«إلا دارول»،
الصف الثالث،
مدرسة نيو بريدج الثانوية،
نيو بريدج،
جلوسترشير،
إنجلترا،
أوروبا،
العالم،
الكون.

وكانت هذه الكلمات مُحاطة بمجموعةٍ مُنتقاة من الرسوم المنقولة والمُلوَّنة.

تساءل جرانت عمَّا إذا كان جميع الأطفال يفعلون ذلك؟ يكتبون أسماءهم بهذه الكيفية ويُمضون أوقاتهم في الفصول في نقل الرسوم. كان يفعل ذلك بالطبع. وجعله منظر هذه المُربَّعات ذات الألوان الأولية الفاقعة يسترجع ذكريات الطفولة كما لم يفعل أيُّ شيءٍ آخر منذ سنواتٍ كثيرة. كان قد نسيَ مُتعة نقل الرسوم. تلك اللحظة المُفعَمة بالنشوة المُذهِلة عندما تشرع في نزع ورقة الكربون وتجد الرسم مِثاليًّا. لا يضمُّ عالَم البالِغين إلا القليل من مِثل هذه اللحظات المُرضية. ربما كان أقرب الأمثلة على هذه اللحظات هو لحظة تسديدك كرةَ الجولف في الحفرة من ضربةٍ واحدة. أو لحظة شدِّ خَيط سنَّارتك وإدراكك أن السمكة قد عَلِقت بالخُطَّاف.

سُرَّ جرانت كثيرًا بهذا الكتاب الصغير حتى إنه راح يتصفَّحه في وقت فراغه. أخذ جرانت يقرأ بجديةٍ كل قصة من قصصه الطفولية. في نهاية المطاف، كان هذا هو التاريخ الذي يتذكره كل شخصٌ بالغ. كان هذا ما يتبقَّى في وِجدانه عندما تتلاشى من وعيه الرسوم الجمركية والضرائب، وضرائب السُّفن، وليتورجيا لاود، ومؤامرة راي هاوس، وتشريعات السنوات الثلاث، وهذه الفوضى الطويلة من الانشقاقات والاضطرابات والمعاهدات والخيانات.

حين أتى على قصة ريتشارد الثالث وجدها بعنوان «أميرَا البرج»، ويبدو أنَّ الفتاة لم ترَ الأميرَين إلا بديلًا غير كفء لقلب الأسد؛ إذ ملأت بقلمها الفراغ داخل كل حرف O طوال القصة بظلالٍ مُتقَنة. جاءت القصة مصحوبةً برسم للأميرَين الأشقرَين وهما يلعبان معًا تحت أشعَّة الشمس المُتسلِّلة من بين قُضبان النافذة، وقد ارتدى كلٌّ منهما عويناتٍ عفا عليها الزمن، وفي الصفحة البيضاء في خلفية الرسم لعب أحدٌ ما لُعبة X-O. لم يكن الأميران، من وجهة نظر الفتاة، إلا شخصيَّتَين مُخيِّبتَين للآمال.

على الرغم من ذلك، كانت القصة الصغيرة مُثيرة للاهتمام جدًّا. كانت بَشِعة بما يكفي لإسعاد قلب أي طفل. الطفلان البريئان؛ والعم شِرِّير. العناصر الكلاسيكية لقصةٍ ذات بساطة كلاسيكية.

كانت لها أيضًا رسالةٌ أخلاقية. كانت القصة التحذيرية المُثلى.

لكن الملك لم يجنِ أي مَكسب من هذه الفعلة الشنيعة. فقد فَزِع الشعب الإنجليزي من قسوته ووحشيَّته وقرَّر خلعه من العرش. أرسلوا إلى أحد أقربائه البعيدِين، وهو هنري تيودور، الذي كان يعيش في فرنسا، طالبين منه الحضور ليُتوِّجوه ملكًا بدلًا من ريتشارد. مات ريتشارد ببسالة في المعركة التي نتجت عن ذلك، لكنه كان قد جعل اسمه مكروهًا في جميع أنحاء البلاد، وتخلَّى عنه كثيرون ليُقاتِلوا في صفوف خصمه.

حسنًا، كان الكتاب مُنمَّقًا وجيِّد التنظيم لكن دون بَهرجة. سردٌ للوقائع في أبسط صوره.

انتقل جرانت إلى الكتاب الثاني.

كان الكتاب الثاني كتاب تاريخ مدرسي لا أكثر ولا أقل. كان يضمُّ تاريخ إنجلترا على مدار ألفَي عام مُقسَّمًا بعناية إلى أقسام لتسهيل الرجوع إليه. كانت الأقسام، كالعادة، هي العهود الملكية. لا غرابة في أن المرء كان يُلحِق كل شخصية تاريخية بعهدٍ مُعيَّن، مُتناسيًا أن بعض الشخصيات عرَفت أكثر من ملك وعاشت في ظلِّ أكثر من عهدٍ ملكي. اعتاد المرء أن يُصنِّفهم تلقائيًّا إلى خانات. «بيبس»: تشارلز الثاني. «شكسبير»: إليزابيث. «مارلبورو»: الملكة آن. لم يَخطُر على بال المرء قطُّ أن شخصًا قد رأى الملكة إليزابيث ربما يكون قد استطاع أن يرى جورج الأول أيضًا. لقد درَجْنا منذ طفولتنا على فكرة العهود الملكية.

ومع ذلك كان هذا التقليد يُبسِّط الأمور بالفعل عندما تكون مجرد شُرطي بساقٍ مُصابة وعمودٍ فقري مُعتل، يُفتش عن بعض المعلومات حول ملوك راحِلين مُحاولًا أن يمنع نفسه من أن يُصاب بالجنون.

فُوجِئ عندما وجد أنَّ عهد ريتشارد الثالث كان بالِغَ القِصَر. أن تصير واحدًا من أشهر الحُكام في تاريخ إنجلترا المُمتدِّ لألفَي عام، وأن تحتلَّ هذه المكانة خلال عامَين فقط، لهُوَ أمرٌ يُنبئ بشخصيةٍ بارعة. حتى وإن لم ينجح ريتشارد في اكتساب الحُلفاء فقد صنع تأثيرًا في حياة الناس بلا أدنى شك.

ذهب الكتاب أيضًا إلى أن ريتشارد كان ذا شخصيةٍ قوية.

كان ريتشارد رَجلًا عظيم القُدرات، لكنه كان مُنعدِم الضمير تمامًا حين يتعلق الأمر بالوسائل. فقد ادَّعى بجرأةٍ أحقيَّته بالعرش مُستندًا إلى حجةٍ سخيفة مُفادُها أن زواج أخيه من إليزابيث وودفيل غير قانوني؛ ومن ثَم فإن ولدَيهما غير شرعيَّين. وافَق على حُكمه الناسُ الذين خشوا من أقليَّة، واستهلَّ عهده بالتقدُّم نحو الجنوب حيث لقيَ تَرْحابًا. لكن خلال هذا التقدُّم، اختفى الأميران الصغيران اللذان كانا يعيشان في البرج، وقيل إنهما قُتِلا. اندلع بعد ذلك تمردٌ خطير، لكن ريتشارد قمعَه بوحشيَّةٍ بالغة. سعيًا إلى استعادة بعض من شعبيَّته المُتراجِعة، عقد ريتشارد برلمانًا مرَّر قوانين مُفيدة ضد التبرُّعات الإلزامية للملك ونظام النفقة والكسوة.

لكن تمرُّدًا ثانيًا اندلع. اتَّخذ هذا التمرُّد شكل الغزو؛ إذ جاء مصحوبًا بالقوات الفرنسية، وقادَه زعيم أسرة لانكستر، هنري تيودور. تلاقى هنري وريتشارد في بوسوورث

بالقُرب من ليسترشير؛ حيث أدَّت خيانة الأخوَين ستانلي إلى ترجيح كفَّة هنري. لقيَ ريتشارد حتفه أثناء المعركة، بعدما قاتَل ببسالة، تاركًا سُمعةً لا تقلُّ سوءًا عن سُمعة جون.

بحقِّ السماء، ماذا كانت قيمة قرارات إلغاء التبرُّعات الإلزامية للملك ونظام النفقة والكسوة؟

وكيف رضيَ الإنجليز بأن تُقرِّر لهم القوات الفرنسية من يلي ريتشارد على عرش إنجلترا؟

لكن لا شك في أن فرنسا أيام حروب الوردتَين كانت لا تزال بمنزلة جزءٍ شِبه مُنفصل عن إنجلترا؛ إذ كان المُواطن الإنجليزي أقلَّ اغترابًا في فرنسا عنه في أيرلندا. فالإنجليز أثناء القرن الخامس عشر كانوا يذهبون إلى فرنسا باعتبارها وجهةً مُعتادة إليهم، أما أيرلندا فلم يكونوا يطئون أرضها إلا مُكرَهين.

رقد جرانت يُفكِّر في إنجلترا. ذلك البلد الذي شُنَّت من أجله حروب الوردتَين. إنجلترا الخضراء؛ بلا عمود مِدخنة واحد من كمبرلاند وصولًا إلى كورنوول. إنجلترا بلا أسيِجة، وبغاباتٍ تحفل بالطرائد وسبخاتٍ شاسعة مليئة بالطيور البرِّية. إنجلترا التي كانت تضمُّ ثُلَّة من المباني تتكرَّر الترتيب بنفسه كل بضعة أميال بلا نهاية: قلعة ثم كنيسة ثم أكواخ، دير ثم كنيسة ثم أكواخ، ضيعة ثم كنيسة ثم أكواخ. الأراضي المزروعة حول مجموعة المباني، ثم الغطاء الأخضر المُمتد فيما وراء ذلك. غطاءٌ أخضر مُتصل لا انقطاع له. الممرَّات المحفورة بعُمق وتمتدُّ من مجموعة إلى مجموعة، مُتحولةً إلى مُستنقَعات مُوحِلة شتاءً وحُفَر بيضاء مُغبرَّة صيفًا، تُزيِّنها الورود البرِّية أو تكسوها ثمار الزعرور الحمراء مع تعاقُب الفصول.

على مدار ثلاثين عامًا، وفوق هذه الأرض الخضراء غير المُزدحِمة، دارت حروب الوردتَين. لكنها كانت أخذًا بالثأر أكثر منها حربًا. كانت تُشبِه الصراع بين عائلتَي مونتاج وكابوليت؛ لم تكن تُهمُّ كثيرًا المُواطن الإنجليزي العادي. ما كنتَ ستجد من يتدافعون على بابك يطلبون معرفةَ ما إذا كنتَ تنتمي إلى آل يورك أم إلى آل لانكستر، ويَسوقونك إلى أحد معسكرات الاعتقال إن تبيَّن أن جوابك لم يَرُق لهم. كانت حربًا صغيرة مُركَّزة، تكاد تكون حفلًا خاصًّا. كانوا يخوضون معركة في حديقة منزلك، وحوَّلوا مطبخك إلى نقطة إسعاف ميدانية، ثم ينتقلون إلى مكان ما هنا أو هناك ليخوضوا معركةً أخرى، ثم يتنامى إلى سمعك بعد بضعة أسابيع ما جرى خلال هذه المعركة، فتنشب مشاجرة أُسرية حول

ما تمخَّضَت عنه؛ لأن زوجتك كانت تؤيد في الغالب لانكستر، وربما كُنتَ أنت تؤيد يورك، والأمر برُمَّته أشبه بمتابعة فريقَي كرة قدم مُتنافسَين. ما كنت ستُعانيه من اضطهاد لكونك مؤيدًا لآل لانكستر أو آل يورك لن يزيد عما قد تُلاقيه من اضطهاد لتشجيعك فريق أرسنال أو تشيلسي.

ظل يُفكر في حال إنجلترا الخضراء تلك حتى غلبه النوم.

ولم يزدَد معرفةً على الإطلاق بالأميرَين الصغيرَين ومصيرهما.

الفصل الثالث

«ألا يُمكنك أن تجد شيئًا أكثر إبهاجًا لتنظر إليه من ذلك الشيء؟»، هكذا تساءلت «القزمة» في الصباح التالي، قاصدةً صورة ريتشارد التي أسندها جرانت إلى كومة الكُتب المُستقرة فوق الطاولة إلى جوار فِراشه.

«ألا تجدينه وجهًا مُثيرًا للاهتمام؟»

«مُثيرًا للاهتمام؟ إنه يُصيبني بالرُّعب. لا يختلف البتَّةَ عن دمية الكلب «ديزموند الكئيب».»

«كُتبُ التاريخ تَصِفه بأنه كان رجلًا عظيم القدرات.»

«كذلك كان ذو اللحية الزرقاء.»

«وذا شهرةٍ واسعة، على ما يبدو.»

«وكذلك كان ذو اللحية الزرقاء.»

فأضاف جرانت بمكر: «وجنديًّا بارعًا أيضًا»، ثم انتظر. وأردف: «هل كان ذو اللحية الزرقاء مِثله في ذلك أيضًا؟»

«ما الذي يجعلك ترغب في النظر إلى ذلك الوجه؟ من كان على أي حال؟»

«ريتشارد الثالث.»

«أوه، حسنًا، لم أتفاجأ!»

«أتقصدين أنكِ توقَّعتِ أن يبدوَ هكذا؟»

«بالضبط.»

«لماذا؟»

«قاتلٌ مُتوحِّش، ألم يكن كذلك؟»

«يبدو أنكِ تعرفين تاريخه.»

«الكل يعرفه. لقد قتل ابنَي أخيه الصغيرَين، الطفلَين المِسكينَين. خُنِقا حتى الموت.»

تساءل جرانت مُهتمًّا: «خُنِقا؟ لم أكن أعرف ذلك.»

«خُنِقا بالوسادات.» ثم ربَّتت على وساداته بقبضةٍ رقيقة مُفعَمة بالحيوية، واستبدلتها بسرعة وإتقان.»

سألها جرانت قائلًا: «ولماذا الخنق؟ لماذا لم يستعمل السُّم؟»

«لا تسألني. لم أُدبِّر المكيدة.»

«من قال إنه خنقهما؟»

«كتاب التاريخ الذي درستُه في المدرسة.»

«أجل، ولكن عمَّن نقل كتاب التاريخ هذا الادِّعاء؟»

«نقَل؟ لم يَنقِل أيَّ شيء. كان يَسرد حقائق فقط.»

«من خنقَهما، هل أورد ذلك؟»

«رَجلٌ يُدعى تيريل. ألم تدرس مادة التاريخ نهائيًّا في المدرسة؟»

«لقد حضرتُ دروسًا في التاريخ. الأمر يختلف عن المناهج المدرسية. من كان تيريل؟»

«ليس لديَّ أدنى فكرة. صديق لريتشارد.»

«كيف تسنَّى لأيِّ أحدٍ أن يعرف أنَّ تيريل كان الفاعل؟»

«لقد اعترف.»

«اعترف؟»

«بعدما ثبتت إدانته بالطبع. قبل أن يُشنَق.»

«أتعنين أن تيريل هذا شُنِق بالفعل لقتله الأميرَين؟»

«أجل، بالطبع. أتسمح بأن أُزيل هذا الوجه الكئيب وأن أضع شيئًا أكثر إبهاجًا؟ يُوجَد الكثير من الوجوه الجميلة في المجموعة التي أحضرَتها الآنسة هالارد أمس.»

«الوجوه الجميلة لا تُثير اهتمامي. لا أهتمُّ إلا بالوجوه الكئيبة؛ «القتلة المُتوحِّشين» الذين هم «رجالٌ ذوو قدراتٍ عظيمة».»

قالت القزمة مُضطرَّةً: «حسنًا، لا يمكن تبرير الأذواق.» وأردفت: «ولستُ مُضطرَّة للنظر إليه، حمدًا للرب. لكن في تقديري المُتواضع، هذا الوجه يكفي لمنع العظام من الالتئام، صدِّقني.»

«حسنًا، لو لم يلتئم كسري فيُمكنكِ أن تنسبي ذلك إلى ريتشارد الثالث. إنها تُهمةٌ أخرى صغيرة لن يُلاحظها أحد، حسبما يبدو لي.»

لا بد أن يسأل مارتا حين تزوره المرة القادمة عما إذا كانت تعرف تيريل هذا هي أيضًا. لم تكن معلوماتها العامة عظيمة جدًّا، لكنها تلقَّت تعليمًا باهظ التكلفة للغاية في إحدى المدارس المعتمَدة المرموقة، وربما بعض هذه المعلومات لا يزال محفوظًا في ذاكرتها.

لكن تبيَّن أن أول زائر من العالَم الخارجي اقتحم عُزلته هو السيرجنت ويليامز؛ الذي كان رجلًا ضخم الجثة ذا وجهٍ وردي ومظهرٍ لامع كأنه مصقول، وكان جرانت قد نسيَ لوهلةٍ المعارك القديمة، وتصوَّر أن المُحتالين قد عادوا إلى العمل مرةً أُخرى. استقرَّ ويليامز في جلسته على مقعد الزُّوَّار الصغير الصلب وقد باعَد بين رُكبتَيه، وراحت عيناه بلَونهما الأزرق الفاتح ترمشان كعينَي قطةٍ مسرورة تحت الضوء المُتسرِّب من النافذة، ونظر جرانت إليه بمودَّة. كان من المُمتِع التحدُّث عن مِهنته مرةً أخرى؛ أن يستخدم تلك التعريضات والتلميحات التي لا يستخدمها المرء إلا مع أرباب مِهنته. كان مِن المُمتع أن يستمع إلى شائعات المهنة، وأن يتحدَّث عن الصراعات والتحالفات بين أرباب المهنة، وأن يعرف من تَنْهال عليه الانتقادات ومن يُشارِف نجمُه على الأُفول.

قال ويليامز وهو ينهض ليَهمَّ بالمغادرة: «رئيس الشرطة يُرسِل إليك تحيَّاته، ويقول لك إن كان في وسعه مساعدتك بأي شيء فلْتُبلغه.» اتجهت عيناه، اللتان لم يَعُد الضوء يبهرهما، نحو الصورة الفوتوغرافية المُستنِدة إلى الكتب. مال برأسه جانبًا ناظرًا إليها. وقال: «من الرجل؟»

كان جرانت على وَشْك أن يُجيبه عندما خطرَ له أن الرجل ضابط شرطة. إنه رجلٌ مُعتاد، بحكم مِهنته، على الوجوه المُماثِلة تمامًا. رَجلٌ تُمثِّل له الوجوه أهميةً يومية.

أجاب جرانت: «بورتريه لرَجلٍ بريشة فنَّان مجهول عاشَ في القرن الخامس عشر.» وأردف: «ما رأيك؟»

«ليس لديَّ أدنى فكرة عن الرسم.»

«لم أقصد ذلك. أقصد: ما رأيك في الشخص المرسوم؟»

انحنى ويليامز إلى الأمام وقطَّب حاجبَيه مُتظاهرًا بالتركيز: «أوه. أوه، فهمت.» وأضاف: «ماذا تعني بقولك «ما رأيك»؟»

«حسنًا، أين عساك تضعه؟ في قفص الاتهام أم على مِنصَّة القاضي؟»

فكَّر ويليامز بُرهةً ثم قال بثقة: «أوه، على منصة القاضي.»

«ولمَ؟»

«بالتأكيد. لماذا؟ ألا ترى ذلك؟»

«بلى. لكنَّ الغريب أنَّ كِلَينا على خطأ. فمكانه في قفص الاتهام.»

قال ويليامز وهو يُحدِّق في الصورة مُجدَّدًا: «أنت تُدهِشني.» وسأله: «أتعرِف من هو إذَن؟»

«أجل. ريتشارد الثالث.»

صفَّر ويليامز.

وقال: «إذَن هذا هو! حسنًا، حسنًا. أميرا البرج، وكل هذه التفاصيل. النموذج الأصلي للعم الشِّرير. أظنُّ أنك ما إن تعرِف هُويَّته حتى ترى هذا المعنى، لكنه لن يَخطُر ببالك مُسبقًا. أقصد، لن يخطر ببالك أنه كان مُجرِمًا. إنه صورةٌ طبق الأصل من هولزبري العجوز، فكِّر في الأمر، ولو كان هولزبري قد ارتكب خطأً واحدًا في حياته فسيكون أنه بالَغ في التساهل مع الصعاليك في المرسى. فقد اعتاد على ألا يدَّخر جهدًا في أن يُحسِن الظن بهم.»

«أتعرف كيف قُتِل الأميران؟»

«لا أعرف أي شيء عن ريتشارد الثالث باستثناء أنَّ والدته ظلَّت حاملًا فيه لمدة عامَين.»

«ماذا؟! من أين جئتَ بهذه القصة؟»

«من كتُب التاريخ المدرسية، حسبما أظن.»

«لا بدَّ أنك كنت ترتاد مدرسةً استثنائية للغاية. لم يُذكَر أمر الحمل في أيٍّ من كتُب التاريخ لديَّ. هذا ما جعل من مسرحيات شكسبير وقصص الكتاب المُقدَّس دروسًا جديدة ومختلفة؛ فدائمًا ما كانت تتجلى فيها حقائق الحياة. هل سمعتَ من قبلُ عن رَجلٍ يُدعى تيريل؟»

«أجل؛ كان رجلًا مُحتالًا على مراكب شركة بي آند أوه. مات غرقًا في مصر.»

«لا، أقصد الشخصية التاريخية.»

«صدِّقني، لا أفقه شيئًا في التاريخ إلا عامَي ١٠٦٦ و١٦٠٣.»

فبادَره جرانت مُتسائلًا وبالُه لا يزال مُنشغلًا بتيريل: «ماذا حدث في عام ١٦٠٣؟»

«ضمَمْنا الاسكتلنديِّين إلينا إلى الأبد.»

«أفضَلُ من أن يُهاجمونا كل خمس دقائق. يُقال إن تيريل هو الرجل الذي أزاح الصبيَّين من الطريق.»

«ابنا الأخ؟ لا، لا أذكُر شيئًا كهذا. حسنًا، عليَّ الانصراف. هل بوسعي مساعدتك في أي شيء؟»

«هل قُلتَ إنك مُتوَجِّه إلى شارع تشارينج كروس؟»

«أجل، إلى مسرح فينيكس.»

«بوسعك أن تفعل شيئًا لأجلي.»

«ما هو؟»

«اذهب إلى إحدى المكتبات وابتَع لي كتابًا عن تاريخ إنجلترا. كتابًا للبالغين. وآخَر عن حياة ريتشارد الثالث، لو وجدت واحدًا.»

«بالتأكيد، سأفعل.»

بينما كان في طريقه إلى الخارج قابَل «الأمازونية»، فبدا عليه الذهول أن وجد شخصًا ضخمًا مِثله في زيٍّ مُمرِّضة. ألقى تحية صباح هامسةً بارتباك، ورمق جرانت بنظرةٍ مُتسائلة، ثم اختفى في الممر.

قالت «الأمازونية» إنه كان من المُفترَض أن تُحمِّم المريض رقم أربعة، لكنها اضطرَّت إلى المرور به لترى إن كان قد اقتنع.

«اقتنعت؟»

فأوضحت أنها تقصد أن تسأل إن كنتُ قد اقتنعتُ بنُبل ريتشارد قلب الأسد.

أجبتُ: «لم أجد وقتًا بعدُ للتفكير في أمر ريتشارد الأول. لكن اتركي المريض رَقْم أربعة مُنتظرًا لبضع دقائق، وأخبريني بما تَعرفينه عن ريتشارد الثالث.»

ردَّت الأمازونية وقد رقَّت عيناها الواسِعتان كعيون البقر وامتلأتا بالشفقة: «آه، هذان المِسكينان!»

«من تقصدين؟»

«هذين الصبيَّين الصغيرين الغاليَين. كان الأمر يُمثِّل لي كابوسًا في طفولتي. أعني أن يأتي شخصٌ ما ويضع وسادةً فوق وجهي وأنا نائمة.»

«أهكذا تمَّت؛ أعني عملية القتل؟»

«أوه، أجل. ألم تكن تعرف؟ رَكِب السير جيمس تيريل عائدًا إلى لندن بينما كان الملك وحاشيته في ورويك، وأمرَ دايتون وفوريست بقتلهما، ثم دُفِنا أسفل بعض السلالم تحت كومةٍ عظيمة من الحجارة.»

«لكن الكتاب الذي أعَرتِني إيَّاه لا يَذكُر ذلك.»

«أوه، هذا الكتاب مُعَد لاجتياز اختبارات التاريخ فحسب. لا تجد مثل هذه المعلومات التاريخية الشيِّقة في كُتبٍ مُملَّة كهذا.»

«قد يسأل سائل: من أين جئتِ بتلك الشائعة المُثيرة المُتعلِّقة بتيريل؟»

قالت الأمازونية، وقد جُرِحت كبرياؤها: «إنها ليست شائعة.» وأردفت: «لقد ذكرها السير توماس مور في تأريخه لحقبته. ولا يمكن أن تجِدَ شخصًا أكثر احترامًا أو جدارةً بالثقة في التاريخ أجمع من السير توماس مور، أم إنك تعتقد خلاف ذلك؟»

«لا. سيكون من سوء الأدب مُخالفة السير توماس.»

«حسنًا، ذلك ما ذكره السير توماس، ثُم إنه عاصَر تلك الفترة وعرَف كل أولئك الذين تكلَّم عنهم.»

«دايتون وفوريست؟»

«لا، بالطبع لا. بل ريتشارد، والملكة البائسة، وأولئك.»

«الملكة؟ الملكة زوجة ريتشارد؟»

«أجل.»

«ولماذا وصفتِها بأنها «البائسة»؟»

«لقد جعلها تحيا حياةً تعيسة. يقولون إنه قتلها بالسُّم. أراد أن يتزوج ابنة أخيه.»

«لماذا؟»

«لأنها كانت وريثة العرش.»

«فهمت. تخلَّص من الصبيَّين، ثم أراد أن يتزوَّج من أختهما الكبرى.»

«أجل. لم يكن بوسعه أن يتزوَّج أيًّا من الصبيَّين، كما ترى.»

«لا، أظن أن ريتشارد الثالث نفسه لم يَخطُر بباله هذا الأمر قط.»

«لذا أراد أن يتزوَّج إليزابيث ليُثبِّت أقدامه على العرش. في الواقع، لقد تزوَّجَت، بالطبع، خليفته. كانت جدة الملكة إليزابيث. لطالما أسعدني أن إليزابيث تنحدِر في جزءٍ منها من أُسرة بلانتاجانت. لم أكُن شغوفةً أبدًا بأُسرة تيودور. لا بدَّ أن أذهب الآن، وإلا سوف تَحضُر رئيسة المُمرِّضات في مُرورها الإشرافي قبل أن أُحمِّم المريض رَقْم أربعة.»

«ستكون تلك نهاية العالم.»

فقالت: «ستكون نهايتي أنا»، ثُم غادرت.

عاد جرانت ليلتقط الكتاب الذي أعارته إيَّاه من كومة الكتب، وحاوَل أن يستوعب وقائع حروب الوردتَين. لكنه فَشِل. لم يستوعب المغزى من تسيير الجيوش ثم عودتها أدراجها. ولم يفهم جدوى تعاقُب آل يورك ولانكستر في الانتصار والهزيمة كأنهم يدورون في حَلْقةٍ مُفرَغة. بدا الأمر عبثيًّا كمشاهدةِ حشدٍ من السيارات المُتصادمة وهي تدور وتتصادم في ساحةِ إحدى مُدن الملاهي.

لكن بدا له أن جذور المشكلة برُمَّتها كانت خفيَّة، وقد غُرِست بُذورها قبل هذه الحرب بمائة عام تقريبًا، حين اختلَّ خط ولاية العرش المباشر بعزل ريتشارد الثاني. كان جرانت على دراية بكلِّ ذلك؛ لأنه كان قد شاهَد في شبابه مسرحية «ريتشارد بوردو» وقت عرضها على المسرح الجديد؛ لقد شاهَدها أربع مرَّات. على مدار ثلاثة أجيال، حكمت عائلة لانكستر إنجلترا غصبًا؛ بدايةً من هنري، ابن عم ريتشارد الثاني، الذي اغتصب العرش، لكنه أثبت كفاءةً مقبولة في حُكمه؛ ثم هنري الخامس، الذي جسَّد شكسبير قصته في إحدى مسرحياته، والذي خاض معركة أجينكور بحثًا عن المجد، واشتُهر باستخدامه للقتل بالخوازيق بوحشية؛ وأخيرًا ابنه الضعيف العقل الذي حفل عهده بالفوضى والإخفاقات. لا عَجب إذَن في أن الإنجليز كانوا يتلهَّفون إلى عودة خط ولاية العرش الشرعي إلى مجراه وهم يُشاهدون أصدقاء هنري السادس الحمقى وهم يُضيِّعون الانتصارات في فرنسا، بينما هنري مُنشغِل برعاية مدرسة إيتون الجديدة التي أسَّسها، وطالَب سيدات البلاط بتغطية صدورهن.

اتَّسم الحُكام الثلاثة من عائلة لانكستر كلهم بتعصبٍ بغيض كان يتناقض بشدة مع ليبرالية البلاط التي لفظت أنفاسها الأخيرة برحيل ريتشارد الثاني. لقد أفسحت أساليب ريتشارد المُتسامِحة مع الآخرين المجال، بين ليلة وضُحاها، أمام حرق الهراطقة. تعرَّض الهراطقة للحرق أحياءً على مدار ثلاثة أجيال. فلا عَجب إذَن أنْ بدأت جذوة السخط الخفيَّة تضطرم في صدر عامة الإنجليز.

لا سيَّما وهم يرَون أمام أعيُنهم دوق يورك. كان أميرًا مُؤهَّلًا للحكم، سديد الرأي، ذا نفوذ ومواهب، واستمدَّ عظمته من جدارته، وفضلًا عن ذلك كان الوريثَ الشرعيَّ لريتشارد الثاني. ربما لم يرغبوا في أن تحلَّ عائلة يورك محلَّ عائلة هنري الأحمق العاجز، لكنهم كانوا يَرجون حقًّا أن يتولى زمام الحُكم ويُنهيَ هذه الفوضى.

حاوَل دوق يورك أن يفعل ذلك، ومات في إحدى المعارك مُتأثرًا بجِراحه، وأمضت عائلته نتيجةً لذلك وقتًا طويلًا إما في المنفى أو في ملاجئ آمِنة.

لكن حين انتهى كلُّ هذا الاضطراب والصخب، كان على عرش إنجلترا الابن الذي حارَب إلى جواره في ذلك النضال، وسعدت البلاد بعودة الاستقرار إليها تحت حكم إدوارد الرابع؛ ذلك الشاب الأشقر البالغ الوسامة، الطويل القامة، المُتعدِّد العلاقات النسائية، غير أنَّ أهم ما كان يميزه هو حِكمته وسداد رأيه رغم صِغَر سِنه.

وذلك كان أقصى ما وَسِع جرانت فَهمُه فيما يخصُّ حروب الوردتَين.

رفع جرانت ناظرَيه عن كتابه ليرى رئيسة المُمرِّضات واقفةً في مُنتصَف الغُرفة. فبادرَته قائلةً: «لقد طرقتُ الباب، لكنك كنتَ مُستغرقًا في كتابك.»

وقفت هناك ممشوقةَ القوام ومُتحفِّظة، تُضاهي مارتا في بهائها، تَشابك كفَّاها بسوارَيهما الأبيضين بغير إحكام أمامَ خَصْرها الرفيع، وانسدل غطاء رأسها الأبيض بوقارٍ لا مُتناهٍ، وكانت زينتها الوحيدة هي شارتها الفضية الصغيرة الدالَّة على شهادتها التعليمية. تساءل جرانت مُتعجبًا عما إذا كان ثَم وقارٌ أشدُّ رسوخًا من ذلك الذي تكتسبه رئيسة المُمرضات في أحد المُستشفيات الكبيرة.

أجابها قائلًا: «لقد استهواني التاريخ.» وأردف: «بدأتُ في ذلك في مرحلةٍ مُتأخِّرة من عمري.»

فردَّت مُعلِّقةً: «اختيارٌ جدير بالإعجاب.» وتابعت: «إنه يضع الأمور في نِصابها الصحيح.» ثم وقعت عيناها على البورتريه فسألته قائلةً: «أنت من أنصار عائلة يورك أم عائلة لانكستر؟»

«إذَن تعرَّفتِ على صاحب البورتريه.»

«أوه، أجل. اعتدتُ أن أُمضيَ وقتًا طويلًا في المَعرِض الوطني حين كنت مُتدرِّبة. لم أكُن أمتلك إلا النزر القليل من المال وقدَمَين مُتورِّمتَين من كثرة المشي، وكانت قاعات المعرض دافئةً وهادئة وفيها الكثير من المقاعد.» علَت مُحيَّاها ابتسامةٌ خفيفة وهي تتأمَّل مُسترجعةً في ذاكرتها تلك الشابَّة المُنهَكة المُجدَّة، ثم المكانة التي صارت عليها الآن. تابعت: «أحببتُ المعرض الوطني لأنه كان يمنح المرء قُدرة على تقدير المواقف والأشخاص تمامًا كقراءة التاريخ. كل تلك الرموز التاريخية التي غيَّرت مجرى التاريخ. كل تلك الأسماء. كل تلك اللوحات القماشية والزيتية. شاهدت ذلك البورتريه كثيرًا آنذاك.» عادت بناظرَيها إلى البورتريه، ثم قالت: «مخلوقٌ شديد التعاسة.»

«جرَّاحي يظنُّ أنه مُصاب بشلل الأطفال.»

ردَّدَت مُتأملةً: «شلل الأطفال؟» وأضافت: «ربما. لم يسبق أن فكَّرتُ بالأمر. لكنه بدا لي دائمًا رمزًا للتعاسة الشديدة. إنه الوجه الأشدُّ تعاسةً بين كل الوجوه التي صادفتُها، ولقد صادفتُ كثيرًا من الوجوه.»

«تظنِّين إذَن أن البورتريه رُسِم بعد جريمة القتل؟»

«أوه، أجل. بالتأكيد. إنه ليس بالرجل الذي يفعل أي شيء عبثًا. رجل بمِثل تلك القدرات. لا بدَّ أنه كان على درايةٍ تامَّة بمدى فظاعة الجُرم.»

«تحسبينه من ذلك النوع من البشر الذي لا يستطيع أن يتحمَّل تأنيب الضمير.»

«يا له من وصفٍ جيِّد! أجل. النوع الذي يرغب في شيء بشدَّة ثم يكتشف أن الثمن الذي كلَّفه ذلك الشيء باهظ للغاية.»

«إذَن لا ترَين أنه كان شِرِّيرًا خالصًا؟»

«لا؛ أوه، لا. الأشرار لا يُعانون، وذلك الوجه ينضح بأفظع ألم.»

تأمَّلا البورتريه في صمت للحظةٍ أو لحظتَين.

«لا بدَّ أن الأمر بدا كالقصاص. فِقدانه ابنَه الوحيد عَقِب هذا الحادث بقليل. وفاة زوجته. حِرمانه من حياته الأُسرية في وقتٍ قصير هكذا. بدا الأمر بالتأكيد كأنه العدل الإلهي.»

«هل كان ليُبالي بزوجته؟»

«كانت ابنة عمِّه، وعرَف أحدهما الآخر منذ الطفولة. لذا سواءٌ أحبَّها أم لا فلا بدَّ أنها كانت بمنزلة الرفيق له. أحسبُ أن وجود رفيق لك حين تعتلي عرشًا نعمةٌ نادرة. يجب أن أذهب الآن لأُتابع سَير العمل في المستشفى. لكنني لم أطرح السؤال الذي جئتُ من أجله. ألا وهو كيف شعرتَ هذا الصباح. لكنها إشارةٌ صحية جدًّا أنَّ لدَيك شغفًا لتُوجِّهه إلى رجلٍ مات منذ أربعمائة سنة.»

لم تُحرِّك ساكنًا منذ أن دخلَت غُرفته. والآن ابتسمَت ابتسامتها الخفيفة المُتحفِّظة، ثُم توجَّهَت ناحية الباب ويداها لا تزالان مُتشابِكتَين في غير إحكام أمامَ حزام خصرها. كانت عليها سكينةٌ مُتسامية. كأنها راهبة. كأنها ملكة.

الفصل الرابع

انقضى وقت الغداء قبل أن يظهر السيرجنت ويليامز مرةً أخرى، وقد انقطعت أنفاسه وهو يَحمِل مجلدَين كبيرَين.

بادَره جرانت قائلًا: «كان يَجدُر بك أن تتركهما مع الحارس.» وتابَع: «لم أقصد أن تأتيَ وأنت تتصبَّب عَرقًا حاملًا إيَّاهما إلى هنا.»

«كان لا بدَّ أن آتيَ بنفسي لأشرح لك. وقتي لم يَكُن يسمح إلا بزيارةِ مَتجرٍ واحد، لكنه المتجر الأكبر في هذا الشارع. ذلك أفضل ما لديهم من الكتب التي تتناول تاريخ إنجلترا. إنه الأفضل في أي مكان، حسبما يقولون.» وضع مُجلدًا مُتواضع المنظر يميل اخضراره إلى الرمادي، وضعه وقد بدا عليه كأنه يتخلى عن مسئوليَّته تجاهه. «لم يكن لديهم كتابٌ مُستقل عن تاريخ ريتشارد الثالث. أعني سيرته الذاتية. لكنهم أعطَوني هذا الكتاب.» كان كتابًا زاهيَ الألوان، وحمل غِلافه شعار النبالة. كان عنوان الكتاب «وردة رابي».

«وما وردة رابي؟»

«يبدو أنها كانت والدته. أعني الوردة المقصودة. لا يُمكنني الانتظار؛ موعدي في سكوتلاند يارد بعد خمس دقائق من الآن، ورئيس الشرطة سوف يُعاقبني إن تأخَّرت. أعتذر عن أنني لم أستطع أن أفعل ما هو أفضل من ذلك. سأزورك مرةً أخرى في أول مرور لي، وإن لم ينفعك هذان المُجلدان فسوف أرى ما يُمكنني أن أُحضِر.»

كان جرانت مُمتنًّا وأخبره بذلك.

على وَقعِ أقدام ويليامز المُسرِعة بدأ جرانت يستكشف «أفضل كتاب عن تاريخ إنجلترا». تبيَّن أن هذا المجلد هو ما يُعرَف باسم «التاريخ الدستوري»؛ كان عبارةً عن مُصنَّفٍ جادٍّ

تُخفِّف من رتابته رسومٌ توضيحية تجميلية. تجد قِسمًا يدور حول الحياة الزراعية في القرن الرابع عشر تُزينه رسومٌ من «مزمور لوتريل»، وخريطة معاصرة لمدينة لندن تَقسِم حريق لندن الكبير. لا يَرِد ذِكر الملوك والملكات إلا عرَضًا. لم يُعنَ «تاريخ تانر الدستوري» إلا بالتقدُّم الاجتماعي والتطور السياسي؛ «الطاعون الأسود» واختراع الطباعة واستخدام البارود وإنشاء النقابات التجارية، وما إلى ذلك. لكن السيد تانر اضطُرَّ بين الحين والآخر، بدافعِ أن الشيء بالشيء يُذكَر، أن يَذكُر ملِكًا أو علاقاته. من أمثلة ذلك ما أورده تانر عند الحديث عن اختراع الطباعة.

جاء رَجلٌ يُدعى كاكستون من ريف كِنت بوصفه تاجرَ أقمشة مُتدرِّبًا على يد رجل صار عُمدة لندن فيما بعد، ثم توجَّه إلى مدينة بروج حاملًا العشرين ميركًا التي تركها له سيده بمُقتضى وصيَّته. وعندما انتهى المطاف بلاجئَين شابَّين من إنجلترا، وسط هُطول أمطار الخريف الشديدة على هولندا وبلجيكا، إلى تلك السواحل المُنخفِضة، كان ذلك التاجر الناجح من ريف كِنت هو من أغاثهما. أما اللاجئان فكانا إدوارد الرابع وأخاه ريتشارد، وعندما دارت عجلة الأيام وعاد إدوارد ليعتليَ عرش إنجلترا، عاد كاكستون أيضًا، وطُبِعت أولى الكتب التي طُبِعت في إنجلترا من أجل إدوارد الرابع، وكُتِبت على يد صِهره.

راح جرانت يُقلِّب الصفحات ويتعجَّب كيف نُزِعت الشخصيات من المعلومات فصارت بهذه الرَّتابة. إن مآسيَ الإنسانية لا تُهمُّ أحدًا، وهي الحقيقة التي اكتشفها قُرَّاء الصحف منذ زمنٍ طويل. ربما يرتجف المرء رُعبًا حين يُشاهِد دمارًا شاملًا، لكن قلبه سيبقى ساكنًا ولن يجد الهلَعُ إليه سبيلًا. إنَّ غرق ألف شخص جرَّاء فيضانات في الصين ما هو إلا خبر، أما غرق طفلٍ واحد في بركة مياه فيُمثِّل مأساة. لذا، فقد كان سرد السيد تانر لتقدُّم العِرق الإنجليزي مُثيرًا للإعجاب لكنه يفتقر إلى التشويق. بيدَ أنه كان يلحظ بين الحين والآخر أنَّ سردَه صار أكثر إمتاعًا، وذلك في المواضع التي لا يَجِد فيها السيد تانر بدًّا من ذِكر الشخصيات. تجد ذلك في مُقتطَفات من رسائل آل باستون على سبيل المثال. اعتاد آل باستون أن يُقحموا نبذاتٍ تاريخية بين طلبات توريد زيت السلاطة وتساؤلات حول أحوال كليمنت في كامبريدج. بين اثنَين من تلك الشئون العائلية ظهرت معلومةٌ عابرة مُفادها أنَّ صبيَّي يورك الصغيرَين، جورج وريتشارد، يعيشان لدى آل باستون في لندن، وأن أخاهما إدوارد يزورهما كل يوم.

طرح جرانت الكتاب لوهلةٍ فوق الفِراش، وشرع يُحدِّق في السقف الذي لم يعُد مرئيًّا له، وراح يُفكر أن عرش إنجلترا لم يُسيطر عليه شخص له خبرةٌ شخصية بحياة الإنسان

العادي مثل إدوارد الرابع وأخيه ريتشارد. ربما لا يليهما في هذا إلا تشارلز الثاني. بل إن تشارلز ظلَّ دائمًا ابن الملك، وليس مُجرَّد رجل عادي، حتى وهو يعيش فقيرًا هاربًا. أما الصبيَّان الصغيران المُستقرَّان في نُزُل آل باستون فلم يكونا سوى طفلَين ينتميان إلى عائلة يورك. لم يكونا يتمتَّعان غالبًا بأيِّ أهميةٍ خاصة، ووقت كتابة هذه الرسالة المذكورة كانا بلا مأوًى وربما بلا مُستقبل.

تهيَّأ جرانت لقراءة كتاب التاريخ الذي أحضرَته «الأمازونية» ليكتشف ما كان إدوارد مُقبِلًا عليه في لندن في ذلك الوقت، وعَلِم أنه كان يجمع جيشًا. «دائمًا ما كانت لندن يوركية الطباع، وتَجمَّع الرجال مُتحمِّسين تحت لواء إدوارد الشاب»، هكذا قال كتاب التاريخ.

لكن إدوارد اليافع محبوب العاصمة الذي كان يَبلُغ من العمر ثمانية عشر عامًا، والذي كان في طريقه إلى تحقيق أول انتصاراته، وجد وقتَ فراغٍ ليأتيَ فيه كل يوم ليَزُور إخوته الصغار.

تساءل جرانت إن كان الولاء اللافت من ريتشارد تجاه أخيه الأكبر قد نشأ حينئذٍ. كان ولاءً ثابتًا مَتينًا لم تُقرَّه كتب التاريخ فحسب، وإنما استخدمته للإشارة إلى المغزى الأخلاقي. «حتى لحظة وفاة أخيه، كان ريتشارد قرينًا وفيًّا مُخلِصًا في مواجهة كل التقلبات، لكن تبيَّن أن فرصة تتويجه أكثر مما يتحمَّل.» أو بكلمات كتاب التاريخ المدرسي البسيطة: «ظلَّ أخًا صالحًا لإدوارد، لكن حين رأى أنه قد يُصبح ملِكًا، جعل الجشع قلبه يتحجَّر.»

ألقى جرانت نظرةً جانبية على البورتريه، وقرَّر أن كتاب التاريخ المدرسي قد جانَبه الصواب. إن ما جعل قلب ريتشارد يتحجَّر إلى حد ارتكاب جريمة القتل لم يكن الجشع. أم هل كان الكتاب يقصد الطمع في السلطة؟ ربما. ربما كان الأمر كذلك.

لكن من المؤكَّد أن ريتشارد حظِيَ بكل السُّلطة التي يمكن لذلك الرجل الفاني أن يرغب بها. كان أخا الملك، وكان ثريًّا. هل كانت تلك الخطوة الصغيرة للأمام مُهمَّة لدرجة أنه استطاع أن يغتال ابنَي أخيه ليُحقِّقها؟

كان الأمر برُمَّته غريبًا.

كان جرانت لا يزال يُقلِّب الأمر في ذهنه حين أتت السيدة تينكر بمنامةٍ جديدة له وبالمُلخَّص اليومي لعناوين الصحف. لم تتجاوز السيدة تينكر في القراءة العنوان الثالث لتقريرٍ إخباري مُطلقًا، إلا إذا تصادف وكان التقرير عن جريمة قتل، وفي تلك الحالة كانت تقرأ كل كلمة، وتشتري لنفسها الجريدة المسائية في طريق عودتها إلى المنزل لتُعدَّ عشاء تينكر.

اليوم أخذ تعليقها اللطيف على قضية الزرنيخ واستخراج الجُثث في يوركشاير يتدفَّق عليه بلا انقطاع، حتى لمحت الجريدة الصباحية التي لم تُمَس بجوار الكُتب على الطاولة. جعلها هذا تتوقَّف فجأةً.

سألته بنبرةٍ تنمُّ عن القلق: «ألا تشعر أنك بخيرٍ اليوم؟»

«أنا بخير يا تينك، بخير. لماذا؟»

«أنت حتى لم تفتح الجريدة. هكذا بدأ مخُّ أُختي يتدهور. لم تكن تلحظ ما كان في الجريدة.»

«لا تقلقي. إنني أتحسَّن. بل إن حِدَّة طباعي تحسَّنت. لقد نسيتُ أمر الجريدة لأنني كنتُ أقرأ قصصًا تاريخية. هل سمعتِ من قبل بقصة أميرَي البُرج؟»

«الجميع سمِعوا بقصة أميرَي البُرج.»

«وهل تعرفين كيف لَقِيا حتفهما؟»

«بالطبع أعرف. لقد وضع وسادةً على وجهَيهما وهما نائمان.»

«من فعل ذلك؟»

«عمُّهما الشِّرِّير. ريتشارد الثالث. لا ينبغي أن تُفكِّر في أشياء كهذه وأنت مُتوعِّك. يجب أن تقرأ شيئًا لطيفًا ومُبهِجًا.»

«هل أنتِ على عَجلة للعودة إلى المنزل يا تينك، أم بإمكانكِ أن تُعرِّجي على شارع سانت مارتن لأجلي؟»

«لا، لديَّ مُتَّسع من الوقت. هل هو أمرٌ مُتعلِّق بالآنسة هالارد؟ لن تكون في المسرح حتى قُرب الساعة السادسة.»

«لا، أعرف ذلك. لكن ربما بإمكانك أن تتركي رسالةً صغيرة لها وستحصل هي عليها حين تذهب إلى المسرح.»

ومدَّ يده نحو ورق الكتابة والقلم وكتب:

«حُبًّا بمايك، اعثري لي على نسخة من كتاب تاريخ ريتشارد الثالث لتوماس مور.»

ثم نزع الورقة، وطواها وكتب اسم مارتا عليها.

«يُمكنكِ أن تُعطيَها لساكستون العجوز عند باب المسرح. وسيحرص على أن تتسلَّمها.»

قالت السيدة تينكر: «إن تمكَّنت من الاقتراب من باب المسرح فلن أتجاوز طابور حجز التذاكر»؛ وكان قولها تعليقًا وليس إقرارًا بواقع. وأضافت: «تلك المسرحية ستستمرُّ إلى الأبد.»

وضعت السيدة تينكر الورقة المطوية بعناية في الحقيبة الرخيصة المصنوعة من الجلد المُزيَّف، ذات الحواف الرثَّة، التي كانت تُمثِّل جزءًا منها بقدْرِ ما كانت قُبَّعتها. كان جرانت يُقدِّم لها حقيبةً جديدةً كل عيد ميلاد، وكانت كل حقيبة يُقدِّمها تُعَد عملًا فنيًّا من أفضل المصنوعات الجلدية التقليدية الإنجليزية، وكانت كل حقيبة رائعة التصميم ودقيقة التنفيذ، حتى إنه ربما كانت مارتا هالارد لتحملها وهي ذاهبة إلى الغداء في مطعم بليج. لكن تلك الحقيبة كانت آخر واحدة يراها من تلك الحقائب. وحيث إن السيدة تينكر كانت تَعدُّ مكتب الرهونات مكانًا مُخزيًا أكثر من السجن، فقد برَّأها جرانت من أي شكوك حول رهنها للهدايا التي تتلقَّاها. وافترض أن حقائب اليد موضوعة بأمان في درج في مكانٍ ما، ولا تزال ملفوفة في الورق الحريري الأصلي. وربما كانت تُخرجها لتُريَها للناس في بعض الأحيان، وربما في أحيانٍ أخرى تتباهى بها وتبتهج بالنظر إليها، أو ربما كانت فكرة وجودها تجعلها تشعر بالثراء، كما قد تُثري فكرة «توفير بعض المال من أجل جنازتي» شخصًا آخَر. في عيد الميلاد القادم كان سيفتح حقيبتها الرثَّة تلك؛ تلك الحقيبة المُعمِّرة التي تُستعمَل في كل شيء، وسيضع بعضًا من المال في المكان المُخصَّص له فيها. ربما ستُهدِر ذلك المال بالطبع على أشياء لا أهمية لها؛ بحيث لن تعرِف في النهاية ما فعلتْه به، ولكن ربما كانت ترضيات صغيرة مُبعثَرة كالترتر على نسيج الحياة اليومية ذات قيمةٍ أكبر من الرضاء غير العملي الناتج عن امتلاك تشكيلة من الأغراض الجميلة في مُؤخرة الدولاب.

بعدما غادرَت السيدة تينكر، مُصدرةً صريرًا من حذائها ومشدِّ صدرها، عاد جرانت إلى السيد تانر وحاوَل أن يُحسِّن تفكيره عن طريق اكتساب بعض من اهتمام السيد تانر بالجنس البشري. لكنه وجد ذلك جهدًا كبيرًا. لم يَكُن جرانت مُهتمًّا بالبشر عامةً، لا بطبيعته ولا بطبيعة مِهنته. كان انحيازه بنوعَيه، المُتأصِّل والمُكتسَب، مُوجَّهًا نحو الجانب الشخصي. أخذ جرانت يخوض في إحصائيات السيد تانر، وكان يَتُوق إلى أن يقرأ عن ملك في شجرة بلُّوط، أو مقشَّة مربوطة إلى قمَّة صاري، أو اسكتلندي مُتعلِّق بركاب جُندي أثناء هجوم. لكن على الأقل حظِيَ بالارتياح الناجم عن معرفة أن الرجل الإنجليزي في القرن الخامس عشر كان «يشرب الماء فقط للكفَّارة». بدا أن العامل الإنجليزي أيام ريتشارد الثالث كان محطَّ إعجاب أوروبا. اقتبس السيد تانر ذلك من كاتبٍ مُعاصِر في فرنسا.

لم يسمح ملك فرنسا لأي أحد باستخدام المِلح، إلا ما كان يُشترى منه بسعره المُجحِف. لم تكن القوات تدفع مُقابل أي شيء، وتُعامِل الناس بهمجية ووحشية عندما تكون غير راضية. وكان يتعين على كل من يزرع الكروم أن يُعطيَ الرُّبع للملك. كان يتعيَّن أيضًا على كل البلدات أن تدفع للملك مبلغًا كبيرًا من المال سنويًّا من أجل جنوده. وكان الفلاحون يعيشون في عناءٍ كبير وبؤس وشقاء. لم يكونوا يرتدون الصُّوف. وكانت ملابسهم تتألَّف من كنزاتٍ قصيرة من الخيش، ولم يكونوا يرتدون على سيقانهم شيئًا إلا من فوق الركبة، وكانت سيقانهم مكشوفةً وعارية. كان جميع النساء يمشين حافيات. ولم يكن الناس يأكلون اللحوم، إلا دهن لحم الخنزير في حسائهم. ولم تكن طبقة الأثرياء الشرفاء أفضل حالًا. حيث كان يُتناوَل ما يطرأ من اتِّهاماتٍ عنهم في خصوصية، وربما لا يسمع أحد بها بعدها.

في إنجلترا كان الوضع مُختلفًا جدًّا. لا يمكن لأحدٍ أن يمكث في منزل رجل آخر من دون إذنه. ولا يمكن للملِك أن يفرض الضرائب، ولا أن يُعدِّل القوانين، أو يُشرِّع قوانين جديدة. لا يشرب الإنجليزي الماء مُطلقًا إلا للكفَّارة. يأكل الإنجليز كل أنواع اللحم والسمك. ويرتدون ملابس من صوفٍ جيِّد تُغطِّي سائر جسدهم، وتتوفر لهم كل السِّلع المنزلية. ولا يجوز مُقاضاة إنجليزي إلا أمام القاضي المُختص.

وبدا لجرانت أن المرء إن كان في ضنك وعوز وأراد أن يذهب ليرى كيف يبدو وليدُ شقيقته البِكر، فقد كان من المُطمئن أن يعرف أنه كان يُوجَد مأوًى وصدقات في كل دور العبادة، بدلًا من التساؤل عن كيفية جمع قيمة تعريفة القطار. كان ثَمة الكثير مما يمكن أن يُقال عن إنجلترا الخضراء التي خلَد إلى الفِراش ليلة أمس وهو يتخيَّلها.

أخذ يُقلِّب الصفحات التي تتناول القرن الخامس عشر بحثًا عن أشياء شخصية؛ عن تقارير فردية قد تُنير، بحيويتها المتفرِّدة، المشهدَ أمامه كما يُضيء «كشَّاف ضوء مُسلَّط» الجزءَ المُراد من خشبة المسرح. لكن القصة كانت مُخصَّصة للعامة بشكلٍ يبعث على الإحباط. وطبقًا للسيد تانر، كان برلمان ريتشارد الثالث الوحيد هو الأكثر تحرُّرًا وتقدميَّة في التاريخ المُسجَّل، وقد شعر السيد تانر الوجيه بالندم أن جرائمه الخاصة وقفت عقبةً في سبيل رغبته الواضحة في رخاء العامة. بدا أنَّ ذلك هو كل ما كان لدى السيد تانر عن ريتشارد الثالث. وعدد آل باستون الذين يتبادلون الأحاديث لا يفنى عبر القرون، كان يُوجَد قِلة من البشر في هذا التأريخ للبشرية.

ترك جرانت الكتاب ينزلق من فوق صدره، وفتَّش بيدِه حتى وجد كتاب «وردة رابي».

الفصل الخامس

تبيَّن أن كتاب «زهرة رابي» كتابٌ أدبي، لكنه كان على الأقل أسهل في الإمساك به من كتاب تانر «التاريخ الدستوري لإنجلترا». عِلاوةً على ذلك، كان الكتاب هو أقربَ شكلٍ لائق للأدب التاريخي الذي هو عبارة عن مجرد تاريخ تتخلله مُحادَثات إن جاز التعبير. كان سيرةً خياليةً أكثر من كونه قصةً من نسج الخيال. وقد أمدَّته إيفيلين باين إليس، أيًّا من كانت، ببورتريهات وشجرة للعائلة، ويبدو أنها لم تكن تُحاوِل أن «تكتب بواقعية» كما كان جرانت هو وقريبته لورا يُطلِقان على ذلك في طفولتهما. لم تكن تُوجَد عبارات من قبيل «بحق العذراء» ولا «انعدام رحمة» أو «معدومي الضمير». كان الكتاب نزيهًا وفقًا لِما يُسلِّط عليه الضوء.

وما يُسلِّط عليه الضوء كان تثقيفيًّا أكثر من كتاب السيد تانر.

أكثر تثقيفًا بكثير.

كان في اعتقاد جرانت أن المرء حين لا يستطيع أن يعرف بشأن أحد الأشخاص، فإن ثانيَ أفضل طريقة للوقوف على تقدير له هي مُحاولة معرفة المزيد عن والدته.

لذا، إلى أن تتمكن مارتا من الإتيان له برواية توماس مور الشخصية عن ريتشارد، التي كانت مُبجَّلة ومعصومة من الخطأ، سيكتفي بسيسيلي نيفيل دوقة يورك، وسيكون في غاية السعادة.

نظر جرانت إلى شجرة العائلة، وفكَّر في أن الأخوَين من آل يورك، إدوارد وريتشارد، وإن كانا مُميَّزَين، كملِكَين، في تَجرِبتهما للحياة العادية، فإنهما لم يكونا أقل تميزًا في كونهما إنجليزيَّين. تُفكِّر جرانت في تربيتهما وتعجب. نيفيل وفيتزالان وبيرسي وهولاند ومورتيمر وكليفورد وأودلي بالإضافة إلى بلانتاجانت. والملكة إليزابيث (التي جعلت من كونها إنجليزيةً مصدر فخر لها) كانت إنجليزية حتى النخاع، إن كان المرء يَعدُّ المسحةَ

الويلزية إنجليزية. لكن من بين كل الملوك الهُجَناء الذين ارتقَوا العرش بين الغزو وجورج المزارع — الذين كانوا نصف فرنسيين ونصف إسبان ونصف دنماركيين ونصف هولنديين ونصف بُرتغاليين — كان كلٌّ من إدوارد الرابع وريتشارد الثالث رائعَين فيما يتعلق بجودة تربيتهما.

ولاحظ أيضًا أنهما كانا يتربَّيان تربيةً ملَكية من جانب والدتهما بنفس القدر الذي كان من جانب والدهما. كان جد سيسيلي نيفيل هو جون جونت، وهو أول دوق للانكستر، والابن الثالث لإدوارد الثالث. أما جدَّا زوجها فكانا ابنَين آخرين من أبناء إدوارد الثالث. لذا، فقد شارَك ثلاثة من أصل خمسة من أبناء إدوارد الثالث في تربية الشقيقَين من آل يورك.

قالت الآنسة باين إليس: «أن تكون من آل نيفيل كان يعني أنك تتمتَّع ببعض الأهمية؛ لأن آل نيفيل كانوا من كبار مُلَّاك الأراضي. وأن تكون من آل نيفيل كان يعني أن تكون وسيمًا بصورةٍ شِبه مُؤكَّدة؛ وذلك لأن العائلة كانت جميلة المظهر. وأن تكون من آل نيفيل كان يعني أن تكون ذا شخصية؛ لأن العائلة امتازت في إبرازِ كلٍّ من شخصياتهم وطباعهم. وكان توحيد هذه العطايا لدى آل نيفيل بأفضل جودة في شخصٍ واحد من حُسن حظ سيسيلي نيفيل، التي كانت زهرة الشمال الوحيدة منذ وقتٍ طويل قبل أن يُجبَر الشمال على الاختيار بين الزهور البيضاء والحمراء.»

كان رأي الآنسة باين إليس أن الزواج من ريتشارد بلانتاجانت، دوق يورك، كان زواجًا مُتناسبًا قائمًا على الحُب. تلقَّى جرانت هذه النظرية بتشكُّكٍ يكاد يَصِل إلى حد الازدراء حتى لاحظ نتائج هذا الزواج. ففي القرن الخامس عشر، أن تَحدُث إضافةٌ سنوية للعائلة لم يكن دليلًا على أي شيء سوى الخصوبة. ولم تُبشِّر تلك العائلة الكبيرة التي أنجبتها سيسيلي نيفيل لزوجها الوسيم بشيءٍ أقرب إلى الحُب من التعايش. لكن في الوقت الذي كان دور المرأة فيه ينحصر في المُكوث في المنزل بخنوع وتقديم الرعاية في حجرة الاستذكار، كان تَرْحال سيسيلي نيفيل المُستمرُّ في الأرجاء بصُحبة زوجها بارزًا بما يكفي للإشارة إلى سعادةٍ غير عادية بتلك الصحبة. وما كان يشهد على مدى تلك الرحلات وانتظامها هو أماكن ولادة أطفالها. إذ وُلِدت طفلتها البِكر آن في فوثرينجهاي، وهو منزل العائلة في نورثهامبتونشير. أما هنري الذي مات رضيعًا فوُلِد في هاتفيلد. ووُلِد إدوارد في روان حيث كان الدوق لا يزال في الخدمة. وكذلك وُلِد كلٌّ من إدموند وإليزابيث في روان. ووُلِدت مارجريت في فوثرينجهاي. أما جون الذي مات صغيرًا فوُلِد في نيث، في ويلز. ووُلِد جورج

في دبلن (وتساءل جرانت في نفسه، هل من المُمكن لهذا أن يُفسِّر العناد شِبه الأيرلندي لدى جورج الفائق الوصف؟). أما ريتشارد فوُلِد في فوثرينجهاي.

لم تجلس سيسيلي نيفيل في المنزل في نورثهامبتونشير في انتظار زيارة زوجها وسيدها حين يَستهويه ذلك. بل رافَقته حول عالَمهما الذي يقطنان فيه. كانت تُوجَد قرينةٌ قوية تصبُّ في صالح نظرية الآنسة باين إليس. فقد كانت تلك الزيجة في غاية النجاح بالفعل، وذلك بحسب أبرع التقديرات.

ربما يكون ذلك هو السبب وراء التفاني الأُسري في تلك الزيارات اليومية من جانب إدوارد إلى إخوته الصغار في نُزُل آل باستون. كانت عائلة يُورك مُتحدة ومُترابطة حتى قبل إصابتها بالمِحَن والبلايا.

وقد تأكَّدَت لدى جرانت صحة ذلك حين أتى بشكلٍ غير مُتوقَّع على خطاب بينما كان يُقلِّب الصفحات بإبهامه. كان خطابًا من الصبيَّين الأكبر سنًّا، إدوارد وإدموند، إلى أبيهما. كان الصبيَّان في قلعة لودلو يتلقَّيان تعليمهما؛ وفي يوم سبت من أسبوع عيد الفِصح، مُستغلَّين عودة الساعي، انفجر الصبيَّان في تَذمُّر صارخ من مُعلِّمهما ومن كراهة طبعه، وتوسَّلا لأبيهما أن يستمع إلى قصة الساعي ويليام سميث الذي عهدا إليه بكافة التفاصيل عن الاضطهاد الذي كانا يَلقيانه. قُدِّمت تلك الاستغاثة وانتهت بحاشيةٍ مُتَّسِمة بالتوقير، وشابت قليلًا الشكلياتِ فيها إشارتُهما إلى أنه كان لطيفًا من جانب أبيهما أن يُرسِل الثياب، لكنه نسىَ كتابَ أدعِيتهما.

لقد أوردت الآنسة باين إليس اليَقِظة الضمير مَرجِع هذا الخطاب (والذي تبيَّن أنه من أحد المخطوطات القطنية)، وأخذ جرانت يُقلِّب الصفحات من تحت إبهامه ببطءٍ أكثر؛ بحثًا عن المزيد. إذ كانت الأدلة الوقائعية هي صميم ما يرنو إليه رجل الشرطة.

لم يستطع جرانت أن يجد المزيد، لكنه أتى على مشهدٍ أُسري جعله يتوقَّف لحظة.

خرجت الدوقة تحت أشعة الشمس الحادَّة الرقيقة في لندن في صباح أحد أيام شهر ديسمبر، ووقفت على الدَّرَج تُراقبهم وهم يرحلون؛ زوجها، وأخوها، وابنها. أحضر ديرك وأبناء أخيه الجياد إلى الفناء، فطار الحمام والعصافير المُزقزِقة من المكان. راقبت الدوقة زوجها وهو يَمتطي الجواد في رصانة وتروٍّ كالمُعتاد، وظنَّت، بسبب كل تلك المشاعر التي أظهرها، أنه ماضٍ إلى فوثرينجهاي ليُلقيَ نظرةً على بعض الكِباش الجديدة وليس مُنطلقًا في حملة. كان أخوها سالزبوري يتصرَّف بحِدَّة على طريقة آل نيفيل؛ حيث كان مُدركًا قليلًا للحدث ويتعامل على قدره. نظرت الدوقة إليهما وابتسمت في نفسها. لكن إدموند كان من

يشغل لُبَّها. كان إدموند ابنُ السابعة عشرة نحيلًا جدًّا وغير مُحنَّك وفي غاية الضَّعف. كان وجهه مُتورِّدًا من الفخر، ويشعُر بحماسةٍ تجاه الانطلاق إلى حملته الأولى. أرادت الدوقة أن تقول لزوجها: «اعتنِ بإدموند»، لكنها لم تستطع أن تفعل ذلك. ما كان زوجها ليفهم، وإن داعَب الشكُّ إدموند فسيغضب غضبًا شديدًا. ما دام إدوارد، الذي كان يَكبره بعامٍ واحد فقط، قائدًا بنفسه لجيش على حدود ويلز في هذه اللحظة تحديدًا، إذَن فإدموند كبير بما يكفي ليشهد الحرب بنفسه.

نظرت خلفها إلى أطفالها الثلاثة الأصغر الذين كانوا قد خرجوا في إثرها؛ مارجريت وجورج المُتماسكين اللطيفين، وخلفهما بخطوة كعادته ريتشارد، طفلها المبدول؛ بحاجبَيه الداكنين وشعره البُنِّي اللذَين جعلاه يبدو كزائر. راحت مارجريت الطَّلْقَةَ المُحيًّا غير المُهندَمة تُشاهد الموقف بعينَين دامعتَين لفتاة في الرابعة عشرة من عمرها، وكان جورج يُشاهد بحسدٍ محموم وتمرُّد جامح؛ لأنه كان في الحادية عشرة من عمره فقط وليس له أهمية في لحظة الحرب والشجاعة هذه. ولم يُظهِر ريتشارد الصغير الرفيع أيَّ انفعال، لكن أُمَّه كانت تظن أنه يرتجف من الداخل كطبلة تُقرَع قرعًا خفيفًا.

خرجت الجياد الثلاثة من الفناء وسط جلبة انزلاق الحوافر وجلجلة صوت عتاد الحرب؛ ليلحقوا بالخدم الذين ينتظرونهم على الطريق، وأخذ الأطفال يُنادون عليهم ويتراقصون ويلوِّحون لهم أثناء خروجهم من البوَّابة.

أما سيسيلي، التي شاهدت في سابق العهد الكثيرَ من الرجال وكذلك الكثير من أفراد أُسرتها وهم يرحلون، فعادت إلى المنزل وهي تشعر بثقلٍ غريب على صدرها. إذ قال الصوت المُعارِض في عقلها: أيهم الذي لن يعود؟

لم تتَّجه مُخيِّلتها نحو أي شيء بفظاعة أن لا أحد منهم سيعود مرةً أخرى. أنها لن ترى أيًّا منهم ثانيةً.

لم تتصوَّر أنه قبل انتهاء العام سيُعلَّق رأس زوجها المقطوع، الذي تُوِّج بتاجٍ ورقي على سبيل الإهانة على بوَّابة ميكلجيت بار في يورك، وأن رأسَي أخيها وابنها سيُعلَّقان على البوَّابتَين الأُخريَين.

حسنًا، قد يكون هذا خيالًا، لكنه كان يُمثِّل لمحةً تنويرية عن ريتشارد. الطفل ذي الشعر الداكن في أسرةٍ شقراء. الطفل الذي «بدا كأنه زائر». «الطفل المبدول».

نحَّى جرانت سيسيلي نيفيل جانبًا في الوقت الراهن، وراح يُقلِّب في الكتاب بحثًا عن ابنها ريتشارد. لكن بدا أنَّ الآنسة باين إليس لم تكن تُبدي اهتمامًا كبيرًا بريتشارد. لم

يكن ريتشارد سوى آخر عنقود العائلة. أما الشابُّ اليافع الرائع الذي ترعرع على الطرف الآخر من العنقود فكان أقربَ إلى ما تُفضله. كان إدوارد هو الأقرب إلى الصدارة. انتصر، مع قريبه ورويك، ابن سالزبوري، في معركة توتون، ومع ذكرى ضراوة لانكستر التي لم تزَل حاضرة في ذهنه ورأس والده الذي كان لا يزال مُعلَّقًا على ميكلجيت بار، قدَّم إدوارد دليلًا على سماحته التي كانت من شِيَمه. مُنِحت الرحمة في توتون لكلِّ من طلبها. تُوِّج ملكًا على إنجلترا في كنيسة ويستمنستر آبي (ونصَّب صبيَّين صغيرَين عادا إلى الوطن من منفاهما في أوترخت دوقين لكلارينس وجلوستر على التوالي). ثُم دَفن أباه وأخاه في مشهدٍ مَهيب في كنيسة فوثرينجهاي (مع أن ريتشارد، البالغ من العمر حينها ثلاثة عشر عامًا، كان هو من انتقل مع الموكب الجنائزي من يوركشاير، خلال خمسة أيام من أيام شهر يوليو الساطعة بشمس المجد، إلى نورثهامبتونشير، بعد ما يَقرُب من ستة أعوام من وقوفه على عتبة قلعة بينارد في لندن يُشاهدهما وهما يرحلان).

ولم تسمح الآنسة باين إليس بعودة ريتشارد إلى القصة مرةً أُخرى إلا بعد تتويج إدوارد ببعض الوقت. كان حينها يتلقى تعليمه مع أقاربه من آل نيفيل في قلعة ميديلهام، بيوركشاير.

بينما كان ريتشارد مُمتطيًا جواده في ظل القلعة، مُبتعدًا عن ضوء الشمس المباشر والرياح الشديدة في وينسليديل، بدا له أن المكان يَلفُّه جوٌّ غريب. كان الحُراس يتحدثون بنبرةٍ عالية تنمُّ عن الإثارة في نقطة الحراسة على البوَّابة، وبدَوا مُرتبِكين من ظهوره. تركهم خلفه وقد رانَ عليهم صمتٌ مُفاجئ، وتابَع المُضيَّ بجواده حتى وصل إلى بلاطٍ صامت كان ينبغي به أن يعجَّ بالنشاط في مثل هذه الساعة من اليوم. إذ كان وقت الطعام سيحلُّ قريبًا، وكان الطعام وكذلك العادة يُعيدان كلَّ قاطني قلعة ميديلهام من أعمالهم المُختلفة، كما أعاداه من رحلة صيده بالصقر من أجل تناول وجبة الطعام المسائية. هذا الصمت وذلك التراجع لم يكونا مُعتادَين. سار ريتشارد بجواده إلى الإسطبل، لكن لم يكن هناك أحد ليُعطيَه إيَّاه. وبينما كان يحلُّ السَّرج لاحظ جوادًا يُعاني بشدة في المَربط المُجاور؛ جوادًا لم يكن ينتمي إلى قلعة ميديلهام؛ جوادًا مُتعَبًا بشدة لدرجة أنه لم يأكل، وكان رأسه مُطأطأً بين رُكبتَيه من الجَزع.

مسح ريتشارد حِصانه وغطَّاه وأحضر له شيئًا من التبن والماء الصافي، وتركه وهو يُفكِّر في ذلك الحِصان المُرهَق المُضطرِب وذاك السكون الغريب. وحين توقَّف عند مدخل الباب سمع أصواتًا من بعيدٍ آتية من الردهة الكبرى، وفكَّر في نفسه إن كان عليه أن يذهب

إلى هناك ويستفسر عما يَحدُث قبل أن يصعد الدرج إلى مَهجعه. وأثناء وقوفه مُترددًا جاءه صوتٌ يُحاول جذب انتباهه على الدرَج من فوقه.

رفع ناظرَيه فإذا به يرى رأس قريبته آن تُطلُّ من شُرفة السُّلَّم، وكانت ضفيرتاها الطويلتان تتدلَّيان من رأسها كأنهما أحبال جرس.

قالت بصوتٍ يكاد يقترب من الهمس: «ريتشارد!» وأردفت تسأله: «هل سمعت؟»

فسألها: «هل ثَمة خَطب؟» وتابَع: «ما الأمر؟»

وبينما كان يصعد الدرج نحوها أمسكت بيده وجرَّته إلى الأعلى نحو غُرفة الدراسة في السطح.

سألها: «ولكن ما الأمر؟» وهو يميل نحو الخلف مُعترضًا على إلحاحها. واستطرد: «ما الذي حدث؟ هل هو شيء مُريع إلى حدِّ أنكِ لا تستطيعين أن تُخبريني به هنا؟!»

دفعَتْه إلى داخل غُرفة الدراسة وأغلقت الباب خلفها.

«إنه إدوارد!»

«إدوارد؟ أهو مُتوعِّك؟»

«لا! «فضيحة»!»

قال ريتشارد بنبرة ارتياح: «أوه.» وسألها: «ما الأمر؟ عشيقةٌ جديدة؟» إذ كان إدوارد والفضائح صِنوَين لا ينفصمان أبدًا.

«أسوأ من ذلك بكثير! أوه، أسوأ بكثير جدًّا. إنه مُتزوج.»

قال ريتشارد غيرَ مُصدِّق تمامًا، حتى إنه بدا هادئًا: «متزوج؟» وأردف: «لا يمكن.»

«لكنه بالفعل مُتزوج. جاء الخبر من لندن قبل ساعة.»

قال ريتشارد بإصرار: «لا يمكن أن يكون مُتزوجًا.» وتابَع: «لأن زواج الملك مسألةٌ طويلة. مسألة عقود واتفاقيات. مسألة يتدخَّل فيها حتى البرلمان، بحسب ظني. ما الذي يجعلك تظنين أنه قد تزوَّج؟»

قالت آن وقد نَفِد صبرها من تلقِّيه ذلك الخبر بهدوء: «ليس ظنًّا.» وأضافت: «إن الردهة الكبرى تضجُّ بالعائلة كلها، وهم يتبادلون الحديث بغضبٍ جامح حول هذه المسألة.»

«آن! هل كنت تتسمَّعين عبر الباب؟»

«أوه، لا تدَّعي الصلاح هكذا. لم أكُن بحاجة إلى أن أتسمَّع على أي حال. يمكنك أن تسمعهم من الضفة الأخرى من النهر. لقد تزوَّج الليدي جراي!»

«من تقصدين بالليدي جراي؟ أهي الليدي جراي من جروبي؟»

«أجل.»

«لكن لا يُمكنه ذلك. إن لدَيها من الأطفال اثنَين، وهي كبيرة في السن بعض الشيء.»

«إنها أكبر من إدوارد بخمسة أعوام، وسمعتُ أنها رائعة الجمال.»

«متى حدث هذا؟»

«إنهما مُتزوِّجان منذ خمسة أشهُر. تزوَّجا سرًّا في مقاطعة نورثهامبتونشير.»

«لكنني كنت أظنُّ أنه سيتزوَّج أخت ملك فرنسا.»

قالت آن بنبرةٍ تحمل الكثير من المعاني: «وهكذا ظن أبي.»

«أجل، أجل، هذا يجعل الأمور في غاية الإحراج له، صحيح؛ بعد كل هذه المفاوضات.»

«يقول الرسول الذي أتى من لندن إنه يُرغي ويُزبد. ليس فقط لأن ذلك يجعله يبدو كالأحمق. يبدو أن لديها مجموعة من الأقارب وهو يكرههم جميعًا.»

«لا بد أن إدوارد ممسوس.» في عينَي ريتشارد، الذي كان يَعتبر إدوارد بطلًا ويُحبه لدرجة العبودية، كان كل شيء يفعله إدوارد صواب. هذه الحماقة، هذه الحماقة التي لا يمكن إنكارها ولا تبريرها، لا تأتي إلا من مس.

قال ريتشارد: «سيَفطُر هذا قلب أُمي.» تذكَّر ريتشارد شجاعة أُمه حين قُتِل والده وإدموند، وحين وصل جيش لانكستر إلى بوَّابات لندن. لم تنتحب ولم تكتسِ بوشاح الشفقة على الذات. بل رتَّبت أن يذهب هو وجورج إلى أوترخت، وكأنها تُرتِّب لهما أن يرحلا إلى المدرسة. ربما لن يتمكنوا من رؤية بعضهم بعضًا مرةً أخرى، لكنها كانت تشغل نفسها بتحضير ملابس دافئة لهما من أجل رحلتهم الشتوية عبر القناة بعينَين هادئتَين غير دامعتَين.

كيف لها أن تتحمَّل هذه الضربة الإضافية؟ هذه الحماقة المُدمِّرة. هذا الطيش القاصم.

قالت آن، برِقَّة: «أجل، مسكينة أنتِ أيتها العمَّة سيسيلي. هذه فظاعة من قِبَل إدوارد؛ أن يتسبَّب في الألم لكل من حوله بهذا الشكل. هذا فظيع.»

لكن إدوارد كان لا يزال الرجل المعصوم من الخطأ. وإن ارتكب إدوارد فعلًا خاطئًا فهذا لأنه مريض، أو ممسوس، أو مسحور. كان إدوارد لا يزال يَحظى بولاء ريتشارد؛ ولائه العميق الذي يكاد يَصِل إلى حدِّ التقديس.

لم يزدَدْ ذلك الولاء بعد مرور سنوات إلا عُمقًا؛ ولاء ناضج قائم على التقدير والتقبُّل.

ثم انتقلت القصة إلى سيسيلي نيفيل وما كانت فيه من مُعاناة، وجهودها من أجل إحلال نوع من النظام على العلاقة بين ابنها إدوارد، الذي اختلطت لديه مشاعر السعادة

بالخِزي والخجل، وابن أخيها ورويك، الذي كان يستشيط غضبًا. كما كان يُوجَد أيضًا وصفٌ مُطوَّل لتلك المرأة ذات الجمال الفاضل الراسخ والشعر «المُذهَّب» الشهير، التي نجحت فيما فشلت فيه فتَيَاتٌ أُخريات أكثر جمالًا وكياسة؛ وكذلك وصف لتتويجها في ريدينج آبي (يقودها إلى العرش ورويك الذي كان يحتجُّ في صمت، والذي لم يستطع أن يتوقَّف عن ملاحظة الطائفة الكبيرة التي أتت من وودفيل لرؤية أُختهم إليزابيث وهي تُتوَّج ملكة لإنجلترا).

المرة التالية التي ظهر ريتشارد فيها في القصة كانت حين كان ينطلق من لين دُونَ بنسٍ واحد في جَيبه، في سفينةٍ هولندية تَصادفَ وجودها في الميناء حين كانت ثَمة حاجة لها. كان معه أخوه إدوارد، وصديق إدوارد اللورد هيستنجز، وبضعة أتباع. ولم يكن أيٌّ منهم يملك أيَّ شيءٍ سوى ملابسهم، وبعد القليل من الجدال وافَق ربَّان السفينة على القبول بعباءةِ إدوارد، التي يحفُّها الفرو، أُجرةً للركوب.

قرَّر ورويك أخيرًا أنه لا يستطيع أن يُطيق عشيرة وودفيل أكثر من ذلك. لقد ساعَد في تنصيب ابن عمومته إدوارد على عرش إنجلترا، وبنفس السهولة يُمكِن له أن يخلعه عن العرش. لتحقيق هذا حصل على مساعدةِ كل نسل آل نيفيل، وكذلك المساعدة الحثيثة من جورج الفائق الوصف، الذي كان قد قرَّر أن كونه وريثًا لنصف أراضي عائلة مونتاج ونيفيل وبوشامب عن طريق الزواج بابنة ورويك الأخرى إيزابيل هو رهانٌ أفضل من كونه مُواليًا لأخيه إدوارد. وفي غضون أحد عشر يومًا أصبح ورويك سيد إنجلترا وسط حالة من الذهول، بينما كان إدوارد وريتشارد يخوضان الوحل في شهر أكتوبر بين ألكامار ولاهاي.

ومن ذلك الحين فصاعدًا، كان ريتشارد موجودًا دائمًا في خلفية القصة. كان موجودًا عبر ذلك الشتاء الكئيب في مدينة بروج. وكان مُقيمًا مع مارجريت في بورجندي؛ لأن مارجريت التي كانت قد وقفت إلى جواره هو وجورج على درجات قلعة بينارد تُشاهد معهما بعينَين دامعتَين أباها وهو يُغادر، كانت هي نفسها حينئذٍ دوقة بورجندي الجديدة. شعرت مارجريت الطيبة القلب بالحزن والفزع، كما كان سيَحدُث مع الكثير من الناس في المستقبل جرَّاء تصرُّفات جورج غير المُبرَّرة، وكرَّست نفسها للعمل التبشيري بينما جمعت المال من أجلها ومن أجل أخوَيها الرائعَين.

لم يكن يُمكن حتى لاهتمام الآنسة باين إليس بإدوارد المهيب أن يسمح لها بإخفاء أنَّ الجهد الحقيقي المبذول لتجهيز السفن التي استؤجرت بأموال مارجريت كان من قِبَل ريتشارد؛ ريتشارد الذي لم يكن قد بلغ من العمر ثمانية عشر عامًا بعد. وحين وجد إدوارد

نفسه بصُحبة حفنة سخيفة من أتباعه يُعسكرون مرةً أخرى في مرجةٍ إنجليزية لمُواجهة جورج وجيشه، كان ريتشارد هو من ذهب إلى معسكر جورج الذي كانت مارجريت قد أثَّرت فيه، وتحدَّث إليه وأقنعه بالدخول في تَحالُف مرةً أخرى؛ وبهذا ترك الطريق إلى لندن مفتوحًا أمامهم.

ارتأى جرانت أن هذا التصرُّف الأخير لم يكن إنجازًا عظيمًا. إذ كان واضحًا أن من الممكن إقناع جورج بأي شيء. فجورج بفِطرته كان سهل المِراس.

الفصل السادس

لم يكَد جرانت يَفرُغ من كتاب «وردة رابي» ومن مسرَّات الأدب المحظورة حتى وصل طردٌ من مارتا، في صباح اليوم التالي عند الساعة الحادية عشرة تقريبًا، يحتوي على التسلية التاريخية الأكثر احترامًا كما سجَّلها السير توماس المُبجَّل.

ومع الكتاب كانت تُوجَد رسالةٌ مكتوبة بخطٍّ يد مارتا الكبير الممدود على ورق مُفكرتها القوي الباهظ الثمن.

«كان عليَّ أن أُرسِل هذا بدلًا من أن أُحضره. فأنا في غاية الانشغال. أظنُّ أنَّني أوصلت إم. إم. إلى نقطة الخلاف الشائكة فيما يخصُّ بليسنجتون. لم يكن يُوجَد أيٌّ من كتابات توماس مور في أيٍّ من متاجر الكتب؛ لذا ذهبت إلى المكتبة العامة. لا أعرف لمَ لا يُفكِّر المرء أبدًا في المكتبات العامة. ربما لأننا نتوقَّع أن نجد الكتب لزجة الملمس. أظنُّ أن هذا الكتاب يبدو نظيفًا وغير لزج إلى حدٍّ كبير. أمامك مهلة أربعة عشر يومًا. يبدو هذا كمُدَّة عقوبة أكثر ممَّا يبدو كمُدَّة إقراض. آمُل أن اهتمامك بالأحدب هذا يعني أن الوخْز صار أقلَّ إزعاجًا. حتى ألقاك قريبًا.»

مارتا.

بدا الكتاب بالفعل نظيفًا وغير رطب، وإن بدا عتيقًا بعض الشيء. لكن بعد القراءة الخفيفة لكتاب «وردة رابي»، بدت هذه الطبعة غير مُثيرة، وبدت فقرات الكتاب الجامدة بغيضة. غَيْر أنه انقضَّ على الكتاب باهتمامٍ بالغ. ففي نهاية المطاف، كان هذا الكتاب فيما يختصُّ بريتشارد الثالث هو «أصل الحكاية».

عاد جرانت من انغماسه في الكتاب بعد ساعة مُتحيرًا بشكلٍ غامض، وشاعرًا بعدم الارتياح. لم يكن السبب أن الأمر سبَّب له مفاجأة؛ إذ كانت الوقائع كما توقَّعها إلى حدٍّ كبير. لكن كان السبب أنه لم يكن يتوقَّع أن يكتب السير توماس بهذا الأسلوب.

«كانت راحته منغصةً أثناء الليالي، فكان يرقد لوقتٍ طويل مُستيقظًا غارقًا في التفكير، مُرهَقًا حدَّ الألم من الهمِّ والسهر، كان يغفو ولا ينام بعُمق. وهكذا راح قلبه غير المُطمئن يتقلَّب ويتداعى باستمرار؛ بسبب تذكُّره العاصف لأبشع أفعاله، والتأثير الشاقِّ لذلك عليه.»

كان ذلك لا بأس به. لكن حين أضاف أنه «كان قد عرف هذا السِّر من خادمات الغُرف لديه»، شعر جرانت فجأةً بالنفور. فاحت من الصفحات رائحة الثرثرة والنميمة التي تَحدُث عند الدَّرَج الخلفي، كما فاحت رائحة الخدم الذين يتجسَّسون. لذلك تحوَّل دون أن يعيَ من التعاطف مع المُعلِّق المُتعجرِف إلى المخلوق المعذَّب الذي يرقد على سريره وقد جافاه النوم. بدا القاتل ذا منزلة ومكانةٍ أكبر من تلك التي كان يتحلَّى بها الرجل الذي كان يكتب عنه.

الأمر الذي كان خاطئًا تمامًا.

شعر جرانت أيضًا بعدم الارتياح الذي ملأه حين استمع إلى شاهدٍ يقصُّ قصةً مثالية كان يَعلَم أنها مَعيبة في مرحلةٍ ما.

وكان ذلك بالتأكيد مُثيرًا لحَيرة ورِيبة كبيرتَين. ما الخَطب الذي يمكن أن يكون في سردٍ شخصي لرَجلٍ كان مُبجَّلًا بسبب نزاهته كما كان توماس مور يُبجَّل طيلةَ أربعة قرون؟

ارتأى جرانت أنَّ ريتشارد، الذي ظهَر في سرد مور، شخصٌ كانت رئيسة المُمرِّضات ستتعرَّف عليه. رجل في غاية التوتُّر، وقادر على فعل شرور عظيمة وإحداث مُعاناة هائلة. «لم يكن ذهنه يهدأ قط، ولم يكن يظنُّ أنه بمأمن قط. كانت عيناه تتجوَّلان في الأرجاء، وجسده مؤمَّنًا دائمًا على نحوٍ غير ظاهر، ويدُه دائمًا على خنجره، ومُحيَّاه وأسلوبه كمُحيًّا وأسلوب شخص على استعداد لأن يُهاجِم مرةً أخرى.»

وبالطبع كان موجودًا ذلك المشهد الدرامي، إن لم يُوصَف بالهستيري، الذي تذكَّره جرانت من أيَّام صباه، والذي يتذكَّره كل تلميذ على الأرجح. مشهد المجلس في البرج قبل أن يُقدِّم مُطالبته للتاج. تحدِّي ريتشارد المُفاجئ لهيستنجز فيما يتعلق بالجزاء المُلائم لرَجلٍ دبَّر لموت حامي المملكة. الادعاء الجنوني بأن زوجة إدوارد وعشيقته (جين شور) كانتا مسئولتَين عن ذراعه الضامرة بسِحرهما. ضرَب الطاولة في فورة غضبه؛ الأمر الذي كان فيه إشارة إلى أتباعه للاندفاع وإلقاء القبض على اللورد هيستنجز واللورد ستانلي وجون مورتون أسقف إيلي. والإسراع بهيستنجز إلى الساحة، وقطع رأسه على قطعةِ خشب كانت موجودة بالجوار بعد وقتٍ ضئيل للغاية من اعترافه أمام أول قس أمكنَ العثور عليه.

كانت تلك بالتأكيد صورة رجل يتصرَّف أولًا بدافع الغضب والخوف والانتقام، ثم يتأسَّف بعد ذلك.

لكن بدا أنه كان قادرًا على اقترافِ آثامٍ مدروسة أكثر. إذ جعل الدكتور شو، شقيق اللورد مايور، يُلقي موعظةً في الثاني والعشرين من شهر يونيو عند صليب القديس بولس، عن النص الآتي: «لا ينبغي أن تتوطَّد جذور اللُّقَطاء». حيث أكَّد الدكتور شُو أن كلًّا من إدوارد وجورج كانا ابنَي دوقة يورك من رَجلٍ مجهول، وأن ريتشارد هو الابن الشرعي الوحيد لدوق ودوقة يورك.

كان هذا سخيفًا في حدِّ ذاته ومُستبعَدًا جدًّا، حتى إن جرانت عاد وقرأه مرةً أخرى. لكنه كان لا يزال يُوحي بالشيء نفسه. وهو أن ريتشارد خاض في عِرض أُمه على مَسمع من العامة ومن أجل مصلحته المادية الشخصية، بعملٍ شائن لا يُصدَّق.

حسنًا، لقد قالها السير توماس مور. وإن كان أحدٌ يعرف عن هذا الأمر شيئًا فهو توماس مور. وإن كان أحدٌ يعرف كيف يختار وينتقي من بين أصحاب المصداقية في سردِ واقعةٍ ما فلا بدَّ أن يكون توماس مور، رئيس مجلس لوردات إنجلترا.

قال السير توماس إنَّ أُم ريتشارد اشتكت بمرارة من التشهير والافتراء اللذَين رماها بهما ابنُها. ارتأى جرانت أن هذا كان أمرًا مفهومًا من جانبها على وجه العموم.

أما عن الدكتور شو فقد سيطر عليه الندم. سيطر عليه بشدة لدرجة أنه «في غضون أيام كان قد ذبل ومات».

قال جرانت في نفسه إنه ربما يكون قد أُصيبَ بسكتة على الأرجح. ولا عَجب كثيرًا في ذلك. لا بدَّ أن وقوفه وسرده تلك القصة على مسامع حشد من اللندنيِّين كان يحتاج إلى جرأةٍ كبيرة.

أما رواية السير توماس عن أُمراء البرج فكانت مُشابهة لرواية «الأمازونية»، لكن نسخة السير توماس كانت أكثر تفصيلًا. كان ريتشارد قد ألمح إلى روبرت براكينبيري، آمِر البرج، بأنَّ اختفاء الأميرَين قد يكون أمرًا محمودًا، لكن براكينبيري ما كان ليُشارك في مثل هذا الفعل بأيِّ شكل من الأشكال. لذا فقد انتظر ريتشارد حتى ذهب إلى ورويك، وذلك أثناء تقدُّمه عبر إنجلترا بعد تتويجه، ثم أرسل تيريل إلى لندن بأوامر تقضي بأن يتسلَّم مِفتاح البرج لليلةٍ واحدة. وأثناء تلك الليلة أقدم خسيسان، هما دايتون وفوريست، وكان أحدهما سائسًا والآخر سجَّانًا، على قتل الصبيَّين خنقًا.

عند هذه النقطة أتت «القزمة» ومعها غداؤه، وأخذت الكتاب من يده؛ وبينما كان يتناول فطيرةَ الراعي من الصحن إلى فمه بالشوكة راح يُفكِّر مرةً أخرى في وجه الرجل الذي في قفص الاتهام. الأخ الأصغر المُخلِص الحليم الذي تحوَّل إلى وحش.

وحين عادت القزمة لتأخذ صحنه قال: «هل كنتِ تعرفين أن ريتشارد الثالث كان شخصًا ذا شعبيةٍ كبيرة للغاية في عصره؟ أقصد قبل أن يرتقيَ على العرش.»

نظرت «القزمة» بنظرةِ بُغْض إلى الصورة.

«كان دائمًا كالثعبان بين العُشب، إن سألتني رأيي. كان ناعمًا كالأفعى، هكذا كان؛ ناعمًا كالأفعى. كان يتحيَّن فُرصته.»

يتحيَّن الفرصة لماذا؟ تساءل جرانت، بينما كان صوتُ نقرِ خطواتها يُعلن غيابها في المَمر. لم يكن ليتسنَّى له أن يعرف أن أخاه إدوارد سيموت فجأةً وهو لا يزال في سنِّ الأربعين المُبكرة. لم يكن بِمقدوره أن يتوقَّع (حتى بعد فترة طفولة تشارَكا فيها مودةً حميمةً غير معهودة) أنَّ مُجرَيات الأحداث ستنتهي بمُصادرة أملاك جورج وجِرمان ابنَيه من ولاية العرش. لم يكن يُوجَد مغزًى «لتحيُّن الفرصة» إن لم يكن يُوجَد ما تُتحيَّن الفرصة لأجله. أثبتت المرأة الجميلة ذات الجمال القوي الراسخ والشعر المُذهَّب أنها ملكةٌ بديعة، باستثناء المسألة المُستعصية المُتمثِّلة في مُحاباتها لأقاربها، وكانت قد أنجبت لإدوارد مجموعةً كبيرة من الأطفال الأصحَّاء، من بينهم ولدان. وقد وقفت تلك المجموعة كلها مع جورج وابنه وابنته، بين ريتشارد والعرش. كان من المُستبعَد بالتأكيد أنَّ رجلًا مشغولًا بإدارة شمال إنجلترا، أو بشنِّ الحملات (بنجاحٍ باهر) على الاسكتلنديين، كان سيحظى بفائضِ اهتمامٍ كبير ليكون «ناعمًا كالأفعى».

إذَن، ما الذي غيَّره جذريًّا في وقتٍ قصير للغاية؟

مدَّ جرانت يده لكتاب «وردة رابي» ليرى ما تقوله الآنسة باين إليس حول التحول البغيض لأصغر أبناء سيسيلي نيفيل. لكن تلك الكاتبة المُراوغة كانت قد تجنَّبت الحديث عن هذه المسألة. لقد أرادت أن يكون الكتاب سعيدًا، ولو كانت قد سارت به إلى خاتمته المنطقية لكانت قد جعلت منه مأساةً لا إصلاح لها. لذا فقد اختتمَته بخاتمةٍ باهرة مُدوِّية بأن جعلت آخر فصول الكتاب عن ظهور إليزابيث اليافعة، كُبرى أطفال إدوارد. وبهذا تجنَّبَت مأساة إخوة إليزابيث الصغار، وكذلك هزيمة ريتشارد ومَقتله في المعركة.

وهكذا انتهى الكتاب بحفل في القصر، وبإليزابيث اليافعة المُتورِّدة السعيدة، بمظهرٍ رائع في فستانٍ أبيض وعِقدٍ من اللؤلؤ كان هو الأول لها، وهي ترقص حافيةً كأميرات

الحكايات الخيالية. كان ريتشارد وآن، وابنهما الصغير الرقيق، قد أتَوا من قلعة ميديلهام من أجل حضور المناسبة. لكن لم يكن جورج ولا إيزابيل حاضرَين. كانت إيزابيل قد ماتت أثناء المخاض قبل سنوات، بطريقةٍ غامضة وغير محزون عليها من جانب جورج. كان جورج أيضًا قد مات بطريقةٍ غامضة، ولكن مع ذلك الانحراف الذي كان سمةً مُميزة لجورج، كان قد اكتسب جرَّاء ذلك الغموض شهرةً خالدة.

لقد كانت حياة جورج عبارة عن انتقال من أحد مظاهر الإسراف الروحي المُذهِل إلى الذي يليه. وفي كل مرة، لا بدَّ أن أُسرته كانت تقول: «حسنًا، ذلك أخيرًا هو مُنتهى الشناعة؛ فحتى جورج نفسه لا يُمكنه أن يُفكِّر في أيِّ شيءٍ أكثر حماقةً من هذا.» وفي كل مرة كان جورج يُفاجئهم. إذ لم يكن يُوجَد حدٌّ لقُدرة جورج على إتيان السلوكيات الغريبة.

ربما كانت البذرة قد زُرِعت حينما نصَّبه ورويك، أثناء انغماسه الأول في المعاصي بصُحبة زوج أُمه، وريثًا للملِك هنري السادس المجنون المسكين الأُلعوبة، الذي كان ورويك قد أعاده إلى العرش نكايةً بابن عمومته إدوارد. كانت كلٌّ من آمال ورويك لرؤية ابنته ملكةً وكذلك مَزاعم جورج في ولاية العرش، قد ذهبت أدراجَ الرياح في تلك الليلة التي ذهب فيها ريتشارد إلى مُعسكر لانكستر، وتحدَّث إلى جورج. لكن ربما تبيَّن أن مَذاق الشعور بالأهمية كان كثيرًا للغاية على رَجلٍ نهِمٍ للمُتَع بطبيعته. ففي السنوات التالية كانت العائلة دائمًا ما تعترض نزوات جورج المُفاجئة، أو تُنقِذه من أحدث حماقاته.

حين ماتت إيزابيل كان مُتأكدًا من أنها سُمِّمت على يدِ خادمتها، وأن ابنه الرضيع سُمِّم على يدِ خادمةٍ أُخرى. أما إدوارد، فظنًّا منه أن هذه المسالة مُهمَّة بما يكفي لأن تُنظَر أمام محكمة لندنية، أرسل أمرًا مكتوبًا ليكتشف أن جورج حاكَم كِلتا الخادمتَين في جلساتٍ بسيطة مُكوَّنة من قُضاته هو وشنقَهما. فحاكَم إدوارد، الذي كان قد استشاط غضبًا من تلك الفعلة، اثنَين من أهل بيت جورج بتُهمة الخيانة، وكأنه يُحذِّره من مَغبَّة أفعاله؛ ولكن بدلًا من أن يفهم جورج التلميح أعلن أن هذه كانت جريمة قتل ارتُكِبت على يد القضاء، وأخذ يتنقَّل هنا وهناك مُتفوِّهًا بهذا الحديث جهرًا، وباتِّقادٍ كبير عائبًا في الذات الملكية.

ثم قرَّر أنه يريد الزواج من أكثر وريثات أوروبا ثراءً، التي كانت ابنةَ زوج مارجريت، الشابَّة ماري دوقة بورجندي. ظنَّت مارجريت الطيِّبة أنه سيكون من اللطيف أن تحظى بأخيها في بورجندي، لكن إدوارد كان قد رتَّب لدعم عرض الزواج الذي قدَّمه ماكسميليان إمبراطور النمسا، وكان جورج مصدرَ إحراجٍ مُستمر.

وحين لم يُسفِر تدبير بورجندي عن أي شيء، كانت العائلة تأمُل في أن تحظى بقليل من السلام. ففي نهاية المطاف، كان جورج يملك نصف أراضي نيفيل، ولم يكن في حاجةٍ أن يتزوَّج مرةً أُخرى لا من أجل الثراء ولا الأطفال. لكن جورج دبَّر خطةً جديدة للزواج من مارجريت، أُخت جيمس الثالث ملك اسكتلندا.

أخيرًا ارتقى جنون العظمة لديه من مفاوضاتٍ سِرِّية أُجريت باسمه مع وفودٍ ملكية أجنبية إلى المُجاهرة بعرض القانون البرلماني الصادر عن آل لانكستر، والذي كان قد أعلنه وريثًا للعرش بعد هنري السادس. أدَّى هذا بطبيعة الحال إلى مُثوله أمام برلمانٍ آخر أصعب في الانقياد بكثير.

كانت المحاكمة لافتةً للنظر لسببٍ رئيسي هو النزاع الكلامي المُلتهِب بين الأخوَين إدوارد وجورج، لكن حين تمَّت الموافقة على قانون الإدانة، وهو الأمر الذي كان مُتوقَّعًا، ساد السكون لبعض الوقت. كان حِرمان جورج من منزلته أمرًا مرغوبًا فيه وضروريًّا بالفعل. لكن إعدامه كان أمرًا مُختلِفًا كلِّيةً.

وبينما مرَّت الأيام من دون تنفيذ الحُكم، أرسل مجلس العموم تذكيرًا. وفي اليوم التالي أُعلِن أن جورج دوق كلارينس قد مات في البرج.

قالت لندن إنه غرِق في برميلٍ كبير من براميل نبيذ مالمسي. وما كان مجرد تعليق من الكوكني على مصيرِ رَجلٍ سِكِّير راح ينتقل عبر التاريخ، وجعل من جورج، الذي لا يستحقُّ، شخصًا خالدًا.

لم يكن جورج في الحفلة في ويستمنستر، والتأكيد الذي ورد في آخر فصول الآنسة باين إليس لم يكن عن سيسيلي نيفيل بصفتها أُمًّا للأبناء، بل كان عن كون سيسيلي نيفيل الجدَّة لمجموعةٍ كبيرة من الأطفال. ربما يكون جورج قد مات فاقدًا للمصداقية، على كومةِ أوراقٍ جافَّة سقطت من شجرة صداقات ضعيفة، لكن ابنه، ورويك الشاب، كان صبيًّا دمِثًا شريفًا، وكانت مارجريت الصغيرة ابنة العشر سنوات تُظهِر بالفعل أمارات الجمال التقليدي لآل نيفيل. أما إدموند الذي مات في إحدى المعارك وهو في السابعة عشرة من عمره، فقد يبدو مَضيعةً غاشمة لحياةٍ شابَّة، لكن لتحقيق التوازن في هذا الصدد كان موجودًا الطفل الرقيق الذي لم تُفكر قطُّ في تربيته، وكان له ابن يتبَعه. كان ريتشارد في العشرينيات من عمره لا يزال يبدو ضعيفًا كما لو كان يُمكن للمرء أن يَقسِمه إلى نصفَين، لكنه كان صلب العود راسخًا كجذور نبات الخلنج، وربما سيكبُر ابنه ذو المظهر الهشِّ ليُصبح صلبًا مِثله. أما عن إدوارد، الطويل البنية ذي الشعر الأشقر، فقد يختلط الأمر على

الناس ويرَون وسامته فظاظة، وودَّه فُتورًا، لكنَّ ابنَيه الصغيرَين وبناته الخمس كانوا يَجمعون بين كل السمات الشخصية لأجدادهم، وكذلك حُسن مظهرهم.

بصفتها جدةً كان بوسعها أن تَنظُر إلى هذا الحشد من الأطفال بِعَين الفخر، وبصفتها أميرةً من أميرات إنجلترا، كان بوسعها أن تَنظُر إليهم بعَين الثقة والطمأنينة. إذ كان التاج آمنًا في سلالة يورك لأجيالٍ قادمة.

ولو أنَّ أحدًا في ذلك الحفل نظر في كرةٍ بلُّورية، وأخبر سيسيلي نيفيل بأن سلالة يورك، بل وحتى سلالة بلانتاجانت بأَسرِها، ستزول إلى الأبد، لكانت عدَّت ذلك ضربًا من ضروب الجنون أو الخيانة.

لكن ما لم تسعَ الآنسة باين إليس إلى التستُّر عليه أو التغاضي عنه هو سيادة عشيرة وودفيل وسيطرتها على تجمُّع نيفيل وبلانتاجانت.

جالت سيسيلي نيفيل بعَينها حول الغُرفة، وتمنَّت لو أن زوجة ابنها إليزابيث كانت قد نَعِمت بقلبٍ أقلَّ كرمًا أو بعلاقاتٍ أقل. إذ كان قد تبيَّن أن الزواج المُتناسِب مع آل وودفيل كان أكثر سعادةً ممَّا كان أيُّ أحدٍ يجرؤ على أن يأمُل بكثير؛ فقد كانت إليزابيث زوجةً رائعة، لكن نتاج ذلك الزواج لم يكن سعيد الحظ كثيرًا. ربما كان من المُحتَّم أن تذهب الوصاية على الصبيَّين إلى أخيها الأكبر؛ وإن كان ريفرز مُحدَث نعمة بعضَ الشيء في حُبِّه للتَّباهي المُبتذل، وكذلك كثير الطموح، فإنه إنسانٌ مُهذَّب، ويتمتع بشخصيةٍ مُثيرة للإعجاب بما يسمح له أن يحصل على الوصاية على الصبيَّين أثناء أيام دراستهما في لودلو. أما عن البقية، وهم أربعة أشقَّاء وسبع شقيقات واثنان من الأبناء من زوجها الأول، فكانوا حقًّا كثيرين جدًّا لدرجة أن نِصف عددهم قد لا يكون قد أقدم على الزواج قبل أن تُوافيَها مَنيَّتها.

تخطَّت سيسيلي بعينَيها الأطفال وهم يضحكون في صخب، وتأمَّلت البالغين الواقفين حول طاولة العشاء. تزوَّجت آن وودفيل من وريث إيرل إسكس. وتزوَّجت إليانور وودفيل من وريث إيرل كينت. كما تزوَّجت مارجريت وودفيل من وريث إيرل أرونديل. وتزوَّجت كاثرين وودفيل من دوق بكنجهام. وتزوَّجت جاكيتا وودفيل من اللورد سترينج. وتزوَّجت ماري وودفيل من وريث اللورد هربرت. وتزوَّج جون وودفيل بصورةٍ مُخزية من أرملة نورفولك التي كانت كبيرةً في السنِّ بما يكفي لأن تكون في مقام جدَّته. كان من الطيِّب أن تُقوِّيَ روابط الدم الجديد هذه العائلة العريقة؛ فالدماء الجديدة دائمًا ما تتسرَّب إلى داخل العائلة، لكن لم يكن من الطيِّب أن يَحدُث هذا فجأةً وفي فيض من مصدرٍ واحد. كان الأمر

أشبهَ بحُمَّى أصابت السلالة السياسية في البلاد؛ استحداث دخيلٌ من الصعب استيعابه. كان أمرًا طائشًا ومؤسفًا.

مهما يكُن. كانت ثَمة سنواتٌ طويلة قادمة يمكن خلالها استيعاب ذلك التدفُّق. هذه القوة الجديدة المُفاجِئة في الجسد السياسي للبلاد ستتوقَّف عن كونها مُركَّزة، وستنتشر وتستقر، وستتوقف عن كونها مُقلِقة وخطيرة. فإدوارد مع كل لُطفه ودماثة خلقه كان يتمتَّع بمنطقٍ سليم وفطنة؛ سيُحافظ على استقرار الوضع في البلاد كما فعل طيلة زُهاء عشرين عامًا. لم يحكم أحدٌ إنجلترا بقوةٍ استبدادية أو بقبضةٍ خفيفة مِثلما فعل ابنها إدوارد الفطِن الخامل المُحِب للنساء.

سيكون كل شيء على ما يُرام في نهاية المطاف.

كانت على وشك أن تنهض لتنضمَّ إليهم في نِقاشهم عن الحلوى حتى لا يظنُّوا أنها انتقادية أو مُتحفِّظة، حين أتت حفيدتها إليزابيث لاهثةً وتضحك وهي تُفلِت من المناوشات مندفعةً نحو المقعد المُجاور لها وجلست فيه.

وقالت وهي تشهق: «أنا أكبر بكثير من الخَوض في هذه الأمور، كما أن هذا يُفسِد مَلابسي. أيَرُوق لكِ فستاني يا جدَّتي؟ كان عليَّ أن أتملَّق أبي لأحصُل عليه. قال إن فستاني الساتان البُنِّي القديم سيَفي بالغرض. ذلك الذي ارتديتُه حين أتت العمَّة مارجريت من بورجندي لزيارتنا. ذلك أسوأ ما يمكن أن يَحدُث حين يكون لديكِ أبٌ يُلاحظ ما ترتديه النساء. إنه يعلم أكثر من اللازم عما بداخل دولابي من ملابس. هل سمعتِ أن ابن ملك فرنسا الأكبر هجرَني؟ إن أبي غاضب، لكنَّني في غاية السعادة. لقد أشعلتُ عشر شمعات للقِدِّيسة كاثرين. كلَّفني ذلك كل ما تبقَّى لي من مصروف. لا أريد أن أترك إنجلترا. لا أريد أن أترك إنجلترا مُطلقًا. أيُمكنك أن تتدبَّري ذلك من أجلي، يا جدتي؟»

ابتسمت سيسيلي وقالت إنها ستُحاول.

«العجوز أنكاريت، التي تُخبر بالطالع، تقول إنني سأُصبح ملكة. لكن حيث إنه لا يُوجَد أمير ليتزوَّجني، فأنا لا أعرف كيف يمكن أن يَحدُث ذلك.» ثم سكتت برهةً، وأضافت بنبرةٍ أخفض: «قالت إنني سأُصبح ملكة إنجلترا. لكنني أتوقَّع أنها كانت ثمِلةً بعض الشيء. إنها مُولَعة جدًّا بتناول نبيذ هيبوكرا.»

كان من المُجحِف، بل ومن الافتقار إلى القدرة الفنية من جانب الآنسة باين إليس، أن تُلمِّح إلى أن إليزابيث هي الزوجة المُستقبلية لهنري السابع إن كانت غير مُستعدَّة بصفتها كاتبةً أن تُواجِه الأحداث المُؤسِفة وغير السارَّة التي تتخلل ذلك. فأن تفترض في قُرَّائها

معرفةً بزواج إليزابيث من أول ملوك أُسرة تيودور، كان يعني أيضًا أن تفترض معرفتهم بمَقتل أخوَي إليزابيث. لذا سقط على المشهد الاحتفالي الذي اختارت أن تُنهيَ به قِصَّتها ظِلٌّ كئيب يدعو للانتباه.

لكن جرانت ارتأى أنَّ الكاتبة في المُجمَل قدَّمت عملًا جيدًا بما فيه الكفاية فيما يتعلق بالقصة، مُستندًا في حُكمه على ما قرأ منها. بل إنه قد يعود في وقتٍ ما ويقرأ الأجزاء التي كان قد تخطَّاها.

الفصل السابع

كان جرانت قد أطفأ المِصباح الموجود بجوار سريره تلك الليلة، وكان ناعسًا، حين قال له صوت في رأسه: «لكن توماس مور كان هو هنري الثامن.»

أقضَّ هذا مَضجعه، وأطار من عينه النعاس. فأنار المِصباح مرةً أخرى.

لم يكن ما يَعنيه الصوت بالطبع أن توماس مور وهنري الثامن كانا شخصًا واحدًا، لكنه كان يقصد أن توماس مور ينتمي إلى عهد الملك هنري الثامن عند تصنيف الشخصيات بحسب فترات حُكم الملوك الذين عاصَروهم.

رقد جرانت على فِراشه يَنظُر إلى بُقعة الضوء التي خلَّفها مِصباحه على السقف وأخذ يفكِّر. إن كان توماس مور هو مستشار الملك هنري الثامن، فلا بد إذَن أنه عاش طيلة عهده الطويل، وكذلك طيلة عهد ريتشارد الثالث. كان ثَمة خَطب في موضعٍ ما.

مدَّ يده وأمسك بكتاب توماس مور «تاريخ ريتشارد الثالث». كان يحتوي على مقدمة، هي مُختصر لحياة مور، لم يكن جرانت قد كلَّف نفسه عناء قراءتها. أما الآن فقد توجَّه إلى تلك المُقدمة ليعرف كيف كان مور مؤرخًا لعهد الملك ريتشارد الثالث وكذلك مُستشارًا للملك هنري الثامن. كم كان عمر مور حين تولَّى ريتشارد خلافة العرش؟

كان في الخامسة من عمره.

حين وقع ذلك المشهد الدرامي للمجلس في البرج، كان توماس مور في الخامسة من عمره. وكان في الثامنة فقط حين مات ريتشارد في بوسوورث.

كل شيء في ذلك التأريخ كان عبارةً عن أقوالٍ مُرسَلة.

وإن كانت تُوجد عبارةٌ واحدة يمقتها أي رجل شرطة أكثر من أي عبارة أخرى فهي عبارة «أقوال مُرسَلة». وخاصةً حين تُستخدَم دليلًا.

كان جرانت يشعر بالتقزز الشديد، حتى إنه ألقى بالكتاب الثمين على الأرض قبل أن يتذكَّر أنه مِلك للمكتبة العامة، وأن الكتاب مُعار له لمدة أربعة عشر يومًا.

لم يعرف مور ريتشارد الثالث على الإطلاق. لا شكَّ في أنه نشأ بالفعل في ظل عهد ملك من ملوك آل تيودور. كان ذلك الكتاب بمثابة الكتاب المُقدَّس في عالم التأريخ عن فترة الملك ريتشارد الثالث؛ ومن سردِه استقى هولينشيد مادة أعماله، ومنه كتب شكسبير مسرحياته، وفيما عدا أن مور كان يعتقد بالفعل بصحَّةِ ما كتب فإنه لم يكن شيئًا ذا قيمةٍ أكثر ممَّا قال عنه الجندي. كان كتاب مور بمثابة ما وصفَتْهُ لورا ابنة عمومته بأنه «ثلج على الحذاء». كان عبارة عن حدث «ذي مِصداقية تُعادل مِصداقية الكتاب المُقدَّس» رآه شخصٌ ما بخلاف الراوي. كان تمتُّع مور بعقلية ناقدة ونزاهة مُثيرة للإعجاب لا يجعل من قصته دليلًا مقبولًا. لقد قبِلَتْ عقول أخرى كثيرة مُثيرة للإعجاب بتلك القصة عن مرور القوات الروسية عبر بريطانيا. لقد تعامل جرانت لوقتٍ طويل للغاية مع الذَّكاء البشري بحيث لم يكن من المُمكن أن يقبل بصحة رواية شخصٍ ما عن رواية شخصٍ ما لما تذكَّره أو رآه أو أُخبِر به.

كان جرانت يشعر بالتقزز.

عند أول فرصة تسنح له يجب أن يحصل على سردٍ مُعاصر فعليًّا للأحداث التي وقعت في عهد ريتشارد القصير في المُلك. يمكن للمكتبة العامة أن تستعيد كتاب السير توماس مور غدًا، ولتذهب مُهلة الأربعة عشر يومًا إلى الجحيم. لم تُمثِّل حقيقة أن السير توماس كان شهيدًا وعقليةً فائقة أيَّ فارق على الإطلاق مع آلان جرانت. إذ كان آلان جرانت قد عرَف الكثير من العقول العظيمة غير الناقدة التي كان يمكن لأصحابها أن يُصدِّقوا قصةً تجعل وجه مُحتالٍ يحمرُّ من الخجل. كان قد عرَف عالِمًا كبيرًا كان مُقتنعًا بأن قِطعة من شاش الزبد هي عمَّته الكُبرى صوفيا؛ لأن وسيطًا روحانيًّا أُميًّا من أزقَّة بلايموث قال له ذلك. وكان قد عرَف رَجلًا كان حُجَّة في «العقل البشري وتطوُّره»، ومع كل ما كان لديه من علمٍ تعرَّض للخداع على يد وغد مُخادِع لا أمل في إصلاحه؛ لأنه «اعتمد في الحكم على الأمور على نفسه وليس بناءً على تقارير الشرطة». من وجهة نظر آلان جرانت، لم يكن يُوجَد أحدٌ غير مُمحِّص أو على قدرٍ كبير من السذاجة مِثل أصحاب العقليات العظيمة. وفيما يخصُّ آلان جرانت، فقد مُحِي توماس مور وأُلغيَ وجوده وشُطِب، وسيبدأ آلان جرانت من الصِّفر مرةً أخرى صباح يوم غد.

كان ما زال في حالة حنَق عبثية حين غلبه النوم، واستيقظ حانقًا.

عندما ظهر جسد «الأمازونية» الضخم عبر الباب، قال لها جرانت بنبرة اتهام: «أتعرِفين أن السير توماس مور الذي كنتِ تمدحينه لم يكن يعرف شيئًا عن ريتشارد الثالث على الإطلاق؟»

بدَت مذهولة، ليس ممَّا قاله، ولكن من حِدَّته في الحديث. بدا كأن عينَيها ستذرفان الدموع لو نطقَ بكلمةٍ فظَّة أُخرى.

قالت مُعترِضة: «بالطبع كان يعرف!» وتابعت: «لقد عاش في تلك الحِقبة.»

قال جرانت بلا هوادة: «كان في الثامنة من عمره حين مات ريتشارد.» وأردف: «وكل ما عرَفه كان ما قيل له. مِثلي. ومِثلك. ومِثل ويل روجرز الطيِّب الذِّكر. إن تأريخ السير توماس مور لسيرة ريتشارد الثالث لا يستحقُّ أيَّ تبجيل على الإطلاق. إنه محضُ أقوالٍ مُرسَلة لَعينة وخداع.»

سألته المُمرِّضة بقلق: «أتشعُر بأنك لستَ على ما يُرام هذا الصباح؟» واستطردت: «أتظنُّ أن حرارتك ارتفعت؟»

«لا أعرف إن كانت حرارتي قد ارتفعت، ولكن ضغط دمي ارتفع كثيرًا.»

فقالت وقد أخذت كلامه حرفيًّا: «أوه، يا إلهي، يا إلهي.» وأضافت: «لقد كانت صِحَّتك تتحسَّن تحسُّنًا جيدًا للغاية. ستشعر المُمرِّضة إنجهام بالأسى كثيرًا. لقد كانت تتباهى بتعافيك جيدًا.»

كانت رؤية «القزمة» لجرانت على أنه مادة للتباهي تُمثِّل فكرةً جديدة عليه، لكنها لم تُشعِره بالعِرفان والرضا. فعزم جِديًّا على أن يعمل على ارتفاع درجة حرارته إن تمكَّن من فعل ذلك؛ فقط لكي يُحقِّر من «القزمة».

لكن زيارة مارتا الصباحية صرفَته عن تَجرِبة قوة العقل على المادة التي كان عازمًا عليها.

بدا أنَّ مارتا كانت تتباهى بصحَّته الذهنية بنفس القدر الذي تتباهى به «القزمة» بتحسُّنه الجسدي. كانت مسرورةً أنَّ بحثها مع جيمس في المطبعة قد آتى ثماره.

فسألته: «هل اتخذتَ قرارًا بشأن بيركن واربيك إذَن؟»

«لا. ليس واربيك. أخبريني، ما الذي حملكِ على أن تُحضري لي بورتريهًا لريتشارد الثالث؟ هل يُوجَد سرٌّ أو لُغز بشأن ريتشارد؟»

«لا. أظنُّ أننا أخذناه بوصفه رسمًا توضيحيًّا لقصة واربيك. لا، مهلًا. تذكَّرت. لقد رفعه جيمس وقال: «إن كان مُولَعًا بالوجوه، فيُوجَد وجه لأجله!» وقال: «هذا هو القاتل الأكثر شهرةً في التاريخ، ومع ذلك فإنَّ وجهه في تقديري وجه قدِّيس».»

قال جرانت: «قديس!» ثُم تذكَّر شيئًا ما. فتابع يقول: «ضميرٌ يقِظ على نحوٍ مُفرِط.»

«ماذا؟»

«لا شيء. كنتُ أتذكَّر فقط أول انطباعاتي عن البورتريه. هل هكذا بدا لكِ؛ وجه قديس؟»

نظرَت إلى الصورة المُستنِدة على كومة الكتُب. وقالت: «لا يُمكنني أن أراها في مواجهة الضوء»، والتقطتها لتُلقيَ نظرةً أكثر تفحصًا.

فجأةً تذكَّر جرانت أن الوجوه كانت تُمثِّل لمارتا، وكذلك بالنسبة للسيرجنت ويليامز، مسألةً مهنية. انحراف الحاجب، وشكل الفم كان يُمثِّل دليلًا لمارتا على الشخصية بالقدر نفسه الذي كان يُمثله ذلك لويليامز. لا شكَّ في أنها هي نفسها اتخذت وجوهًا تُلائم الشخصيات التي لَعِبتها.

«تظنُّ المُمرِّضة إنجهام أنه كئيب وحزين. وتظنُّ المُمرِّضة دارول أنه مُرعِب. وجرَّاحي يرى أنه ضحية لمرض شلل الأطفال. أما في نظر السيرجنت ويليامز فهو قاضٍ بالفطرة. وتظنُّ رئيسة المُمرِّضات أنه روحٌ مُعذَّبة.»

لم تنطق مارتا بشيء لبُرهةٍ قصيرة. ثم قال: «أتدري، إنه أمرٌ غريب. حين تنظر إليه للمرة الأولى تظنُّ أن وجهه خبيث ومُثير للريبة. بل قد تظن حتى أنه عُدواني. لكن حين تُطيل النظر إليه بعض الشيء تجِد أنه ليس كذلك على الإطلاق. إنه هادئ إلى حدٍّ بعيد. إنه وجهٌ لطيف ودمِث حقًّا، ربما كان هذا ما يعنيه جيمس بقوله إنه يُشبِه القدِّيسين.»

«لا. لا، لا أظن ذلك. ما كان يقصده هو ... الخضوع للضمير.»

«أيًّا ما كان، إنه «وجه»، هكذا هو! ليس مجرد مجموعة من الأعضاء التي تؤدي وظائف الرؤية والتنفس وتناول الطعام. إنه وجهٌ رائع. وبتعديلٍ بسيط للغاية، يمكن أن يكون هذا بورتريهًا للورينزو العظيم.»

«أتفترضين أن هذا هو لورينزو وأننا نحسبه رجلًا آخر تمامًا؟»

«بالطبع لا. لمَ تظنُّ ذلك؟»

«لأن لا شيء في الوجه يُلائم حقائق التاريخ. كما أنَّ الصور قد اختلطت من قبل.»

«أوه، أجل، حدث ذلك بالطبع. لكن ذلك هو ريتشارد بلا شك. الصورة الأصلية، أو ما يُفترَض أنها الصورة الأصلية، موجودة في قلعة ويندسور. أخبرَني جيمس بذلك. إنها موجودة ضِمن قائمة موجودات هنري الثامن؛ لذا فهي هناك منذ أربعمائة عام أو نحو ذلك. وتُوجَد نُسَخ مُطابقة لها في بلدتَي هاتفيلد وأولبري.»

فقال جرانت في استسلام: «إنه ريتشارد.» وأردف: «كل ما في الأمر أنني لا أفقه شيئًا فيما يتعلق بالوجوه. أتعرفين أحدًا في المتحف البريطاني؟»

سألته مارتا، وانتباهها لا يزال مُنصبًّا على الصورة: «في المتحف البريطاني؟» وتابعت: «لا، لا أظن ذلك. ليس بحسب ما أستطيع أن أتذكَّر في الوقت الراهن. لقد ذهبت إلى هناك مرةً واحدة لأُشاهد المجوهرات المصرية، حين كنت أؤدِّي دور كليوباترا مع جيفري؛ هل شاهدتَ من قبلُ مسرحية «أنتوني» لجيفري؟ كانت راقية الذوق للغاية، لكن المكان يُثير بداخلي الخوف. يا له من تجميع للعصور. لقد جعلني بالمشاعر نفسها التي تُثيرها فيك النجوم؛ أنني ضئيلة وبلا قيمة. ماذا تريد من المتحف البريطاني؟»

«أردتُ بعض المعلومات عن التاريخ المكتوب في أيام ريتشارد الثالث. كتابات سردية مُعاصرة.»

«ألم يُجدِ السير توماس المُبجَّل نفعًا إذَن؟»

قال جرانت في غِل: «سردُ السير توماس المُبجَّل ليس سوى شائعات قديمة.» كان قد أصبح يشعر ببغُضٍ شديد لمور الذي كان يحوز إعجاب الكثيرين.

«أوه، يا إلهي. مع أن الرجل اللطيف من المكتبة بدا أنه يُبجِّله كثيرًا. قال إن هذا هو «إنجيل ريتشارد الثالث طبقًا لما ورد عن القدِّيس توماس مور»، وما إلى ذلك.»

قال جرانت بوقاحة: «هو أبعَدُ ما يكون عن الإنجيل.» وأردف: «كان توماس مور يكتب أيام حُكم آل تيودور ما أخبره به أحدٌ ما عن الأحداث التي وقعت في إنجلترا أيام حُكم آل بلانتاجانت حين كان مور نفسه في الخامسة من عمره.»

«في الخامسة من عمره؟»

«أجل.»

«أوه، يا إلهي. ليس مصدرًا موثوقًا منه إذَن.»

«لم يكن ذلك حتى وقت وقوع الأحداث مباشرةً. فكِّري في الأمر، إنَّ سرده موثوق بقدرِ موثوقية نصائح وكيل الرهانات. لقد كان يعيش في عصرٍ مُختلف تمامًا. وإن كان خادمًا لآل تيودور فقد كان يُلقي كذبًا باللائمة على ريتشارد الثالث.»

«أجل. أجل، أظن ذلك. ماذا تُريد أن تكتشف بشأن ريتشارد، ما دام لا يُوجَد أي غموض لتبحث فيه؟»

«أُريد أن أعرف ما الذي أفقَده صوابه. ذلك لُغزٌ أعمق من أي شيء واجهتُه مؤخرًا. ما الذي غيَّره بين ليلة وضُحاها تقريبًا؟ حتى لحظة وفاة أخيه كان يبدو أنه جديرٌ بالإعجاب للغاية. كان مُخلِصًا في ولائه لأخيه.»

«أظن أن الشرف الأسمى لا بدَّ أن يُمثِّل مصدر إغراء دومًا.»

«كان وصيًّا على العرش حتى بلوغ الصبي السِّن القانونية، كان حاميًا لإنجلترا. وبتاريخه السابق، يحسب المرء أن هذا كان من شأنه أن يكون كافيًا له. كان المرء سيَظنُّ بالطبع أن هذا يروق له؛ كونه حاميًا لكلٍّ من ابن إدوارد والمملكة.»

«ربما كان الصبي غير مُحتمَل، وكان ريتشارد يتوق «لتلقينه» درسًا. من الغريب أننا لا نرى الضحايا إلا ملائكةً بريئة. مثل يوسف في الكتاب المُقدَّس. في الواقع، أنا واثقة من أنه كان شابًّا لا يُطاق إلى حدٍّ بعيد، وأن طرحه في البئر كان قد طال انتظاره. ربما كان ابن إدوارد يُطيل السَّهر ويحتاج إلى من يُسكِته.»

فقال جرانت مُذكِّرًا إيَّاها: «كانا اثنين من الأبناء.»

«أجل، بالطبع. بالطبع لا يُوجَد تفسير. كان تصرُّفًا في غاية الهمجية. يا لهما من مِسكينَين هذان الحَمَلان الصغيران المُزغبان! أوه!»

«لماذا «أوه» هذه؟»

«فكَّرتُ لتوِّي في شيء. الحَمَلان الصغيران المُزغبان جعلاني أُفكِّر فيه.»

«ما هو؟»

«لا، لن أُخبرك تحسُّبًا لئلَّا ينجح الأمر. يجب أن أُغادر الآن.»

«هل تمكَّنتِ من إقناع مادلين مارش بكتابة المسرحية؟»

«حسنًا، في الواقع، لم تُوقِّع عقدًا بعد، لكن أظن أنها اقتنعت بالفكرة. إلى اللقاء يا عزيزي. سأُعرِّج عليك مُجدَّدًا في القريب.»

غادرت مارتا، ومرَّت مُسرعةً بجوار «الأمازونية» التي فوجئت بها فاحمرَّ وجهها خجلًا، ولم يتذكَّر جرانت أيَّ شيء عن الحُملان المُزغبة حتى أتاه حمَل مُزغب إلى غُرفته في مساء اليوم التالي. كان الحَمَل المُزغب يرتدي نظارةً ذات إطارٍ سميك مصنوع من قرون الحيوانات؛ الأمر الذي أكَّد التشابه بطريقةٍ غريبة بدلًا من أن يَصرِف الانتباه عنه. كان جرانت غافيًا، ويشعر بسكينةٍ أكثر ممَّا كان يشعر منذ مدة؛ وكما أشارت رئيسة

المُمرِّضات، كان التاريخ طريقةً ممتازة لكي يضع المرء الأمور في نِصابها. أتى صوت الطَّرق على بابه مُتردِّدًا جدًّا حتى إن جرانت اعتقد أنه كان يتخيَّله. فليس من المُلائم أن يتَّسِم الطَّرْق على أبواب المستشفيات بالتردُّد. لكنَّ شيئًا ما جعله يقول: «ادخُل!» وعندما فُتِح الباب ظهر مَن كان بالتأكيد حَمَل مارتا المُزغِب، حتى إن جرانت ضحك بصوتٍ عالٍ قبل أن يتمكن من كَبحِ نفسه.

بدا الشابُّ مُحرَجًا، وابتسم في توتُّر وعصبية، وحرَّك النظارة على أنفه بإصبع سبَّابة طويل ونحيف، ثم تنحنح وقال:

«سيد جرانت؟ اسمي كارادين. برينت كارادين. آمُل ألا أكون قد أزعجتُك أثناء راحتك.»

«لا، لا. تعالَ يا سيد كارادين. أنا مسرور لرؤيتك.»

«مارتا، أو بالأحرى الآنسة هالارد، أرسلَتْني. قالت إنني يُمكن أن أُقدِّم لك بعض العون.»

«هل قالت لك كيف؟ اجلس. ستجد كُرسيًّا هناك خلف الباب. أحضِرْه إلى هنا.»

كان الشابُّ طويلًا وحاسِرَ الرأس، وشَعره أشقر ذو تجاعيد ناعمة تُزيِّن جبهته، ويرتدي مِعطفًا صوفيًّا واسعًا جدًّا يتدلَّى بأزرارٍ مفتوحة حول جسده في طيَّات مُهمَلة، أقرب إلى الطريقة الأمريكية. كان من الواضح أنه بالفعل أمريكي. أحضر الكرسيَّ واستقرَّ عليه والمِعطفُ مبسوطٌ حوله كأنه رداءٌ ملكي، ثم نظر إلى جرانت بعينَين بُنِّيتَين رقيقتَين لم يستطع حتى إطار نظارته أن يُخفيَ سِحرهما وبَريقهما.

«مارتا، أو بالأحرى الآنسة هالارد، قالت إنك تُريد البحث عن شيء.»

«وهل أنت باحث؟»

«أنا أُجري بعض الأبحاث، هنا في لندن. أقصد أبحاثًا تاريخية. وقد قالت شيئًا عن أنك تُريد شيئًا في هذا الصدد. إنها تعرف أنَّني أعمل في المتحف البريطاني في صباح معظم الأيام. سيَسرُّني كثيرًا يا سيد جرانت أن أفعل أي شيء بوسعي لمُساعدتك.»

«هذا لُطفٌ كبير منك، في غاية اللُّطف حقًّا. ما الذي تعمل عليه إذَن؟ أقصد أبحاثك.»

«ثورة الفلَّاحين.»

«أوه، ريتشارد الثاني.»

«أجل.»

«هل أنت مُهتمٌّ بالظروف الاجتماعية؟»

ابتسم الشابُّ فجأةً بطريقة لا تُشبِه طريقة الطلبة على الإطلاق، وقال: «لا، أنا مُهتم بالبقاء في إنجلترا.»

«ولا تستطيع البقاء في إنجلترا من دون إجراء أبحاث؟»

«ليس بسهولةٍ كبيرة. ينبغي أن يكون لديَّ حُجة غياب. يظنُّ أبي أن عليَّ أن أدخل إلى مجال عمل العائلة. إنه مجال الأثاث. بيع الأثاث بالجُملة. حيث تطلبه بالبريد. تطلبه من كُتيِّب. لا تُخطئْ فَهمي، يا سيد جرانت؛ إنه أثاثٌ جيِّد جدًّا. يعيش طويلًا. كل ما في الأمر أنني لا أستطيع أن أُولِيَ اهتمامًا كبيرًا بوحدات الأثاث.»

«وباستثناء الاستكشاف القطبي، كان المتحف البريطاني أفضلَ ملاذ يُمكِنك التفكير فيه.»

«حسنًا، إنه دافئ. وأنا أُحبُّ التاريخ حقًّا. لقد تخصَّصت في دراسته. وفي الواقع، يا سيد جرانت، إن كنتَ تُريد أن تعرف حقًّا، فقد تحتَّم عليَّ أن أتبع أتلانتا شيرجولد إلى إنجلترا. إنها الفتاة الشقراء الغبية في مسرحية مارتا؛ أقصد مسرحية الآنسة هالارد. أقصد أنها تؤدي دور الفتاة الشقراء الغبية. لكنها ليست غبيةً على الإطلاق، أقصد أتلانتا.»

«لا، بالطبع. إنها شابَّة موهوبة جدًّا بالفعل.»

«أرأيتها؟»

«لا أظنُّ أن أحدًا في لندن لم يرَها.»

«وأنا أيضًا. صحيح؛ فالمسرحية مُستمرة بلا توقُّف. لم نكن نحسب، أنا وأتلانتا، أنها ستستمرُّ لأكثر من بضعة أسابيع؛ لذا فقد تبادَلْنا عبارات الوداع وقُلنا: أراك مع بداية الشهر! حينها اكتشفنا أنَّ الأمر سيستمرُّ إلى مدَّةٍ غير مُحدَّدة، بحيث تحتَّم عليَّ أن أجدَ عُذرًا لآتيَ إلى إنجلترا.»

«ألم تكن أتلانتا عُذرًا كافيًا؟»

«ليس كافيًا لأبي! إن عائلتي مُتعالية كثيرًا بشأن أتلانتا، لكن أبي هو الأسوأ. فحين يستطيع أن يحمل نفسه على الإتيان على ذِكرها، فإنه يُشير إليها بقوله «تلك المُمثلة الشابَّة التي تعرفها». كما ترى، أبي هو كارادين الثالث، ووالد أتلانتا هو بقدرٍ كبيرٍ شيرجولد الأول. إنه يمتلك مَتجرًا صغيرًا للبِقالة في شارع ماين في الواقع. كما أنه من ملح الأرض، إن كنت مُهتمًّا بمعرفة ذلك. وبالطبع لم تُحقِّق أتلانتا الكثير في الولايات المتحدة. أقصد على خشبة المسرح. هذا هو نجاحها الكبير الأول. لذلك لم ترغب في أن تفسخ عقدها وتعود إلى الوطن. في الواقع، سيتطلَّب الأمر شجارًا كبيرًا لحَملِها على العودة إلى الوطن بأي شكل من الأشكال. إنها تقول إننا لم نُقدِّرها حقَّ قدرها.»

«لذلك انصرفتَ إلى البحث.»

«كان عليَّ أن أُفكِّر في أمرٍ ما لا أستطيع فِعله إلا في لندن. وكنت قد أجريت بعض الأبحاث في الجامعة. لذا بدا المتحف البريطاني هو ما يُمكنك أن تَصِفه بأنه المكان المُناسب لي. يُمكنني أن أستمتع وفي نفس الوقت أُبرهِن لأبي أنني حقًّا أعمل، كِلا الأمرين في الوقت نفسه.»

«أجل. إنها أفضل حُجَّة غياب صادفتُها من قبل. بالمناسبة، لماذا أنت مُهتمٌّ بثورة الفلاحين؟»

«إنها حِقبةٌ مُثيرة للاهتمام. وظننتُ أنها ستُدخِل السرور على والدي.»

«هل «هو» مُهتم بالإصلاح الاجتماعي؟»

«لا، لكنه يكره الملوك.»

«كارادين الثالث يكره الملوك؟»

«أجل، الأمر طريف حقًّا. لن أستبعد أنه يضع تاجًا في أحد صناديق ودائعه. أُراهن أنه يخرج الصندوق بين الحين والآخر، ويتسلل إلى محطة جراند سنترال، ويضع التاج على رأسه في مرحاض الرجال. أخشى أنني أتسبَّب في إرهاقك يا سيد جرانت؛ بثرثرتي عن شئوني الخاصة هكذا. لم آتِ من أجل ذلك. لقد أتيتُ من أجل أن ...»

«أيًّا كان ما أتيت من أجله، فقد نزلتَ لي من السماء مباشرةً. لذا استرخِ، إن لم تكن في عَجلة من أمرك.»

قال الشابُّ وهو يُمدِّد ساقَيه أمامه: «لستُ في عجلة أبدًا.» وبينما كان يفعل ذلك لامَسَت قدماه، من ناحية الطرف الأبعد لساقَيه الطويلتَين، الطاولة الموضوعة بجانب السرير، فاهتزَّ بورتريه ريتشارد الثالث في وضعه غير الثابت، وسقط على الأرض.

«أوه، سامِحني! كانت تلك رعونة منِّي. لم أعتَدْ حقًّا على طول ساقَيَّ بعد. يحسب المرء أنه سيَعتاد على الشكل الذي يتَّخذه جسدُه في الثانية والعشرين من عمره.» الْتَقط البورتريه، ونفض التراب عنه بحذرٍ بِسوار كُمِّه، وتأمَّله باهتمام. وقرأ بصوتٍ مسموع: «ريتشارد الثالث. أنج. ريكس.»

قال جرانت: «أنت أول شخص يُلاحظ الكتابة على الخلفية.»

«حسنًا، أظن أنها ليست واضحةً للعيان إلا إن نظر المرء إليها بتدقيق. أنت أول شخص أُقابله لديه صورة ملك مُخصَّصة لتُعلَّق على الجدار.»

«ليس وسيمًا للغاية، صحيح.»

قال الفتى ببطء: «لا أعرف.» وتابَع: «ليس وجهًا قبيحًا، من ناحية الوجوه. كان لديَّ أستاذ في الجامعة كان يُشبِهه كثيرًا. كان يعيش على البزموث وأكواب الحليب؛ لذا كانت تبدو على ملامحه قليلًا نظرةُ عداوة للحياة، لكنه كان ألطف مخلوق يمكن تخيُّله. هل كنتَ تُريد معلومات عن ريتشارد؟»

«أجل. لا أريد شيئًا مُبهَمًا أو صعبًا. فقط أُريد أن أعرف من المرجع الموثوق المُعاصِر له.»

«حسنًا، من شأن هذا أن يكون سهلًا جدًّا. إنه ليس بعيدًا عن الزمن الذي أنا مُهتم به. أقصد الفترة التي أُجري عليها أبحاثي. بالتأكيد المرجع الموثوق في عصرنا السير كوثبرت أوليفانت يُغطي كلتا الفترتَين. هل قرأتَ كتب أوليفانت؟». قال جرانت إنه لم يقرأ شيئًا سوى الكتب المدرسية وكتاب السير توماس مور.

«مور؟ مُستشار هنري الثامن؟»

«أجل.»

«أظنُّ أن كتابه كان ذا دفوعٍ خاصة!»

قال جرانت: «بدا لي وأنا أقرؤه أقربَ إلى المنشورات الحزبية»، وأدرك للمرة الأولى أن هذا هو الأثر الذي خلَّفه كتابه في نفسه. لم يكن كسردِ رجلِ دولة، بل كان كمنشورٍ حزبي.

لا، كان مثل طريقة كاتب عمود صحفي. مِثل كاتب عمود صحفي ممَّن يستقُون معلوماتهم من مصادر غير موثوقة بالمرَّة.

«هل تعرف أيَّ شيء عن ريتشارد الثالث؟»

«لا شيء سوى أنه قتل ابنَي أخيه، وعرَض مُلكه مُقابل جواد. وأنه كان لديه جاسوسان يُعرَفان باسم القط والجُرَذ.»

«ماذا؟!»

«كما تعرف: «القط، والجُرَذ، ولوفل كلبنا، يحكمون إنجلترا بأَسرِها تحت ظلِّ خنزير».»

«أجل بالطبع. كنتُ قد نسيتُ ذلك البيت الشعري. ماذا يعني، أتعرف؟»

«لا، ليس لديَّ أدنى فكرة. لا أعرف تلك الفترة جيدًا. كيف أصبحت مهتمًّا بريتشارد الثالث؟»

«اقترحت عليَّ مارتا أن أُجريَ بعض الاستقصاء الأكاديمي؛ لأنني لا أستطيع أن أُجريَ أيَّ تحقيقٍ عملي لفترةٍ طويلة قادمة. ولأنني أجد الوجوه مُثيرةً للاهتمام، أحضَرَت لي صورًا

لكل الشخصيات الرئيسية. أقصد الشخصيات الرئيسية في الألغاز العديدة التي اقترحتها. وقد حصلت على صورة ريتشارد بالمُصادفة إلى حدٍّ ما، لكن تبيَّن أنه يُمثِّل أكبر لغز في المجموعة كلها.»

«حقًّا؟ من أي ناحية؟»

«إنه مُدبِّر الجريمة الأكثر إثارةً للاشمئزاز في التاريخ، ووجهه وجهُ قاضٍ عظيم؛ وهو رجل دولة بارز. عِلاوةً على ذلك، كان بإجماع الآراء مُثقفًا على نحوٍ غير عادي، ويعيش عيشًا كريمًا. كما كان بالمناسبة رجل دولة ناجحًا. حكَم شمال إنجلترا وفعل ذلك بامتياز. كما كان ضابط أركان ماهرًا، وجنديًّا وفيًّا. ولا يَعرِف أحدٌ أيَّ سلبيات عن حياته الخاصة. ولعلك تعرف أن أخاه كان، باستثناء تشارلز الثاني، أسوأ من أنجب نظامنا الملَكي.»

«إدوارد الرابع. أجل، أعرف. رجلٌ ضخم وسيم طولُه ست أقدام. ربما كان ريتشارد يُعاني من ضغينة يُكنُّها له بسبب التناقض بينهما. وذلك يُفسِّر رغبته واستعداده لمحو ذُرية أخيه.»

كان هذا شيئًا لم يَخطُر على بال جرانت.

«أتُلمِّح إلى أن ريتشارد كان يُكنُّ مشاعرَ كُرهٍ مكبوتة لأخيه؟»

«ولماذا مكبوتة؟»

«لأن حتى أسوأ مُنتقِديه يُقرُّون بأنه كان مُخلِصًا لإدوارد. كانا معًا في كل شيء منذ كان ريتشارد في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره. ولم يكن أخوهم الآخر ذا نفع لأي أحد. أعني جورج.»

«من كان جورج؟»

«دوق كلارينس.»

«أوه. ذاك! كلارينس برميل نبيذ مالمسي.»

«ذلك هو. إذَن لم يكن يُوجَد سوى هذين الاثنين، أقصد إدوارد وريتشارد. وكانت بينهما فجوةٌ عمرية تَبلُغ عشر سنوات. وهو الفرق العمري المناسب تمامًا لتقديس البطل.»

فقال الشابُّ كارادين بتأمُّل: «لو كنتُ أحدب، بالتأكيد كنتُ سأكره أخي الذي نسَب لنفسه الفضل وأخذ نِسائي ومنصبي المُفضَّل.»

ثم قال جرانت بعد صمت: «هذا مُحتمَل.» وتابع: «إنه أفضل تفسير صادفتُه حتى الآن.»

«ربما لم يكن ذلك الكُره صريحًا على الإطلاق، كما تعلم. ربما لم يكن شيئًا يُدرِكه هو نفسه. ربما تكون مشاعر الكُره قد أخذت تتنامى بداخله حين سنحت فرصةُ الحصول على

التاج. ربما قال، أقصد هنا أن مشاعر الكُره لدَيه جعلته يقول في نفسه: «ها هي فُرصتي! كل تلك السنوات التي قضيتها في خدمته وحمل أشيائه والوقوف خلفه بخطوةٍ دائمًا، ولم أتلقَّ شكرًا عليها. ها أنا أتلقَّى أجري. ها أنا أُصفِّي حساباتي».»

لاحَظ جرانت أن كارادين استخدم عن طريق الصُّدفة البحتة الوصفَ التخيُّلي نفسه الذي استخدمته الآنسة باين إليس. الوقوف خلفه بخطوة. هكذا رأته الروائية، واقفًا مع مارجريت الرقيقة الرصينة وجورج على درَج قلعة بينارد يُشاهدون أباهم وهو ينطلق إلى الحرب. كان مُتأخرًا في الخلف بخطوة، «كالعادة».

قال كارادين، وهو يُعدِّل بسبَّابته الطويلة بطريقته المعتادة إحدى ذِراعَي نظَّارته ذات الإطار السميك: «ومع ذلك فهذا مُثير جدًّا للاهتمام، ما تقوله حول كون ريتشارد من الصنف الجيد من البشر حتى وقت وقوع الجريمة.» واستطرد: «ذلك يجعله أقرب إلى كونه بشريًّا. تلك النسخة الشكسبيرية عنه، ليست سوى صورةٍ هزلية له. ليست بشرية على الإطلاق. سيكون من دواعي سروري أن أُجريَ أي استقصاء تُريد يا سيد جرانت. سيكون هذا تغييرًا لطيفًا لموضوع ثورة الفلاحين.»

«القطُّ والجُرَذ بدلًا من جون بول ووات تايلر.»

«بالضبط.»

«في الواقع هذا لُطفٌ كبير منك. سأكون سعيدًا بأي نتيجة لتنقيبك. لكن في الوقت الراهن، كل ما أتطلَّع إليه هو سردٌ مُعاصر للأحداث. إن هذه الأحداث لا بدَّ أنها كانت ذات تأثيرٍ على البلاد بأَسرِها. وأريد أن أقرأ سردًا مُعاصرًا لها. ليس ما سَمِعه أحدهم يُروى عن أحداثٍ وقعت حين كان في الخامسة من عمره، وفي ظلِّ عهدٍ مُغاير تمامًا.»

«سأتوصَّل إلى ذلك المُؤرِّخ المُعاصِر. ربما يكون فابيان. أم إنه هنري السابع؟ على أي حال، سأتوصَّل إليه. وفي تلك الأثناء، ربما ترغب في الاطلاع على كتاب أوليفانت. إنه بمثابة حُجَّة العصر الحديث عن تلك الفترة، أو هكذا أفهم.»

قال جرانت بأنه سيُسَرُّ بالاطلاع على كتابات السير كوثبرت.

«سآتيك بكتاباته حين أُعرِّج عليك غدًا؛ لا ضَير إن تركت كتاباته في المكتب من أجلك، حسبما أظن، أليس كذلك؟ وسأُوافيك بما توصَّلتُ إليه بمجرد أن أعرف بشأن الكُتاب المُعاصِرين. أهذا يُناسبك؟»

قال جرانت بأن هذا مِثالي.

فجأةً تملَّك الخجل من الشابِّ كارادين، فتذكَّر جرانت الحمَل المُزغب الذي كان قد نسيَ بشأنه في ظلِّ إقباله على هذا النهج الجديد في تناول ريتشارد. ثم ودَّعه كارادين في همود وتمنَّى له ليلةً طيبة، وخرج بخطواتٍ مُتثاقِلة من الغُرفة يتبعه ذيل مِعطفه الكبير الذي كان يُجرجِره خلفه.

فكَّر جرانت في أنه يبدو أن أتلانتا شيرجولد كانت في علاقةٍ جيدة، بصرف النظر عن ثروة كارادين.

الفصل الثامن

قالت مارتا حين أتَته مرةً ثانية: «حسنًا، ما رأيك في حمَلي المُزغب؟»

«كان في «غاية» اللُّطف منكِ أن تبحثي عنه لأجلي.»

«لم يكن يتعيَّن عليَّ البحث عنه. إنه موجود في الجوار دائمًا. بل إنه يعيش في المسرح حرفيًّا. لا بدَّ أنه رأى مسرحية «إلى البحر في وعاء» خمسمائة مرة؛ ذلك أنه يكون في مُقدِّمة الصفوف حين لا يكون في غُرفة ملابس أتلانتا. أتمنَّى لو تزوَّجا، حينها قد لا نراه إلا قليلًا. (إنهما حتى لا يعيشان معًا. إن قصتهما بريئة تمامًا).» ثم تخلَّت عن نبرة «المُمثلة» في صوتها لحظةً لتقول: «إنهما يبدوان لَطيفَين في الواقع. وبطريقةٍ ما هما أشبَهُ بتوءم أكثرَ من كونهما عاشِقَين. فبينهما ثقة لا تتزعزع؛ ذلك الاعتماد على النصف الآخر من أجل تحقيق كِيان مُتكامل. وهما لا يتنازعان أبدًا أو حتى يتشاجران، بحسب ما أرى. إنها علاقةٌ بريئة كما قلت. هل كان برينت هو من أحضر لك هذه؟»

ونكزت كتابات أوليفانت الضخمة المُصمَتة بإصبعها بتشكُّك.

«أجل، تركَها مع الحارس من أجلي.»

«تبدو عسيرةً على الاستيعاب.»

«لنقُل إنها غير جذَّابة بعض الشيء. من السهل استيعابها بمجرد أن يشرع المرء فيها. تاريخٌ مكتوب من أجل التلاميذ. وقائع مُفصَّلة منذ البداية.»

«يا لَلاشمئزاز!»

«على الأقل عرَفت من أين حصل السير توماس مور المُبجَّل والمُعظَّم على روايته عن ريتشارد.»

«حقًّا؟ من أين؟»

«من شخص يُدعى جون مورتون.»

«لم أسمع به قط.»

«ولا أنا، لكن هذا جهل منَّا.»

«من كان إذَن؟»

«كان رئيس أساقفة كانتربري في عهد هنري السابع. وألدُّ أعداء ريتشارد.»

لو كانت مارتا تستطيع الصفير، لصفَّرت تعليقًا على ذلك.

قالت: «كان «ذلك» إذَن مصدره الموثوق.»

«كان ذلك هو مصدره الموثوق. وقد بُنِيت كل الروايات اللاحقة عن ريتشارد على هذه الرواية. فمن تلك القصة أبدَعَ هولينشيد تأريخه، ومن تلك القصة رسم شكسبير شخصيته.»

«إذَن هي روايةُ شخصٍ كان يكره ريتشارد. لم أكُن أعرف ذلك. لماذا نقل السير توماس القديس عن مورتون وليس عن شخصٍ آخر؟»

«أيًّا كان الشخص الذي كان سينقل عنه، كانت ستُصبح رواية من منظورٍ تيودوري. لكن يبدو أنه نقل عن مورتون لأنه كان يعيش في منزله حين كان صبيًّا. وبالطبع كان مورتون «مُعايشًا» للأحداث كثيرًا؛ لذا كان من الطبيعي أن يكتب رواية شاهد عِيان يمكن له الحصول عليها منه مباشرةً.»

نكزَت مارتا كتابات أوليفانت بإصبعها مرةً أخرى. وقالت: «هل يُقرُّ مُؤرِّخك البدينُ المُملُّ أن هذه النسخة من الرواية مُتحامِلة ومُتحيِّزة؟»

«أوليفانت؟ تلميحًا فقط. وللأمانة، فإنه في حزن وتشوُّش بشأن ريتشارد. ففي الصفحة نفسها التي يقول فيها إنه كان إداريًّا وجنرالًا مُثيرًا للإعجاب، وذا سمعة طيبة ويتَّسم بالرزانة والفضيلة والشهرة الواسعة على عكس آل وودفيل المغرورين (أقارب الملكة)، يقول إنه كان «مُنعدِم الضمير مُجرَّدًا من المبادئ، وعلى استعداد لإراقة أي قدر من الدماء من أجل الوصول إلى التاج الذي صار في يده». وفي إحدى الصفحات يقول على مضض: «ثَمة أسباب تدعو لافتراض أنه لم يكن مُنعدِم الضمير»، ثم في صفحةٍ بعدها ينقل الصورة التي رسمها مور عن رجلٍ مُعذَّب بأفعاله لدرجة أن النوم يُجافيه. وهكذا.»

«هل يُفضِّل أوليفانت البدين المُملُّ وُروده الحمراء إذَن؟»

«أوه، لا أظن ذلك. لا أظن أنه مُؤيِّد لآل لانكستر بوعي منه. رغم أنني أرى الآن بعد إعادة تفكير أنه مُتسامح جدًّا مع استيلاء هنري على العرش. لا أتذكَّر أنه ذكر بقسوةٍ في أي موضع من الكتاب أن هنري لم يكن له أدنى حقٍّ في مُطالبته بالعرش.»

«من وضعه على العرش إذَن؟ أقصد هنري.»

«بقية آل لانكستر وآل وودفيل المغرورين، يدعمهم، حسب ظنِّي، بلدٌ ثائر لَمقتل الصبيَّين. من الواضح أن أيَّ شخص يحمل ذرةً من دم آل لانكستر في عروقه كان سيفعل ذلك. كان هنري نفسه حاذقًا بما يكفي ليتذرَّع في مُطالبته بالعرش بـ «الغزو» في المرتبة الأولى، ودماء آل لانكستر التي تجري في عروقه في المرتبة الثانية. De jure belli et de jure Lancastriae «بموجب حق الحرب وحق آل لانكستر». كانت أمُّه الوريثة لابنٍ غير شرعي للابن الثالث لإدوارد الثالث.»

«كل ما أعرفه عن هنري السابع أنه كان فاحِشَ الثراء وشديدَ البخل. أتعرف قصة كيبلينج الرائعة عن مَنحِه رُتبةَ نبيل لأحد الحِرفيين؛ ليس لأنه أدَّى له عملًا رائعًا، وإنما لأنه وفَّر عليه تكلفة بعض أعمال الزخرفة؟»

«فعلها بسيفٍ صدِئٍ من خلف ستارة مُزركَشة. لا بدَّ أنكِ واحدة من النساء القليلات اللواتي يعرفن كيبلينج.»

«أوه، أنا امرأةٌ استثنائية للغاية من نواحٍ شتَّى. إذَن أنت لم تقترب من اكتشاف شخصية ريتشارد أكثر ممَّا كنت؟»

«لا. أنا مُتحيِّر تمامًا مِثل السير كوثبرت أوليفانت، بارَكه الرب. الفارق الوحيد بيننا أنني أعرف أنني مُتحير بينما لا يبدو عليه أنه مُدرِك لحيرته.»

«هل رأيت حمَلي المُزغب كثيرًا؟»

«لم أرَه منذ زيارته الأولى، وكانت منذ ثلاثة أيام. بدأتُ أتساءل إن كان قد ندم على الوعد الذي قطعه.»

«أوه، لا. أنا واثقة من أنه ليس ذلك. فالإخلاص عقيدته ولواؤه.»

«مثل ريتشارد.»

«ريتشارد؟»

«كان شعاره بالفرنسية: Loyaulté me lie. أي الولاء لوائي.»

جاء صوتُ طَرقٍ مُتردِّد على الباب، واستجابةً لدعوة جرانت، دخل برينت كارادين بمِعطفه الواسع كالعادة.

«أوه! يبدو أنني جئتُ في وقتٍ غير مناسب. لم أكُن أعلم أنكِ هنا يا آنسة هالارد. قابلت «تمثال الحرية» في الممرِّ هناك، وكانت تظنُّ أنكَ وحدك يا سيد جرانت.»

عرَف جرانت المقصودة بتمثال الحرية من دون صعوبة. وقالت مارتا إنها على وَشْك الذهاب، وإن برينت على أي حال يُعَدُّ زائرًا يُحتفى به أكثر مما هي عليه في هذه الآونة. وإنها ستُغادرهم في سلام من أجل أن يُكمِلا بحثهما عن روح القاتل.

وحين انحنى لها برينت صوب الباب في أدب تحيَّةً لها، عاد وجلس على كُرسي الزائر بالطريقة نفسها التي يتصرَّف بها رجلٌ إنجليزي حين يجلس إلى شرابه بعد أن تُغادِر النساء الطاولة. وتساءل جرانت في نفسه إن كان حتى ذلك الأمريكي الذي تُسيطِر عليه امرأةٌ يشعر بارتياح لا واعٍ عند جلوسه في مجلسٍ يخلو من النساء. إجابةً على تساؤل برينت بخصوص مدى ما كان يُحقِّقه جرانت من تقدُّم مع أوليفانت، قال جرانت إنه وجد السير كوثبرت سهل الفَهم على نحوٍ مُثير للإعجاب.

«لقد اكتشفتُ بالصدفة هُويَّة القط والجُرَذ. كانا فارسَين يَحظيان باحترامٍ كبير في البلاد بأَسْرها؛ ويليام كاتسبي وريتشارد راتكليف. كان كاتسبي رئيس مجلس العموم، وكان راتكليف أحد مبعوثي السلام مع اسكتلندا. من الغريب كيف أنَّ لحن الكلمات يجعل أغنيةً سياسية مُقفَّاة خبيثة. كان الخنزير بالطبع هو علامة ريتشارد. الخنزير الأبيض. هل تتردَّد على حاناتنا الإنجليزية؟»

«بالتأكيد. أظنُّ أن هذه واحدةٌ من الأشياء التي تتفوَّقون فيها علينا.»

«اغفر لنا سوء حالة أنابيب المياه من أجل الجِعة في حانة ذا بور.»

«ما كنت لأصل إلى حدِّ القول بأنني أغفر ذلك. لِنَقل إنني سأغضُّ الطرف عنها.»

«هذا من كريم طبعك. حسنًا، ثَمة شيءٌ آخر عليك أن تغضَّ الطرف عنه. نظريَّتك تلك عن أن ريتشارد كان يكره أخاه بسبب التباين بين وسامته وظهرِ ريتشارد الأحدب. فمسألة أنه كان أحدبَ خُرافة، طبقًا للسير كوثبرت. وأيضًا مسألة الذراع الضامرة. يبدو أنه لم يكن يُعاني من تشوُّهٍ ظاهر. لا شيء ذو أهمية على الأقل. كانت كتفه اليسرى مُنخفضًا عن كتفه اليمنى، هذا كل شيء. هل توصَّلتَ إلى المؤرِّخ المُعاصر؟»

«لا يُوجَد مُؤرِّخ مُعاصر.»

«على الإطلاق؟»

«ليس بالمعنى الذي تقصده. كان يُوجَد كُتَّاب مُعاصرون لريتشارد، لكنهم كتبوا بعد وفاته. من أجل آل تيودور. مما يُبعِدهم عن الساحة. يُوجَد تأريخ للوقائع على يد راهب، مكتوب باللاتينية في مكانٍ ما ويُعَدُّ مُعاصرًا، لكنني لم أتمكَّن من الحصول عليه بعد. لكنني اكتشفتُ شيئًا ما؛ وهو أن الرواية عن ريتشارد الثالث منسوبة للسير توماس مور

ليس لأنه كتبَها، بل لأن المخطوطة وُجِدت بين أوراقه. كانت نسخةً غير مُنتهية لروايةٍ تظهر في مكانٍ آخر بشكلها النهائي.»

أخذ جرانت يُفكِّر في هذا باهتمام وقال: «عجبًا!» وتابَع: «أتقصد أنها كانت نسخةَ المخطوطة الخاصَّة بمور؟»

«أجل. بخطِّ يده هو. كُتِبت حين كان في الخامسة والثلاثين من عمره. في تلك الأثناء، قبل أن تكون الطباعة اختراعًا شائعًا، كان نَسخُ مخطوطات من الكتب هو الشيء المُعتاد.»

«أجل. إذَن إن أتتِ المعلومات من جون مورتون، وهذا صحيح بالفعل، فمن المُرجَّح بالمِثل أنَّ من كتبَ الرواية هو مورتون.»

«أجل.»

«الأمر الذي يُفسِّر بالطبع الافتقار إلى المنطق. ما كان شخصٌ مُتسلق مِثل مورتون سيَخجل على الإطلاق من نقل شائعات الخدم. أتعرف شيئًا عن مورتون؟»

«لا.»

«كان مُحاميًا تحوَّل إلى رجل كنيسة، وهو أحد أكبر المُدافِعين عن التعدُّديَّة في التاريخ المُسجَّل. اختار جانب آل لانكستر، وظلَّ إلى جوارهم حتى كان من الواضح أن إدوارد الرابع قد عاد إلى البلاد مُنتصِرًا. عندئذٍ تصالَح مع آل يورك وعيَّنه إدوارد في منصب أسقف إيلي. والربُّ وحدَه يعلم عدد الأبرشيات التي تولَّاها إلى جانب ذلك. لكن بعد جلوس ريتشارد على العرش دعم آل وودفيل أولًا، ثم هنري تيودور بعد ذلك، وانتهى به المطاف مُرتديًا قبعة كاردينال بصفته أسقف هنري السابع على ...»

فقال الفتى بابتهاج: «مهلًا!» وأردف: «بالطبع أعرف مورتون. كان هو مورتون صاحب «شوكة مورتون». «لا يُمكن أن تكون تُنفق الكثير من المال؛ لذا ما رأيك في أن تُعطيَنا شيئًا لأجل الملك؛ أو أنت تنفق الكثير من المال، لا بد أنك ثري؛ لذا ما رأيك في أن تُعطيَنا شيئًا لأجل الملك؟»»

«أجل. هو مورتون ذلك. أفضل أداة تعذيب لدى هنري. وقد فكَّرت للتوِّ في سبب حمله لضغينةٍ شخصية تجاه ريتشارد قبل مَقتل الصبيَّين بوقتٍ طويل.»

«وما هو؟»

«أخذ إدوارد رشوةً كبيرة من لويس الحادي عشر لعقد سلام شائن مع فرنسا. كان ريتشارد حانقًا للغاية من ذلك — كان أمرًا شائنًا حقًّا — فنفض يده عن الأمر. وتضمَّن ذلك رفض عرض بمبلغٍ كبير من المال. لكن مورتون كان يُؤيِّد كلًّا من الصفقة والمَبلغ

المالي. وبالفعل أخذ منحةً مُنتظمة من لويس. كانت منحةً كبيرة جدًّا. ألْفَا جنيهٍ ذهبي في العام. ولا أظنُّ أن تعليقات ريتشارد العلنية تراجعت كثيرًا، حتى مع الرشوة الكبيرة التي حصل عليها صائد الذهب.»

«لا. لا أظن ذلك.»

«وبالطبع ما كان مورتون ليَحصُل على ترقيةٍ في ظلِّ حُكم ريتشارد الصارم مِثلما نال في ظلِّ حُكم إدوارد الليِّن العريكة. لذا كان سيأخذ جانب آل وودفيل، حتى ولو لم تَحدُث جريمةُ قتل.»

فقال الفتى: «بشأن تلك الجريمة ...»، ثم صمت.

«ماذا عنها؟»

«بشأن جريمة قتل هذَين الصبيَّين، أليس من الغريب أن لا أحد يتحدَّث عنها؟»

«ماذا تقصد بقولك: لا أحد يتحدث عنها؟»

«في الأيام الثلاثة الماضية كنتُ أتصفَّح أوراقًا بحثيةً مُعاصرة؛ خطابات وما إلى ذلك. ولا أحد يَذكُرها على الإطلاق.»

«ربما كانوا خائفين من فعل ذلك. كان من الحكمة في ذلك الوقت أن يحترز المرء.»

«أجل، لكن هذا يُخبِرك بشيءٍ أكثر غرابة. أنت تعرف أن هنري طرح مشروع قانون بإدانة ريتشارد، بعد معركة بوسوورث. أقصد أمام البرلمان. في الواقع، كان يَتَّهم ريتشارد بالوحشية والطغيان لكنه لم يأتِ حتى على ذكر جريمة القتل.»

قال جرانت مذهولًا: «ماذا؟!»

«أجل، يحقُّ لك أن تُذهَل من ذلك.»

«هل أنت واثقٌ من هذا؟»

«واثق تمامًا.»

«لكن هنري استولى على البُرج فور وصوله إلى لندن بعد معركة بوسوورث. وإن كان الصبيَّان قد فُقِدا فمن غير المُصدَّق ألا يُذيع الخبر على الفور. كان هذا ورقةً رابحة في جُعبته.» ثم استلقى جرانت برهةً في صمتٍ ممزوج بالدهشة، وأخذت العصافير تتشاجر بصوتٍ عالٍ على عتبة النافذة. ثم قال: «لا أستطيع أن أفهم الأمر.» وتابَع: «ما التفسير المُحتمَل لعدم مُطالبته بالإعدام استنادًا إلى حقيقة أنَّ الصبيَّين كانا مفقودَين؟»

عدَّل برينت ساقَيه الطويلتين إلى وضعٍ مُريح أكثر. وقال: «يُوجَد تفسيرٌ واحد فقط.» واستطرد: «وهو أن الصبيَّين لم يكونا مفقودَين.»

ساد الصمت فترةً أطول هذه المرة، فيما راح يُحدِّق كلٌّ منهما في الآخر.

فقال جرانت: «أوه، لا، هذا غير منطقي.» وأضاف: «لا بد من وجودِ تفسيرٍ واضح لا نستطيع رؤيته.»

«مثل ماذا على سبيل المثال؟»

«لا أعرف. لم أحظَ بوقتٍ لأُفكِّر.»

«كان لديَّ ثلاثة أيام تقريبًا لأُفكِّر في الأمر، ولم أتوصَّل بعدُ إلى سببٍ مُناسب. «لا شيء» سيتناسب مع الوقائع عدا استنتاج أن الصبيَّين كانا على قيد الحياة حين استولى هنري على البرج. كان قانون الإدانة مُجرَّدًا من الضمير تمامًا؛ وُجِّه فيه الاتهام إلى أتباع ريتشارد، الأتباع الأوفياء لملك مُكرَّس يُقاتلون الغُزاة، بالخيانة. لقد تضمَّن ذلك القانون كلَّ اتهامٍ يمكن لهنري أن يُوجِّهه إلى ريتشارد. وكان أسوأ ما يُمكن أن يُتَّهم به ريتشارد هو الوحشيةَ والطغيان المعروفَين عنه. لم يُؤتَ حتى على ذِكر الصبيَّين.»

«هذا مُذهِل.»

«إنه لا يُصدَّق. لكنه حقيقةٌ واقعة.»

«ما يعنيه هذا أنه لم يكن يُوجَد «أي اتهام مُعاصر» على الإطلاق.»

«هذا صحيح تقريبًا.»

«لكن، مهلًا. شُنِق تيريل بتُهمة ارتكاب جريمة القتل. لقد اعترف بذلك قبل إعدامه. مهلًا.» ثم مدَّ يده إلى كتاب أوليفانت وراح يُقلِّب الصفحات بسرعة بحثًا عن الموضع. وتابع: «يُوجَد سردٌ مُفصَّل عن هذا في موضعٍ ما. لم يكن ثَمة لغز في الأمر. حتى «تمثال الحرية» كانت تعرف بهذا الأمر.»

«من؟»

«المُمرِّضة التي التقيتَ بها في المَمر. كان تيريل هو من ارتكب جريمة القتل، وثبتت عليه التُّهمة واعترف بها قبل إعدامه.»

«أكان هذا حين استولى هنري على لندن إذَن؟»

«مهلًا. ها هي.» ثُم أخذ يقرأ الفقرة سريعًا. وأردف: «لا، كان ذلك في عام ١٥٠٢.» ثم انتبه فجأةً إلى ما قاله للتوِّ، فكرَّر جُملته بنبرة تنمُّ عن الارتباك والحَيرة: «في عام ... ١٥٠٢.»

«لكن ... لكن ... لكن ذلك كان ...»

«أجل. بعدما يَقرُب من عشرين عامًا.»

أخذ برينت يتحسَّس جيوبه بحثًا عن علبة سجائره، وأخرجها ثم بسرعةٍ وضعها جانبًا مرةً أُخرى.

فقال جرانت: «يُمكنك التدخين إذا أردت.» وأضاف: «أما أنا فبحاجة إلى شرابٍ قوي. لا أظنُّ أنَّ عقلي يعمل بكفاءة. أشعُر بنفس ما كنت أشعر به وأنا طفلٌ حين كنتُ معصوب العينَين وأجول في الأرجاء ونحن نلعب لعبة الغُمَّيضة.»

قال كارادين: «أجل». ثم أخرج سيجارةً وأشعلها. وتابع قائلًا: «تشعر بأنك في ظلامٍ دامس، وبأنك مُشوَّش الذهن جدًّا.»

وراح يُحدِّق في العصافير.

قال جرانت بعد بُرهة: «لا يمكن لكُتبٍ مدرسية يَبلُغ عددها أربعين مليونًا أن تكون مُخطئة.»

«ألا يمكن أن تكون مُخطئة؟»

«أيمكن ذلك؟!»

«كنتُ أظنُّ أن ذلك ليس مُمكنًا، لكنني لستُ واثقًا تمامًا في هذه الآونة.»

«ألستَ مُتعجِّلًا قليلًا في تشكُّكك؟»

«أوه، لم يكن هذا ما جعلني أتشكَّك.»

«ماذا كان إذَن؟»

«مسألةٌ صغيرة تُدعى مذبحة بوسطن. هل سمعتَ بها من قبل؟»

«بالطبع.»

«حسنًا، اكتشفتُ بالصدفة البحتة، حين كنتُ أبحث عن شيء في الكلية، أن مذبحة بوسطن كانت تتألَّف من مجموعة من الغوغاء الذين كانوا يُلقون بالحجارة على أحد الحُرَّاس. كان مجموع الضحايا أربعة قتلى. لقد تربَّيتُ على تصديق مذبحة بوسطن يا سيد جرانت. صدري الذي يَبلُغ عرضه ثمانية وعشرين إنشًا كان يتنشَّق الهواء ملء رئتيَّ على هذه الذكرى. دمي الأحمر المُفعَم بالبُغض كان يغلي من فكرة سقوط مدنيِّين عُزَّل تحت وطأة نيران القوات البريطانية. لا يمكنك أن تتخيَّل كم كان صادمًا لي أن أجد أن خُلاصة الأمر في الواقع أنها كانت مُشاجرةً لم تكن لتستحقَّ أكثر من تقريرٍ محلي لو كانت صدامًا بين الشرطة ومُضرِبين عن العمل في أي إضراب أمريكي.»

وإذ لم يُبدِ جرانت ردًّا على ذلك، حوَّل برينت عينَيه بعيدًا عن الضوء ليرى كيف كان ردُّ فعل جرانت على حديثه. لكن جرانت كان يُحدِّق في السقف كما لو كان يُشاهد أنماطًا تتشكل عليه.

فتطوَّع كارادين بتكملة حديثه قائلًا: «لهذا السبب راقَ لي إجراء الأبحاث كثيرًا.» ثم أرجع ظهره مُستقرًّا في جِلسته مُحدِّقًا في العصافير.

بعد بُرهة مدَّ جرانت يده من دون أن ينطق بكلمةٍ واحدة، فأعطاه كارادين سيجارةً وأشعلها له.

أخذا يُدخِّنان في صمت.

وكان جرانت هو من قاطَع زقزقة العصافير.

قال: «تونيباندي.»

«ما هذا؟»

لكن جرانت كان لا يزال شاردًا.

ثم قال: «في نهاية المطاف، رأيتُ فعلًا أمرًا كهذا أثناء العمل في شبابي»، مُوجِّهًا حديثه إلى السقف وليس إلى كارادين. وأضاف: «إنه تونيباندي.»

فسأله برينت: «وماذا يكون تونيباندي هذا بحقِّ السماء؟» وأردف: «يبدو لي كعقارٍ مُسجَّل. هل طفلك عَكِر المزاج؟ هل يتورَّد وجهه الصغير، وينفعل بسرعة، وتُنهَك أطرافه بسهولة؟ أعطِ الصغيرَ قُرص تونيباندي، وشاهِدْ نتائجه المُذهِلة.» ثم حين لم يَجِدْ جوابًا من جرانت، قال: «لا بأس إذَن؛ احتفِظ بتونيباندي الخاص بك. ما كنتُ لآخُذه هدية.»

فقال جرانت، بنفس نبرته شِبه النائمة: «تونيباندي مكانٌ في جنوب ويلز.»

«أحسستُ أنه عقارٌ ما.»

«إن ذهبتَ إلى جنوب ويلز، ستسمع أنه في عام ١٩١٠ استخدمت الحكومة القوات لإرداء عُمَّال المناجم الويلزيين الذين كانوا يُضرِبون من أجل حقوقهم. وستسمع على الأرجح أن وينستون تشرشل، الذي كان يشغل منصب وزير الداخلية حينها، كان مسئولًا. سيُخبرونك هناك أن جنوب ويلز لن تنسى تونيباندي أبدًا!»

تخلَّى كارادين عن نبرة الوقاحة التي كان يتكلَّم بها.

وقال: «أكان الأمر مُشابهًا لذلك؟»

«الوقائع الفعلية هي كالآتي. كان القِسم الأكثر خشونةً من حشد وادي روندا قد خرج عن السيطرة إلى حدٍّ كبير. كانت المتاجر تتعرض للنهب والممتلكات للتخريب. فأرسل رئيس شرطة جلامورجان إلى وزارة الداخلية يطلب قوات الجيش لحماية المُوالِين لهم. إذا ظنَّ رئيس الشرطة أن الموقف خطير لدرجةِ طلب المساعدة من الجيش، فعندئذٍ تكون الخيارات أمام وزير الداخلية محدودة جدًّا في المسألة. لكن تشرشل كان يشعر بالهلع من

احتمال أن تُواجِه قوات الجيش حشودَ مُثيري الشغب وتُضطر إلى إطلاق النار عليهم، حتى إنه أوقف حركة القوات وأرسل بدلًا منها قوة شرطة خالصة ومُتمرِّسة من شرطة العاصمة، ولم يكن هؤلاء مُسلَّحين بشيء إلا معاطفهم الواقية من المطر المرفوعة الأكمام. ظلَّت قوات الجيش بوصفها قواتٍ احتياطية، وكان الاحتكاك مع مُثيري الشغب يَحدُث كله من قِبَل رجال شرطة لندن غير المُسلَّحين. كان الدم المُراق الوحيد في الحادثة بأَسرِها دمًا سالَ من أنفِ واحد أو اثنين. وُجِّه عرَضًا انتقادٌ حادٌّ وشديد اللهجة إلى وزير الداخلية في مجلس العموم بدعوى «تدخُّله غير المسبوق». كانت تلك هي حادثة تونيباندي. تلك هي حادثة إطلاق النار على يد القوات، والتي لن تنساها ويلز أبدًا.»

قال كارادين وهو يُفكِّر: «أجل.» وأردف: «أجل. الأمر مُماثل تقريبًا لمسألة بوسطن. شخصٌ ما يُحوِّل مسألةً بسيطة إلى حدثٍ ضخم من أجل أهداف سياسية.»

«ليست النقطة الأساسية هنا أن الحدثَين مُتماثلان. النقطة الأساسية أن «كل شخص» كان موجودًا هناك يعلم أن القصة هُراء، ومع ذلك لم يَحدُث مُطلَقًا أنْ عارَضها أحد. ولن تُتدارك أبدًا في الوقت الحالي. إنها قصةٌ غير حقيقية تمامًا ارتقت إلى منزلة الأسطورة، في حين أن الرجل الذي كان يعرف أنها غير حقيقية اكتفى بالمشاهدة ولم يقُل شيئًا.»

«أجل. ذلك أمرٌ مُثير للاهتمام جدًّا. التاريخ حين يُصنَع.»

«أجل. التاريخ.»

«لنَسلُك النهج البحثي. ففي نهاية المطاف، لا تَكمُن حقيقة أي شيء على الإطلاق في سرد أحدهم عنه. إنما تَكمُن في الوقائع الصغيرة في ذلك الوقت. إعلان في صحيفة. بيع لأحد المنازل. سعر أحد الخواتم.»

تابَع جرانت تحديقه في السقف، وعاد صخب العصافير إلى الحجرة.

قال جرانت، بعدما أدار رأسه أخيرًا محاولًا فهم تعبير وجه زائره: «ما الذي يُبهجك؟»

«هذه هي المرة الأولى التي أراك تبدو فيها رجل شرطة.»

«أنا أشعر كرَجلِ شرطة. وأُفكِّر كرَجلِ شرطة. وأطرح على نفسي السؤال الذي يطرحه كل رجل شرطة على نفسه في كل واقعةِ قتل: من المُستفيد؟ وللمرة الأولى يَخطُر ببالي أن النظرية السطحية القائلة بأن ريتشارد تخلَّص من الصبيَّين ليُصبح في وضعٍ أكثر أمنًا على العرش هي محض هراء. لنفترض أنه تخلَّص من الصبيَّين. كان لا يزال يُوجَد أخوات الصبيَّين الخمسة بينه وبين العرش. ناهيك عن ذِكر ولدَي جورج؛ الصبي والفتاة. حُظِر ابن جورج وابنته جرَّاء فقدان أهلية والدهما، لكن ما أفهمه أن فُقدان الأهلية يُمكن أن

يُعكَس، أو يُلغى، أو شيء من هذا القبيل. وإن كانت مُطالبة ريتشارد بالعرش هشَّة، فإن كل أولئك الأشخاص كانوا يَحولون بينه وبين تأمين نفسه على العرش.»

«وهل بقوا جميعًا على قيد الحياة؟»

«لا أعرف. لكنني سأهتمُّ بمعرفة ذلك. لا شكَّ في أن الأخت الكبرى للصبيَّين بقيَت على قيد الحياة؛ لأنها أصبحت ملكة إنجلترا بصفتها زوجة هنري.»

«انظر يا سيد جرانت، لنَعُد أنا وأنت إلى بداية الأمر. من دون كتب تاريخ أو روايات حديثة أو رأيِ أيٍّ أحد عن أي شيء. الحقيقة ليست في الروايات، وإنما في دفاتر الحسابات.»

قال جرانت مُجاملًا إيَّاه: «هذه عبارةٌ مُنمَّقة.» وتابَع يسأله: «هل تعني شيئًا؟»

«إنها تعني كل شيء. التاريخ الحقيقي مكتوب بأشكالٍ لا يُقصد بها أن تتَّخذ شكل التاريخ. إنه مكتوب في حسابات الخِزانة، ونفقات المخصصات الملكية، وفي الخطابات الشخصية، والسجلَّات العقارية. إنْ أصرَّ أحدٌ ما، مثلًا، أن الليدي ووسيت لم تلِد طفلًا قط، ووجدتَ في دفتر الحسابات مُدخلًا باسم: «من أجل الابن الذي وُلِد لزوجتي عشيةَ عيد القدِّيس ميخائيل: خمس ياردات من شريطٍ أزرق، بأربعة بنساتٍ ونصف البنس»، فمن المقبول منطقيًّا أن تستنتج أن زوجتي رُزقت بمولودٍ عشية عيد القدِّيس ميخائيل.»

«أجل. فهمت. حسنًا، من أين نبدأ؟»

«أنت المُحقِّق. ما أنا إلا باحث.»

«أخصائي أبحاث.»

«شكرًا لك. ماذا تريد أن تعرف؟»

«حسنًا، بدايةً سيكون مُفيدًا، ناهيك عن كونه وجيهًا، أن نعرف كيف تعامل الأشخاص الرئيسيون المَعنيُّون بالمسألة مع وفاة إدوارد. أقصد إدوارد الرابع. لقد كان موته غير مُتوقَّع، ولا بد أنه فاجأ الجميع. أريد أن أعرف كيف كانت ردةُ فعل الأشخاص المَعنيِّين.»

«ذلك سهل ومباشر. أتصوَّر أنك تقصد ما فعلوه وليس ما ظنُّوه.»

«أجل، بالطبع.»

«المؤرخون فقط هم من يقولون لك ما ظنوه. أما الباحثون فيتمسَّكون بما فعلوه.»

«ما فعلوه هو كل ما أريد معرفته. فأنا دائمًا ما أُومِن بالمَثل القديم الذي يقول بأن الأفعال أبلَغُ من الأقوال.»

«بالمناسبة، ما الذي يقول السير توماس القديس إن ريتشارد فعله حين سمع بأن أخاه قد مات؟» أراد برينت أن يعرف ذلك.

«السير توماس المُعظَّم (واسمه الحركي جون مورتون) يقول إن ريتشارد انشغل بمحاولة فتنة الملكة وإقناعها بألا تُرسِل مجموعةَ حراسةٍ كبيرة لمرافقة الأمير الصبي من لودلو؛ وفي تلك الأثناء كان يُعِد مكيدةً لاختطاف الصبي في طريقه إلى لندن.»

«إذَن، طبقًا لكلام مور المُعظَّم، كان ريتشارد ينوي منذ البداية أن يحلَّ محلَّ الصبي.»

«أوه، أجل.»

«حسنًا، على الأقل سنكتشف عما قريب من كان أين، وماذا كان يفعل، سواء كنَّا نستطيع أن نستنتج نيَّاتهم أم لا.»

«هذا هو ما أريد. بالضبط.»

فقال الفتى بسخرية: «شرطي!» وتابَع: «أين كنتَ في تمام الخامسة مساء يوم الخامس عشر من الشهر الجاري؟»

فقال جرانت مُطَمئنًا إيَّاه: «هذه الطريقة تُفلِح.» وكرَّر: «هذه الطريقة تُفلِح.»

«حسنًا، سأنصرف أنا أيضًا إلى العمل. وسأُعرِّج عليك مرةً أخرى بمجرد أن أحصل على المعلومات التي تريدها. أنا مُمتنٌّ لك كثيرًا يا سيد جرانت. هذا أفضل بكثير من موضوع الفلاحين.»

ابتعدَ الفتى مُختفيًا في الغيام المُتجمِّع في ظهيرة اليوم الشتوي، وكان مِعطفه الذي يُشبِه ذيل الثوب يُضفي طابعًا وجلالًا أكاديميًّا على جسده النحيل اليافع.

أضاء جرانت مصباحه، وراح يتفحَّص الأنماط التي عكسَتها الإضاءة على السقف كأنه لم يرَها من قبل.

كانت مسألةً فريدة ومُمتعةً أنه صادَف الفتى عرَضًا دون أي جهد منه. كان الأمر غير مُتوقَّع بقدرِ ما كان مُحيِّرًا.

ما السبب المُحتمل الذي يمكن أن يُفسِّر ذلك الافتقار إلى وجود اتِّهام من قِبل المُعاصرين؟

لم يكن هنري حتى في حاجة إلى دليل على أن ريتشارد كان هو نفسه المسئول. كان الصبيَّان تحت رعاية ريتشارد. وإن لم يُعثَر عليهما عندما استُولي على البرج، فعندئذٍ كان ذلك سيُصبح أفضل وأجدى لتلطيخ سمعة غريمه الميت من اتهامات الوحشية والطغيان المُبتذَلة.

تناول جرانت طعامه دون أن يعيَ ولو للحظةٍ واحدة مذاقَه أو طبيعته.

ولم يدرك أنه تناوَل الطعام إلا حين قالت «الأمازونية» بلُطف وهي تُبعد الصينية: «لا أُصدِّق، تلك إشارةٌ طيبة. لقد تناولت إصبعَي الكفتة عن آخرهما!»

طوال ساعة أُخرى، راقَب نمط إضاءة المصباح على السقف وهو يستعرض المسألة في ذهنه، فأخذ يتفقَّدها ويتفقَّدها من كل الزوايا بحثًا عن صدعٍ صغير قد يُشير إلى سبيلٍ يؤدِّي به إلى لُبِّها.

في النهاية صرفَ انتباهه تمامًا عن المشكلة، وهو ما كان من عادته حين يتبيَّن له أن لُغزًا ما كان مُعقَّدًا ومُتملِّصًا ومُحكَمًا على نحوٍ يفوق قُدرته على إيجاد حل فوري له. إنْ نام ليلته مؤجِّلًا التفكير في المسألة، فقد يتبيَّن له في الغد أحد الأوجُه التي غفل عنها.

بحث عن شيءٍ يمكن أن يمنع ذهنه من العودة إلى قانون الإدانة ذاك، فرأى كومة الخطابات في انتظار أن يتسلَّمها. كانت خطاباتٍ لطيفةً بتمنِّيات بالصحة والعافية من كل صنوف الناس، ومنهم قلة من الأشخاص الذين سُجِنوا مرَّاتٍ عديدة. كان السُّجناء السابقون المُحبَّبون نوعًا عفا عليه الزمن، وكانوا يتناقصون أكثر فأكثر كل يوم. أخذ مكانَهم مُجرمون يافعون مُتهوِّرون لا يتمتَّعون بأي قدر من الإنسانية في نفوسهم المُتمحوِرة حول ذواتهم، وجُهَّال كجِراء الكلاب، وعديمو الرحمة مِثل مِنشار دائري. كان اللصوص القُدامى المُحترفون ميَّالين لأن يعملوا مُنفرِدين شأنَ أعضاء أي مهنة أخرى، وكانوا أقلَّ شرًّا. كانوا رجالًا هادئين صغار الحجم يُفضِّلون الحياة الأسرية، ويهتمُّون بالإجازات الأُسرية وبصحة أطفالهم؛ أو عُزابًا غريبي الأطوار مُتفرِّغين لطيور الزينة، أو متاجر الكتب المُستعمَلة، أو أنظمة الرهانات المُعقَّدة التي لا تُخطئ. كانوا أنواعًا عتيقة الطِّراز.

ما كان أحد المجرمين المُعاصرين ليكتب خطابًا يقول في إنه يتأسف لتوقُّف أحد رجال الشرطة عن العمل مُؤقَّتًا. ما كانت مِثل هذه الفكرة لتخطر ببالِ مُجرمٍ حديث قط.

أن يكتب المرءُ خطابًا وهو راقد على ظهره هو عملٌ شاقٌّ، وتهرَّب جرانت من ذلك. لكنَّ الظرف في أعلى الكومة كان بخطِّ يد قريبته لورا، وستُصاب لورا بالقلق إن لم تتلقَّ جوابًا منه. كان هو ولورا يُمضِيان عُطلة فصل الصيف معًا حين كانا صغارًا، وكانا مُتحابَّين قليلًا أثناء أحد فصول الصيف التي أمضياها في هايلاند؛ مما ربطهما برباط لم ينقطع قط. كان حريًّا به أن يُرسِل إلى لورا رسالةً قصيرة يُخبرها فيها أنه على قيد الحياة.

قرأ جرانت خطابها مرةً أخرى وهو مُبتسمٌ بعض الشيء، وأخذ صوت ماء بحيرة تورلي يتردَّد في أُذنَيه، وينساب مَشهده تحت عينَيه، وكان بمقدوره أن يَشْتمَّ الرائحة

الطيِّبة الباردة لنباتات الخَلَنج في هايلاند في فصل الشتاء، ونسيَ لبرهةٍ أنه مريض في المستشفى، وأن الحياة بائسة ومُملَّة وخانقة.

يُرسِل بات ما من شأنه أن يكون عاطفةً عميقة لو أنه كان أكبر في العمر بعض الشيء أو أصغر. إذ يقول، كونه في التاسعة من عمره: «أخبري آلان أنني سألتُ عنه»، وأن صنارة صيد من اختراعه تنتظره ليُقدِّمها له حين يأتيهم في إجازةٍ مرضيَّة. إنه يشعر بقليل من الخزي الآن في المدرسة، بعد أن عَلِم أن الاسكتلنديين تخلَّوا عن تشارلز الأول حين قرَّروا أنه لم يعُد ينتمي إلى هذه الأمة. لذا فهو، حسبما فهمت، يقوم بإضرابٍ احتجاجي قوامه رجلٌ واحد ضد كل الأشياء الاسكتلندية، ولن يتعلَّم التاريخ، ولن يُغنِّيَ أي أغنية، ولن يَدرُس أي جغرافيا مُتعلقة بهذا البلد البائس. وحين كان في طريقه ليَخلد إلى الفِراش ليلة أمس، أعلن بات أنه قرَّر أنه سيتقدَّم بطلب للحصول على الجنسية النرويجية.

أمسك جرانت بورق الرسائل من فوق الطاولة وكتب بقلم رَصاص:

عزيزتي لورا

هل ستتفاجئين بشِدَّة إن علِمتِ أن أميرَي البُرج نجَوَا من ريتشارد الثالث؟

كعهدي دائمًا

آلان

ملحوظة: كدتُ أتعافى تمامًا.

الفصل التاسع

سأل جرانت الجرَّاح في صباح اليوم التالي: «أتعرِف أن مشروع القانون بإدانة ريتشارد الثالث الذي عُرِض على البرلمان لم يذكر جريمة قتل أميرَي البرج؟»

قال الجرَّاح: «حقًّا؟» وتابَع: «هذا غريب، أليس كذلك؟»

«في غاية الغرابة. هل يمكنك التفكير في تفسير؟»

«ربما محاولة تقليل حجم الفضيحة. من أجل الأسرة.»

«لم يَخلُفه على العرش أحدٌ من أُسرته. كان الأخيرَ من نسله. لقد خلفه أول فرد من آل تيودور. هنري السابع.»

«أجل، بالطبع. لقد نسيتُ ذلك. لم أكُن بارعًا يومًا في التاريخ. اعتدتُ استغلال حصة التاريخ في أداء واجبي المنزلي في الجبر. إنهم يعجزون عن أن يجعلوا التاريخ شائقًا ومُمتعًا في المدارس. ربما يُساعدهم في ذلك استخدام المزيد من الصور.» ثم رفع ناظرَيه نحو صورة ريتشارد وعاد إلى فحصه الطبي. وقال: «يَسرُّني أن أقول إنك تبدو بصحةٍ جيدة للغاية. ألا يُوجَد ألمٌ تشتكي منه الآن؟»

ثم غادَر الجرَّاح بلُطف وعفوية. كان الجرَّاح مُهتمًّا بالوجوه لأنها كانت جزءًا من مهنته، لكن التاريخ كان مجرد شيء يستخدمه لأغراضٍ أخرى؛ شيء نحَّاه جانبًا تحت مكتبه المدرسي من أجل الجبر. كان يُوجَد أحياء تحت رعايته، ومستقبلهم بين يدَيه، لم يكن لدَيه فائض في ذهنه ليوفِّره من أجل التفكير في مشكلاتٍ نظريَّة.

كما كان لدى رئيسة المُمرِّضات هي أيضًا أمورٌ أكثر إلحاحًا. إذ راحت تستمتع في أدب وكياسة فيما كان يعرض عليها ما تعسَّر عليه فهمه، لكنه رأى منها انطباعًا يُوحي بأنها قد تقول: «لو كنت مكانك لزرتُ الاختصاصيَّ الاجتماعي لهذا الشأن». لم تكن المسألة

تُهمُّها. كانت رئيسة المُمرِّضات تنظر من عليائها الملكي إلى خلية النحل الكبيرة التي تعجُّ من تحتها بالنشاط، الذي كان كله مُهمًّا ومُلحًّا؛ فلم يكن من المتوقَّع منها أن تُركِّز على شيء من أكثر من أربعمائة عام مضت.

أراد جرانت أن يقول: «لكن حريٌّ بكِ أنتِ من بين كل الناس أن تكوني مُهتمَّة بما يمكن أن يحدث لأبناء الطبقة الملكية، مع حالة الضعف التي عليها أهلية سُمْعتكِ. غدًا يمكن لهمسةٍ أن تُدمِّركِ.» لكنه كان مُدركًا بالفعل على نحوٍ أشعره بالذنب أن تعطيل رئيسة المُمرضات بأشياء غير ذات أهمية لها يعني إطالة أمد صباحها الطويل أصلًا من دون عُذر أو سبب.

لم تكُن «القزمة» تعلم ما يَعنيه قانون الإدانة، وأوضحت أنها لم تكن تهتمُّ لذلك.

قالت وهي تميل برأسها نحو البورتريه: «أضحيتَ مَهووسًا بتلك الصورة.» واستطردت: «ليس ذلك صحيًّا. لماذا لا تقرأ بعضًا من تلك الكتب المُمتعة؟»

حتى مارتا، التي تطلَّع إلى زيارتها حتى يطرح عليها هذا الافتراض الجديد والغريب ويرى ردَّة فِعلها، كانت غاضبة للغاية من مادلين مارش لدرجة أنها لم تُولِه أيَّ اهتمام.

«بعد أن وعدتني فعليًّا أنها ستكتب المسرحية! بعد كل لقاءاتنا وكل الخُطط التي وضعتها من أجل أن ينتهيَ ذلك الشيء الذي لا ينتهي. كنت حتى قد تحدثتُ مع جاك عن الملابس! والآن تقرِّر أنها يجب أن تكتب واحدة من رواياتها البوليسية المريعة تلك. تقول إن عليها أن تكتبها بينما لا تزال غضَّة في مُخيِّلتها، أيًّا كان ما يَعنيه ذلك.»

استمع جرانت في تعاطف إلى فجيعة مارتا؛ فالمسرحيات الجيدة هي أندَرُ سلعة في العالم، ويستحقُّ كُتاب المسرحيات الجيِّدون وزنهم من البلاتين، لكن الأمر لجرانت كان أشبه بمشاهدة شيء من النافذة. كان القرن الخامس عشر أكثر واقعيةً عنده في هذا الصباح من أي شيء يحدث في شارع شافتسبري.

قال مُواسيًا لها: «لا أظنُّ أن تأليف روايتها البوليسية سيستغرق منها وقتًا طويلًا.»

«أوه، لا. إنها تكتبها في ستة أسابيع أو نحو ذلك. لكن بعد أن خرجَت عن الطَّوق، أنَّى لي أن أعرف إن كنتُ سأتمكن من جعلها تكتب هذه المسرحية أم لا. يُريد توني سافيلا منها أن تكتب مسرحية مارلبورو من أجله، وأنت تعرف كيف يكون توني حين يرغب في شيءٍ ما بشِدَّة. يمكنه أن يُقنع الحَمَام عند قوس الأميرالية بفعلِ ما يريد.»

ثم عادت للحديث عن قرار الإدانة باقتضابٍ قبل أن تتركه وتغادر.

حيث قالت وهي عند الباب: «لا بدَّ أنه يُوجَد تفسير لذلك يا عزيزي.»

أراد جرانت أن يَصيح فيها، وهي تُغادر، أنه يُوجَد تفسير «بالطبع»، ولكن ما هو؟ الأمر مُنافٍ لأيِّ منطق واحتمال. يقول المؤرِّخون إن جريمة القتل تسبَّبت في شعورٍ كبير بالاشمئزاز والنفور من ريتشارد، وإنَّ العامة في إنجلترا كرِهوه بسببها، وكان ذلك هو السبب في ترحيبهم بشخصٍ غريب في مكانه. ومع ذلك حين عُرِضت أعماله الشِّريرة على المجلس النيابي لم يُؤتَ على ذِكر تلك الجريمة.

كان ريتشارد قد مات حين أُعِدَّت تلك الشكاية، وكان أتباعه إما هاربين أو في المنفى؛ كان لدى أعدائه كامل الحرية في أن يُوجهوا له أيَّ تهمة تَخطُر ببالهم. ومع ذلك «لم يتبادر إلى أذهانهم تلك الجريمة المُثيرة».

لماذا؟

قيل إن فضيحة اختفاء الصبيَّين كان يتردَّد صداها في أرجاء البلاد. كما كانت الفضيحة حديثة العهد. وحين جمع أعداؤه جرائمه المزعومة في حق الأخلاق والدولة، لم يُضمِّنوا بينها أكثر أخطائه خِزيًا وشرًّا.

لماذا؟

كان هنري في حاجة لكل مِثقال ريشة من أفضلية في حداثة تَولِّيه العرش المُتزعزِع. كان هنري غير معروف في البلاد بأَسرِها، ولم يكُن لديه حق بحسب رابطة الدم في أن يكون في مكانه هذا. لكنه لم يستخدم الأفضلية الساحقة التي كان من الممكن أن تمنحه إيَّاها جريمة ريتشارد الشهيرة.

لماذا؟

كان هنري يَخلُف رجلًا ذائع الصيت، معروفًا بشخصه لكل الناس من منطقة مارشيز أوف ويلز وحتى الحدود مع اسكتلندا، رجلًا أحبَّه الجميع وأُعجِبوا به حتى اختفاء ابنَي أخيه. لكنه أغفل استخدام الأفضلية الحقيقية الوحيدة التي كان يتحلى بها في مواجهة ريتشارد؛ ذلك الشيء المَقيت الذي لا يُغتفَر.

لماذا؟

وحدَها «الأمازونية» بدت مُهتمَّة بأمر التناقض الذي كان يشغل ذهنها، وكانت مُغتمَّة من احتمال وجود أي خطأ، ليس بدافع أي مشاعر إيجابية تجاه ريتشارد، وإنما بسبب رُوحها اليقِظة الضمير. كان من شأن «الأمازونية» أن تقطع الردهة كلها وتعود مُجدَّدًا من أجل أن تنزع ورقةً مفكوكة من التقويم كان أحدهم قد نسيَ أن ينزعها. لكنَّ غريزتها التي تدفعها للقلق كانت أقلَّ قوةً من غريزتها التي تدفعها للمُواساة.

إذ قالت في محاولة لتهدئته: «لست في حاجة لأن تجزع حيالَ ذلك.» وتابَعت: «سيكون ثَمة تفسيرٌ بسيط للغاية لم تُفكِّر فيه. وسيأتيك هذا التفسير في وقتٍ آخر تكون فيه مشغولًا في التفكير في شيءٍ مُختلف تمامًا. إنني عادةً ما أتذكَّر أين وضعت الأشياء التي نسيتُ مكانها بهذه الطريقة. أحيانًا أكون في غُرفة المؤن أضع الغلَّاية، أو أتولَّى عدَّ الضمادات المُعقَّمة بينما تُوزِّعها الأخت المُمرضة، وفجأةً أقول لنفسي: «يا إلهي، لقد تركتُ كذا في جيب مِعطف بربيري.» أعني، أيًّا كان ذلك الشيء. لذا لستَ بحاجة لأن تجزع حيالَ الأمر.»

كان السيرجنت ويليامز في براري إسكس يُساعد الشرطة المحليَّة في تحديد الجاني الذي ضرب صاحبة متجر كبيرة في السن على رأسها بمِقياس الوزن النحاسي وتركها صريعةً بين أربطة الأحذية وحلوى عِرق السوس؛ لذا لم يكن باستطاعته أن يجد عونًا من سكوتلاند يارد.

لم يجد عونًا من أي أحد حتى عاوَد كارادين الشابُّ الزيارة بعد ثلاثة أيام. ظنَّ جرانت أن لامُبالاته الطبيعية كانت ذات صبغةٍ أعمق من المُعتاد؛ كاد أن يبدوَ عليه مظهر الاحتفاء بذاته. وإذ كان شابًّا مُهذَّبًا حسَن التربية فقد سأل في أدب عن التقدُّم الذي يُحرِزه جرانت على مستوى صحته الجسدية، وبعد أن اطمأنَّ على ذلك أخرج من جيب مِعطفه الرَّحب بعضَ الأوراق وراح يَنظُر إلى زميله من خلال نظَّارته ذات الإطار السميك.

علَّق في سرور: «ما كنتُ لأقبل بكتُب مور المُعظَّم هدية.»

«لم يُعرَض عليك أي منها. ولا يُوجَد مُشترون لها.»

«إنه مُخطِئ وغير دقيق. مُخطِئ تمامًا.»

«لقد توقَّعتُ ذلك. لننظُر إلى الوقائع. أيُمكنك أن تبدأ باليوم الذي مات فيه إدوارد؟»

«بالطبع. مات إدوارد في التاسع من شهر أبريل عام ١٤٨٣. في لندن. أعني في ويستمنستر؛ لم تكن ويستمنستر جزءًا من لندن حينها. كانت الملكة وبناتها يَعِشنَ هناك، «وكذلك» الصبي الأصغر، حسبما أظن. أما الأمير الصغير فكان يستذكر دروسه في قلعة لودلو في كنف أخي الملكة، اللورد ريفرز. أكنتَ تعرف أن أقارب الملكة كانوا في صدارة المشهد إلى حدٍّ كبير؟ كان المكان يعجُّ بآل وودفيل.»

«أجل، أعرف. أكمل. أين كان ريتشارد؟»

«على الحدود الاسكتلندية.»

«ماذا؟!»

«أجل، قلت: على الحدود الاسكتلندية. بُوغِت بالخبر. لكن هل يصيح مُطالِبًا بجواد ويذهب مُتأخرًا إلى لندن؟ لم يفعل.»

«ماذا فعل؟»

«رتَّب لإقامة قدَّاس على روح الميت في يورك، استُدعيَ إليه كل نُبلاء الشمال، وفي حضورهم أقسم على الولاء للأمير الصغير.»

قال جرانت بنبرةٍ جافة: «مُثير للاهتمام.» وسأل: «ماذا فعل ريفرز؟ أخو الملكة؟»

«في الرابع والعشرين من شهر أبريل انطلق بصُحبة الأمير إلى لندن. وكان معهما ألفا رجلٍ وعتادٌ كبير.»

«فيمَ كانت حاجته للعتاد؟»

«لا تسألني. إنما أنا باحث. استولى دورست، أكبر أبناء الملكة من زواجها الأول، على مُستودَع الأسلحة وثروات البرج، وبدأ يُجهِّز السفن ليُسيطر على القنال الإنجليزي. وأُصدرَت قرارات المجلس باسم ريفرز ودورست، «عم الملك» و«شقيق أم الملك» على الترتيب، دون أيِّ ذِكر لريتشارد. الأمر الذي كان غير طبيعي حين تتذكَّر، إن كنتَ تعلم، أن إدوارد في وصيته كان قد عيَّن ريتشارد وصيًّا على الصبيِّ وحاميًا للمملكة في حال كان الصبيُّ قاصرًا. لاحظ، ريتشارد وحدَه، دون أي مُعاون.»

«أجل، هذا من شِيَمه على الأقل. لا بد أنه كان يَثِق دائمًا في ريتشارد. بصفته الشخصية وبصفته رجل إدارة. هل أقبل ريتشارد صوب الجنوب بصُحبةِ جيشٍ صغير أيضًا؟»

«لا. أتى بصحبة ستمائة رجل من نُبلاء الشمال، وكانوا جميعهم في حالة من الحزن الشديد. وصل ريتشارد إلى نورثهامبتون في التاسع والعشرين من أبريل. من الواضح أنه تَوقَّع أن يلحقَ بحشد لودلو هناك، لكن هذه المعلومة لا تعدو كونها كلامًا منقولًا، وليس لدينا دليل عليها سوى قول المؤرخ. أما عن موكب لودلو، الذي كان يتألف من ريفرز والأمير الصغير، فقد ذهب إلى ستوني ستراتفورد من دون أن ينتظر ريتشارد. وكان الشخص الذي الْتَقى به في الواقع في نورثهامبتون هو دوق بكنجهام وبصحبته ثلاثمائة رجل. أتعرِف دوق بكنجهام؟»

«معرفة سطحية. كان صديقًا لإدوارد.»

«أجل. وقد جاء من لندن على عجل.»

«وهو على علم بالخبر وبما كان يجري من أحداث.»

«هذا استنتاجٌ مقبول. ما كان ليأتي بصحبة ثلاثمائة رجل لمجرد أن يُعرب عن تعازيه. على أي حال، انعقد مجلس هناك في التوِّ واللحظة؛ كان لديه ما يلزم لعقد مجلس شرعي من حاشيته وحاشية دوق بكنجهام، وألقى القبض على ريفرز ومُساعديه الثلاثة وأُرسِلوا

إلى الشمال، فيما أكمل ريتشارد رحلته مع الأمير الصغير إلى لندن. وقد وصلوا هناك في الرابع من شهر مايو.»

«هذا رائع جدًّا وواضح. والأكثر وضوحًا بين هذه الأمور برُمَّتها، مع أخذ عاملَي الوقت والمسافة في الاعتبار، أن رواية مور المُعظَّم عن كتابة ريتشارد لخطابات استمالة وإرسالها إلى الملكة من أجل إقناعها بأن تُرسِل موكبًا صغيرًا من أجل الصبي، هي محض هراء.»

«كلام فارغ.»

«بالفعل، لقد فعل ريتشارد ما يتوقَّع المرء منه أن يفعله. لا بد أنه كان بلا شك على علم ببنود وصية إدوارد. وأفعاله لا تُشير إلا إلى ما يتوقع المرء أن تُشير إليه؛ حزنه ورعايته للصبي. قدَّاس الصلاة على روح الميت وقسَمه بالولاء للصبي.»

«أجل.»

«أين يأتي التغيير في هذا النمط القويم؟ أقصد: في سلوك ريتشارد.»

«أوه، ليس لوقتٍ طويل. فحين وصل إلى لندن وجد أن الملكة والصبي الأصغر وبناتها وابنها من زواجها الأول ودورست قد انسحبوا جميعًا إلى ملاذٍ آمن في ويستمنستر. لكن فيما عدا ذلك بدت الأمور طبيعية.»

«هل أخذ الصبي إلى البرج؟»

تصفَّح كارادين ملاحظاته. وقال: «لا أتذكَّر. ربما لم أجد ذلك. كنت فقط ... أوه، أجل، ها هي. لا، أخذ الصبي إلى قصر الأسقف في باحة كنيسة القديس بولس، وذهب هو بنفسه ليمكُث مع والدته في قلعة بينارد. أتعرف أين كانت تقع تلك القلعة؟ فأنا لا أعرف.»

«أجل. كانت استراحة آل يورك. وكانت تقع على ضفة النهر على بُعدِ مسافة قصيرة إلى الغرب من كنيسة القديس بولس.»

«أوه، حسنٌ إذَن، مكث هناك حتى الخامس من شهر يونيو، حين وصلت زوجته من الشمال وذهبا ليُقيما في منزلٍ يُدعى كروسبي بليس.»

«وما زال يُدعى كروسبي بليس. لقد نُقِل إلى تشيلسي، والنافذة التي وضعها ريتشارد فيه ربما لا تكون موجودةً هناك؛ لم أزُره مُؤخَّرًا، لكن المبنى موجود.»

قال كارادين مسرورًا: «حقًّا؟ سأذهب وأزوره في الحال. إنها حكايةٌ أُسرية للغاية حين تُفكِّر فيها، أليس كذلك. أن يمكث مع أُمِّه حتى تأتيَ زوجته إلى المدينة، ثم ينتقل ليَمكُث معها. هل كان كروسبي بليس مِلكًا لهم إذَن؟»

«كان ريتشارد قد استأجره، حسب ظني. كان مملوكًا لأحد أعضاء بلدية لندن. لذا لا تُوجَد إشارة على مُعارضة أن يكون ريتشارد حاميًا للبلاد ولا على تغيير في الخطط حين وصل إلى لندن.»

«أوه، لا. اعتُرِف به حاميًا للبلاد قبل حتى أن يصِل إلى لندن.»

«كيف تعرف ذلك؟»

«يُطلَق عليه لقب الحامي في قوائم التسجيل الحكومية في موضعَين، دعني أُلقي نظرة، الحادي والعشرين من شهر أبريل (كان هذا قبل مرور أسبوعَين على وفاة إدوارد) والثاني من شهر مايو (أي قبل يومَين من وصوله إلى لندن أصلًا.)»

«حسنًا؛ اقتنَعْت. ولم تحدُث جلبة؟ لا إشارة على وقوع قلاقل؟»

«ليس بحسب ما أمكنني أن أجد. في يوم الخامس من شهر يونيو أعطى ريتشارد أوامر مُفصَّلة بتنصيب الصبي في يوم الثاني والعشرين من الشهر نفسه. حتى إنه أرسل خطابات استدعاء إلى الأربعين إقطاعيًّا والذين نُصِّبوا فُرسانَ باث. يبدو أنه كان من عادة الملك أن يُنصِّبهم فرسانًا بمناسبة تتويجه.»

قال جرانت وهو غارق في التفكير: «يوم الخامس من الشهر.» وتابَع: «وحدَّد مَوعد التتويج في الثاني والعشرين. لم يترك لنفسه فسحةً من الوقت من أجل تبديل للأوضاع.»

«لا. يُوجَد حتى تسجيل بالأمر بملابس تتويج الصبي.»

«ثم ماذا بعد؟»

قال كارادين مُعتذرًا: «في الواقع، هذا هو أقصى ما توصَّلت إليه. حدث شيء أثناء انعقاد أحد المجالس — في الثامن من شهر يونيو بحسب ما أظن — لكن الرواية المُعاصرة لذلك مذكورة في «مذكرات» فيليب دي كومين، ولم أتمكَّن من الحصول على نسخة منها حتى الآن. لكن أحدهم قطع لي وعدًا بأن يُطلِعني غدًا على نسخة من طبعة ماندرو لعام ١٩٠١ لها. يبدو أن أسقف باث نقل بعض الأخبار إلى المجلس في الثامن من شهر يونيو. هل تعرف أسقف باث؟ كان اسمه ستيلينجتون.»

«لم أسمع به من قبل.»

«كان زميلًا لكلية أول سولز، أيًّا كانت، وكاهنًا ليورك، أيًّا كان معنى ذلك.»

«يبدو مُثقَّفًا ومُوقَّرًا.»

«حسنًا، سنرى.»

«هل توصَّلتَ إلى أي مؤرخ مُعاصر، غير كومين؟»

«لم أجد حتى الآن أحدًا كتب قبل وفاة ريتشارد. كان كومين مُنحازًا إلى الجانب الفرنسي، لكنه لم يكن مُنحازًا إلى آل تيودور؛ لذا هو موثوقٌ أكثر من رجلٍ إنجليزي يكتب عن ريتشارد في ظلِّ حُكم آل تيودور. لكنني حصلت على عيِّنةٍ رائعة من أجلك عن كيفية صناعة التاريخ. وجدتها حين كنت أبحث عن الكُتَّاب المُعاصرين. أتعرِف أن أحد الأشياء التي يروونها عن ريتشارد الثالث أنه قتل الابن الوحيد لهنري السادس بدمٍ بارد بعد معركة توكسبوري؟ حسنًا، صدِّق أو لا تصدِّق، تلك القصة مُختلَقة بالكامل. يمكنك أن تتتبَّعها منذ المرة الأولى التي رُوِيت فيها. إنها الرد المِثالي على من يدَّعون أنه يُوجَد دُخان من دون نار. صدِّقني أُحدِث هذا الدُّخان باحتكاك عصوَين جافَّتَين.»

«لكن ريتشارد كان مُجرَّدَ صبيٍّ وقت معركة توكسبوري.»

«أظن أنه كان في الثامنة عشرة من عمره. وكان مُقاتلًا رائعًا بحسب الروايات المعاصرة كلها. كان ابن هنري وريتشارد في نفس العمر. و«كل» الروايات المعاصرة، من كل الطبقات، مُجمِعة على أنه قُتِل أثناء المعركة. وهنا يبدأ المرح.»

راح كارادين يُقلِّب في ملاحظاته بنفاد صبر.

وقال: «تبًّا، ماذا فعلتُ بها؟ آه. ها هي. والآن اسمع. يكتب فابيان لهنري السابع، قائلًا إن الصبيَّ أُسِر وأُحضرَ أمام إدوارد الرابع، وإن إدوارد لطمه على وجهه بقفَّازه وقُتِل من فوره على يد خدم الملك. جميل؟ لكن بوليدور فيرجيل يقصُّ روايةً أفضل. يقول إن القتل حدث على يد جورج، دوق كلارينس، وريتشارد دوق جلاوسيستر، وويليام لورد هيستنجز بأنفسهم. وهال يُضيف دورست إلى القتلة. لكن هذا لم يكن مُرضيًا لهولينشيد؛ يُورِد هولينشيد أنَّ ريتشارد دوق جلاوسيستر كان هو من وجَّه الضربة الأولى. ما رأيك في ذلك؟ أعلى جودة من الزيف.»

«محض زيف. قصة درامية ليس بها كلمة واحدة حقيقية. إن كنت تُطيق سماع بضع جُمَل من كتاب مور المعظم، فسأعطيك عيِّنةً أخرى من كيفية صناعة التاريخ.»

«مور المعظم يُصيبني بالقرف الشديد لكنني سأسمع.»

بحث جرانت عن الفقرة التي أراد، ثم قرأ:

> يذهب بعض الرجال الحكماء إلى القول بأن حركته [أي حركة ريتشارد]، التي نُفِّذت بسِرِّية لم تفتقر إلى المساعدة في أن تقود أخاه كلارينس إلى حتفه؛ الأمر الذي عارَضه علنًا، ولكن كما يعتقد البعض إلى حدٍّ ما، فإنه عارَض الأمر على نحوٍ أضعف من ذلك الذي كان حريصًا على صالحه. وأولئك الذين يفترضون

ذلك يظنُّون أنه، لوقتٍ طويل في حياة الملك إدوارد، خطَّط لأن يكون الملك في حالة أنه تصادف أن شقيقه الملك (الذي ارتأى أن حياته المليئة بالأعمال الشريرة ينبغي أن تقصر) تُوفي (الأمر الذي حدث بالفعل) بينما كان طفلاه صغيرَين. ويفترضون أنه بسبب هذه النية كان مسرورًا بوفاة أخيه كلارينس، الذي كانت حاجاته الحياتية الضرورية قد أعاقته، سواءً كانت نيتُه أن يظلَّ وفيًّا لابن أخيه الملك الصغير أو أقدمَ على أن يُصبح ملكًا. لكن لا يُوجَد أمر مؤكَّد في هذه النقطة كلها، وأيًّا كان من يَحزُر بناءً على تخمينات يجوز أن يذهب بعيدًا للغاية أو يَقصُر إلى أبعدِ حد في تخمينه.

قال كارادين بعذوبة: «الخسيس الثرثار المُتملِّق الخَرِف العجوز.»

«هل أنت ذكي بما يكفي لتلتقط الجملة الإيجابية الوحيدة في كل ذلك التكهُّن؟»

«أوه، أجل.»

«هل لاحظتها؟ كان ذلك في غاية الذكاء منك. تعيَّن عليَّ أن أقرأها ثلاث مرَّات من قبل أن أصل إلى الواقعة الوحيدة غير المشفوعة بتحفُّظ.»

«أن ريتشارد عارَض علنًا قتل أخيه جورج.»

«أجل.»

قال كارادين مُعلِّقًا: «بالطبع مع كل تلك الجُمَل التي يقول فيها «يقول البعض»، فإن الانطباع الذي خلَّفه هو الانطباع المُعاكس تمامًا. لقد أخبرتك، ما كنتُ لأقبل أن يُهديَني أحدٌ كتاب مور المعظم.»

«أظنُّ أن علينا أن نتذكَّر أن هذا هو رواية جون مورتون وليس مور المعظم.»

«اسم مور المُعظم أفضل على الأسماع. عِلاوةً على أنه أُعجبَ بتلك الرواية لدرجة أنه نَسَخها.»

رقد جرانت، الذي كان يومًا ما جُنديًّا، يُفكِّر في المعالجة المُتخصصة لذلك الموقف الشائك في نورثهامبتون.

وقال: «كانت براعةً من جانبه أن يتخلَّص من الألفَي رجل المُصاحبين لريفرز من دون صدام مفتوح.»

«أتوقَّع أنهم فضَّلوا أخا الملك على أخي الملكة، إن كانوا قد واجهوا هذا الخيار.»

«أجل. وبالطبع يحظى الرجل المُحارِب بفرصة مع القوات أفضل من تلك التي يحظى بها رَجلٌ يكتب كتبًا.»

«هل كان ريفرز يكتب كُتبًا؟»

«كتب أوَّل كتاب طُبِع في إنجلترا. كان مُثقفًا للغاية.»

«حقًّا. يبدو أن ذلك لم يُعلِّمه ألا يجرب عقد اتفاقات مع رجلٍ كان برتبة بريجيدير في الثامنة عشرة من عمره، وبرتبة جنرال قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين. ذلك من الأمور التي فاجأتني.»

«مميزات ريتشارد بوصفه رَجلًا عسكريًّا؟»

«لا، شبابه. كنت دائمًا أُفكِّر فيه باعتباره رجلًا مُتبرِّمًا في منتصف العمر. كان لا يزال في الثانية والثلاثين من عمره حين قُتِل في بوسوورث.»

«قل لي: حين تولَّى ريتشارد الوصاية على الصبي، في ستوني ستراتفورد، هل تخلَّص بالكامل من حشد لودلو؟ أقصد، هل فُصِل الصبيُّ عن كل الأشخاص الذين كان قد نشأ معهم؟»

«أوه، لا. أتى معه إلى لندن مُعلِّمه الدكتور ألكوك. هذا واحد.»

«إذَن لم يتخلَّص بطريقةٍ مذعورة من كل من يمكن أن يتحيَّز إلى جانب آل وودفيل؛ كل من يُمكن أن يُؤثِّر على الصبي ضدَّه.»

«لا يبدو كذلك. لم يُقبَض إلا على الأشخاص الأربعة.»

«أجل. كانت تلك عمليةً بارعة فارقة تمامًا. وأنا أُهنئ ريتشارد بلانتاجانت.»

«بدأ الرجل يروق لي بالتأكيد. سأذهب الآن لأُلقيَ نظرةً على كروسبي بليس. أنا مسرور كثيرًا لفكرة أنني في الواقع سأزور مكانًا عاش فيه. وغدًا سأحصل على نُسخة كومين تلك، وسأُطلِعك على ما يقول بشأن الأحداث التي وقعت في إنجلترا في عام ١٤٨٣، وما قاله روبرت ستيلينجتون، أسقف باث، للمجلس في شهر يونيو من ذلك العام.»

الفصل العاشر

عرَف جرانت أن ما قاله ستيلينجتون للمجلس في ذلك اليوم الصيفي من عام ١٤٨٣ كان أنه قد زوَّج إدوارد الرابع إلى الليدي إليانور باتلر، ابنة أول إيرل لشروسبيري، قبل أن يتزوَّج إدوارد من إليزابيث وودفيل. وحين استوعب ذلك تساءل قائلًا: «لماذا استبقى هذا الأمر لنفسه لفترةٍ طويلة؟»

«كان إدوارد قد أمره بأن يُبقيَ الأمر سرًّا. بطبيعة الحال.»

فقال جرانت بنبرةٍ ساخرة جافَّة: «يبدو أن إدوارد كان قد اعتاد على الزواجات السِّرية.»

«في الواقع، لا بدَّ أن الأمر كان صعبًا عليه، كما تَعلَم، حين واجه عفةً منيعة. كانت الطريقة الوحيدة أمامه هي الزواج. وكان مُعتادًا على نَيل ما يُريد مع النساء — بسبب وسامته وتاجه — لدرجة أنه لم يكن مِن الممكن أن يستسلم للإحباط.»

«أجل. كان هذا هو نمط الزواج لدى آل وودفيل. الجمال العفيف الراسخ مع الشعر المُذهَّب، والزواج السِّري. إذ كان إدوارد قد استخدم هذه الوصفة نفسها في مناسبةٍ سابقة، إن كانت القصة التي رواها ستيلينجتون صحيحة. هل كانت صحيحة؟»

«في فترة حُكم إدوارد، كان الرجل، على ما يبدو، أمين الأختام الملكية، وأيضًا رئيس مجلس اللوردات، وكان سفيرًا لدى بريتاني. لذا إما أن إدوارد كان يَدِين له بشيءٍ ما أو أن الرجل كان يَرُوق له. أما ستيلينجتون، فمن جانبه لم يكن لديه سبب ليُلفِّق أي شيء ضد إدوارد. بافتراض أنه كان من النوع الذي يُلفق الروايات.»

«لا، لا أظنُّ أنه كان كذلك.»

«على أي حال، عُرِض الأمر على البرلمان؛ لذا ليس علينا أن نَثِق بكلام ستيلينجتون وحدَه في هذا الشأن.»

«على البرلمان!»

«بالتأكيد. كان كل شيءٍ واضحًا وفوق الطاولة. عُقِد اجتماع مُطوَّل للوردات في ويستمنستر في التاسع من الشهر نفسه. أحضر ستيلينجتون أدلَّته وشهوده، وأُعِدَّ تقريرٌ ليُقدَّم إلى البرلمان عند اجتماعه في الخامس والعشرين من الشهر. في العاشر من الشهر نفسه أرسل ريتشارد خطابًا إلى مدينة يورك يَطلُب قواتٍ لحمايته ومُساندته.»

«ها! قلاقل أخيرًا.»

«أجل. أرسل خطابًا مُماثلًا في الحادي عشر من الشهر إلى ابن عمومته اللورد نيفيل. لذا كان الخطر حقيقيًّا.»

«لا بدَّ أنه كان حقيقيًّا. الرجل الذي تعامل مع ذلك الموقف المُفاجئ والمعقَّد في نورثهامبتون بتلك الحِكمة ما كان ليفقد رَباطة جأشه في مواجهة تهديد.»

«في العشرين من الشهر ذهب برفقةِ مجموعةٍ صغيرة من الخدم إلى البرج؛ هل كنت تعرف أنَّ البرج كان بمثابةِ مَقرٍّ ملكي في لندن، ولم يكن سجنًا على الإطلاق؟»

«أجل، كنتُ أعرف ذلك. لم ينل مدلوله باعتباره سجنًا إلا لأن مقولة «أُرسِل إلى البرج» في أيامنا هذه لا تحمِل سوى معنًى واحد وحسب. وبالطبع لأن المجرمين والجُناة كانوا يُرسَلون إلى هناك بغرض حبسهم في مكانٍ آمن، في الأيام التي سبقت إنشاء سجون صاحب الجلالة؛ لأن البرج كان بمثابة القلعة الملكية في لندن والحصن الحصين الوحيد. لماذا ذهب ريتشارد إلى البرج؟»

«ذهب لاعتراض اجتماع للمُتآمِرين، وألقى القبض على اللورد هيستنجز واللورد ستانلي وجون مورتون، أسقف إيلي.»

«ظننتُ أننا سنصل إلى جون مورتون عاجلًا أو آجلًا!»

«أُصدِر بيان، قدَّم تفاصيل لمكيدة قتل ريتشارد، لكن على ما يبدو لم تصل إلى أيدينا نسخة من هذا البيان. وأُعدِم واحد فقط من المُتآمِرين، ومن الغريب جدًّا أن ذلك الذي أُعدِم كان صديقًا قديمًا لكلٍّ من إدوارد وريتشارد. اللورد هيستنجز.»

«أجل، طبقًا لكلام مور المعظم، اقتِيدَ على عَجلٍ إلى الباحة وقُطِعت رأسه على أقرب جذع شجرة.»

قال كارادين مُشمئزًّا: «لم يُقتَد على عجَل.» واستطرد: «بل أُعدِم بعد ذلك بأسبوع. يُوجَد خطابٌ مُعاصر عن هذه الحادثة يُقدِّم تاريخ اليوم. علاوةً على ذلك، لم يكن ريتشارد ليفعلها لمجرد الانتقام؛ لأنه ضَمِن انتقال ملكية العقارات المُصادرة من اللورد هيستنجز إلى أرملته، وأعاد حقَّ أولاده في ولاية العرش إليهم؛ وهو ما كانوا قد فقدوه تلقائيًّا.»

قال جرانت، الذي كان يُقلِّب صفحات كتاب مور «ريتشارد الثالث»: «لا، لا بدَّ أن مقتل هيستنجز كان مُحتَّمًا.» وتابَع: «حتى مور المعظم نفسه يقول: «لا شك في أن الحاميَ أحبَّه كثيرًا، وكان كارهًا لفقده.» ماذا حدث لستانلي وجون مورتون؟»

«عُفِي عن ستانلي، لماذا تتأفَّف؟»

«مسكينٌ ريتشارد. كانت تلك شهادةَ وفاته.»

«شهادة وفاته؟ كيف يمكن للعفو عن ستانلي أن يكون شهادة وفاته؟»

«لأن ستانلي اتَّخذ قرارًا مُفاجئًا بالانضمام للمعسكر الآخر الذي هزم ريتشارد في معركة بوسوورث.»

«بحقك.»

«من الغريب أن يُفكِّر المرء أن ريتشارد لو كان قد تبصَّر الأمر وأعدم ستانلي على جذع الشجرة كما فعل مع عزيزه هيستنجز لرَبِح معركة بوسوورث، ولما قامت قائمة لآل تيودور، ولَما ابتُكِرت شخصية الوحش الأحدب التي ظهرت في تُراث آل تيودور. وعلى ضوء ما أظهره ريتشارد في السابق، كان سيحظى بفترة حُكم هي الأفضل والأكثر تنويرًا في التاريخ على الأرجح. ماذا فُعِل بمورتون؟»

«لا شيء.»

«خطأ آخر.»

«أو على الأقل لا شيء مُهم. وُضِع قيد الاحتجاز مع النُّبلاء تحت رعاية بكنجهام. أما الأشخاص الذين أُعدِموا فكانوا رءوس المؤامرة الذين كان ريتشارد قد ألقى القبض عليهم في نورثهامبتون وهم: ريفرز وشركاؤه. وحُكِم على جين شور بالتكفير عن ذنوبها.»

«جين شور؟ ما علاقتها بالقضية بحقِّ السماء؟ كنتُ أظنُّ أنها عشيقة إدوارد؟»

«هكذا كانت. لكن يبدو أن هيستنجز وَرِثها من إدوارد. أو بالأحرى، دعني أُلقِ نظرة، كان من فعلَ ذلك هو دورست. وكانت دائمة الانتقال بين جانب هيستنجز من المؤامرة وجانب وودفيل. أحد خطابات ريتشارد الموجودة حتى يومنا هذا كانت عنها. عن جين شور.»

«ماذا عنها؟»

«كان قاضيه العام يُريد أن يتزوَّجها؛ أقصد حين كان ملِكًا.»

«وهل وافَق؟»

«وافَق. إنه خطابٌ رائع. ويَشِي بالحزن أكثر من الغضب، وبه بريق بهجة نوعًا ما.»

«يا إلهي، إنَّ البشر حمقى!»

«بالضبط.»

«ولم يكن الخطاب يَحوي أي شيء عن انتقام، حسبما يبدو.»

«بلى. على العكس تمامًا. أنت تعرف أنَّ مَهمَّتي لا تقتضي التفكير أو استنتاج النتائج — أنا باحث فقط — لكن أحسب أن طموح ريتشارد كان يتمثَّل في وضعِ حد للنزاع بين آل يورك وآل لانكستر للأبد.»

«ما الذي يجعلك تظنُّ ذلك؟»

«في الواقع، ألقيتُ نظرة على قوائم تتويجه. كانت مراسم التتويج الأفضل حضورًا في التاريخ المُسجَّل. ولا يمكنك أن تمنع نفسك من الاندهاش من أنَّ أحدًا لم يتجنَّبها. من آل لانكستر أو آل يورك.»

«ومن ضِمنهم ستانلي المُتقلِّب، على ما أظن.»

«أظن ذلك. فأنا لا أعرفهم جيدًا جدًّا لأتذكَّرهم فردًا فردًا.»

«لعلك مُحِقٌّ بشأن رغبته في وضعِ نهايةٍ حاسمة للضغينة بين آل لانكستر وآل يورك. ربما كان تَساهُله مع ستانلي يرجع إلى هذا السبب بالتحديد.»

«هل كان ستانلي من آل لانكستر إذَن؟»

«لا، لكنه كان مُتزوجًا من امرأةٍ عنيفة بصورةٍ غير طبيعية منهم. كانت زوجته هي مارجريت بوفورت، وكان آل بوفورت هم الوجه الآخر إن جاز التعبير لآل لانكستر؛ الجانب غير الشرعي منهم. ليس معنى ذلك أن جانبها غير الشرعي من العائلة كان يُقلقها. أو يُقلِق ابنها.»

«من كان ابنها؟»

«هنري السابع.»

أطلق كارادين صفيرًا طويلًا وخفيضًا.

«أتقصد أن تقول إن الليدي ستانلي كانت والدة هنري.»

«بالفعل كانت كذلك. من زوجها الأول إدموند تيودور.»

«لكن ... لكن الليدي ستانلي كان لها مكانٌ شَرفي في مراسم تتويج ريتشارد. وحملت ذيل ثوب الملكة. لاحظتُ ذلك لأنني وجدتُ الأمر غريبًا. أن تحمل ذيل الثوب. في بلادنا لا نحمل ذيل الثوب. أظنُّ أنه شيءٌ شرَفي.»

«إنه لشرفٌ عظيم وهائل. مِسكينٌ ريتشارد. مِسكين. لم تُجدِ نفعًا.»

«ما التي لم تُجدِ نفعًا؟»

قال جرانت: «شهامته.» وأخذ يُفكِّر في الأمر وهو راقد، فيما راح كارادين يُقلِّب سريعًا في ملاحظاته. وتابَع: «إذَن قَبِل البرلمان بشهادة ستيلينجتون.»

«لقد فعلوا ما هو أكثر من ذلك. إذ جسَّدوا الأمر في شكل قانون؛ وهو ما منح ريتشارد الحقَّ في اعتلاء العرش. أُطلِق عليه مُسمًّى تيتولوس ريجيوس، أو اللقب الملكي.»

«لرَجُل دين، لم يكن ستيلينجتون شخصيةً مجيدة. لكن أظنُّ أن ستيلينجتون كان سيُعجِّل بدماره الشخصي لو تحدَّث عن الأمر في وقتٍ مُبكِّر.»

«أنت تقسو عليه بعض الشيء، أليس كذلك؟ لم تكن تُوجَد حاجة ليتحدَّث عن الأمر في وقتٍ مُبكِّر عن ذلك. حيث لم يُصَب أي شخص بأذًى.»

«ماذا عن الليدي إليانور باتلر؟»

«ماتت في أحد الأديرة. ودُفِنت في كنيسة الرهبان الكرمليين البِيض في نورويتش، إن كنتَ مُهتمًّا بمعرفة ذلك. ما كان أحد سيُصَاب بأذًى ما دام إدوارد على قيد الحياة. لكن حين تعلَّق الأمر بمسألة ولاية العرش، «تعيَّن» عليه أن يتحدَّث حينها، أيًّا كان مآل ذلك.»

«أجل. بالطبع أنت مُحق. إذَن أُعلِن الأطفال من هذا الزواج غير شرعيِّين، في جلسةٍ برلمانية مفتوحة. وتُوِّج ريتشارد ملكًا. وذلك في حضور كلِّ نُبلاء إنجلترا. أكانت الملكة لا تزال في ملاذها؟»

«أجل. لكنها سمحت للابن الأصغر بالانضمام إلى أخيه.»

«متى كان ذلك؟»

راح كارادين يبحث في مُلاحظاته. ثُم قال: «في السادس عشر من شهر يونيو. نزولًا على طلبٍ من رئيس أساقفة مدينة كانتربري. كان كِلا الصبيَّين يعيش في البُرج.»

«كان ذلك بعد أن انتشرت الأنباء. أنباء أنَّهما كانا غير شرعيَّين.»

قال كارادين: «أجل.» ثُم رتَّب ملاحظاته بإتقان وأناقة ووضعها في جيبه الكبير. وأضاف: «يبدو أن ذلك هو كل ما لدينا حتى الآن. لكن إليك مردود الأمر.» ثم لَمْلم ذيل مِعطفه من كِلا جانبَيه ثم إلى ركبته بحركةٍ كان كلٌّ من مارتا والملك ريتشارد يحسدانه عليها. واستطرد يسأل: «أتعرف ذلك القانون؟ قانون اللقب الملكي.»

«أجل، ماذا بشأنه؟»

«حين اعتلى هنري السابع العرش أمر بإلغائه، دون أن يقرأه. أمر أن يُدمر القانون نفسه، ومُنِع الاحتفاظ بأي نسخة منه. وأي شخص يحتفظ بنسخة منه كان يُغرَّم ويُسجَن لمدةٍ تخضع لأمره.»

حدَّق فيه جرانت في ذهولٍ شديد.

وقال: «هنري السابع!» واستطرد: «لماذا؟ ما الفرق الذي يُمكن أن يُحدِثه ذلك له؟»

«ليس لديَّ أدنى فكرة. لكنَّني أنوي معرفة ذلك قبل أن أتقدَّم في العمر كثيرًا. وفي تلك الأثناء، هاك شيء يُسلِّيك حتى تأتيَك «تمثال الحرية» بالشاي الإنجليزي.»

ووضع ورقةً على صدر جرانت.

سأله جرانت: «ما هذا؟» وهو ينظر في الورقة المقطوعة من دفتر ملاحظات.

«إنها خطاب ريتشارد عن جين شور. سأعود لزيارتك.»

وبعد أن تُرِك جرانت وحدَه وسط السكون، قلَب الصفحة وراح يقرأ.

كان التباين بين الخط الطفولي المُبعثَر والعبارات الرسمية من خيال ريتشارد حادًّا واضحًا لأقصى حد. لكن ما لم يستطع الخطُّ الحديث المُبعثَر ولا العبارات المُنمَّقة تدميرَه هو نكهة الخطاب. كان شذى روح اللُّطف يفوح من الصفحة كما تفوح رائحة النبيذ الجيِّد. وبعد ترجمته إلى المصطلحات العصرية كان الخطاب يقول:

> أذهلني كثيرًا ما تناهى إلى سمعي من أنَّ توم لينوم يرغب في الزواج من زوجة ويل شور. من الواضح أنه مفتون بها، ومُصمِّم جدًّا على الزواج منها. أرسِلْ له، أيها الأسقف العزيز، وانظر إذا ما كنتَ تستطيع أن تُحدِّث عقله الساذج بلسان المنطق. وإن لم تستطع، وإن لم يكن يُوجَد مانع من وجهة نظر الكنيسة لزواجهما، فإنني إذَن أُوافق عليه، لكن أخبِره أن يؤجِّل الزواج حتى أعود من لندن. في تلك الأثناء سيكون خطابي كافيًا لإطلاق سراحها، بشرط ضمان حُسن سلوكها، وأقترح أن تُسلِّمها في الوقت الراهن إلى كنف أبيها، أو أي شخص آخر يبدو لك مُناسبًا.

كان الخطاب بالتأكيد كما قال عنه كارادين الشاب: «يشعُّ بالحزن أكثر مما يشعُّ بالغضب.» وبالفعل، ومع الأخذ في الاعتبار أنه كُتِب بشأن امرأة ارتكبت في حقِّه خطأً قاتلًا، فإن نبرة اللُّطف ودماثة الخلق بارزتان فيه. وكانت هذه مسألة لن يتأتَّى له من كونه شهمًا فيها أي منفعة شخصية. ربما لم تكن سعة الأفق التي سعى بها للسلام بين آل لانكستر وآل يورك مُتجردة؛ إذ كان سيُصبح من مصلحته أن يحكم بلدًا مُتحدًا. لكن هذا الخطاب إلى أسقف لينكولن كان مسألةً شخصية بسيطة، ومسألة الإفراج عن جين شور

لم تكن ذات أهمية لأي أحد سوى توم لينوم المُتيَّم بها. لم يكن ريتشارد سيكسب شيئًا من كرمه. ومن الواضح أن رغبته في أن يرى صديقًا سعيدًا كانت أكبر من رغبته في الانتقام.

في الواقع، بدا أنَّ رغبته في الانتقام كانت ناقصةً لدرجة قد تُدهِش أي ذكر جريء، ومُذهلة إلى حدٍّ بعيد في حالة ريتشارد الثالث؛ ذلك الوحش الذائع الصِّيت.

الفصل الحادي عشر

استغرق جرانت في الخطاب استغراقًا مُمتعًا حتى أحضرت «الأمازونية» له الشاي. وأخذ يُصغي إلى عصافير القرن العشرين على حافة نافذته، وتعجَّب من أنه يقرأ عبارات تشكَّلت في عقل رجل قبل أكثر من أربعمائة عام. كم كان سيبدو رائعًا لريتشارد أن يقرأ أحدٌ ما ذلك الخطاب الحميمي القصير عن زوجة شور، وأن يُفكِّر فيه بعد أربعمائة عام.

قالت «الأمازونية»، وهي تدخُل حاملةً قِطعتَي خبز وجبنًا وكعكة روك: «وصلك خطاب، هذا لطيف حقًّا.»

حوَّل جرانت عينَيه عن كعكة الروك الرائعة الشكل والقوام، ووجد أنَّ الخطاب كان من لورا.

ففتحه في سرور.

عزيزي آلان (قالت لورا)

لا شيء (أُكرِّر: لا شيء) يُدهشني بشأن التاريخ. في اسكتلندا تماثيل كبيرة لشهيدتَين أُغرِقتا بسبب إيمانهما، مع أنَّ الحقيقة أنهما لم تُغرَقا مُطلقًا، ولم تكونا شهيدتَين بأي حال من الأحوال. لقد أُدِينتا بالخيانة؛ بالعمل لصالح الطابور الخامس من أجل الغزو المُتوقَّع من هولندا على ما أظن. اتُّهِمتا بتهمةٍ مدنية محضة على أي حال. وأوقف مجلس شورى الملك تنفيذ العقوبة بحقهما بناءً على الالتماس المقدَّم منهما، وهذا الأمر بوقف التنفيذ موجود في سجلَّات المجلس حتى يومِنا هذا.

لم يُثبِّط هذا بالطبع من عزيمة جامعي الشهداء الاسكتلنديين، ويمكن أن تجد قصة نهايتهما الحزينة، والتي تشتمل على حوارٍ يفطر القلب، في كل خِزانة كتب في اسكتلندا. وكل مجموعة بها حوارٌ مختلف تمامًا عن المجموعات الأخرى. وشاهد قبر إحداهما في فِناء كنيسة ويجتاون مكتوبًا عليه:

قُتِلت لإيمانها بالمسيح العلي،
رأس كنيسته، وبلا جُرمٍ
عدا أنَّها لم تتبع الأسقفية،
ولم تَنبذ المشيخية؛
فقُيِّدت إلى وتدٍ في البحر،
وتألَّمَت من أجل يسوع المسيح.

بل إنهما من مواضيع الخطب المشيخية البديعة، بحسب ما أعلم؛ رغم أنني أتحدَّث في هذه النقطة من مُنطلَق ما سمعت. ويأتي السياح ويهزُّون رءوسهم حُزنًا أمام التماثيل بما عليها من كتاباتٍ منقوشة مؤثرة، ويُمضي الجميع وقتًا مُثمرًا.

كل هذا رغم أن الجامع الأصلي للمادة، الذي جاب منطقة ويجتاون بعد أربعين عامًا فقط من الاستشهاد المزعوم وفي أوج انتصار المشيخية، يشتكي من أن «الكثيرين يُنكرون حدوث هذا»، وأنه لم يتمكن من إيجاد أي شاهد عِيان على الإطلاق.

يَسرُّني كثيرًا أنك تتماثل للشفاء، وهذا مصدر ارتياحٍ كبير لنا جميعًا. وإن تدبَّرت أمرك جيدًا يمكن أن تتزامن إجازتك المرضية مع مجيء الربيع. منسوب الماء مُنخفِض للغاية في هذه الآونة، لكن بحلول الوقت الذي ستتماثل فيه للشفاء تمامًا، ينبغي أن يكون عُمق المياه سارًّا لك أنت والأسماك.

مع حُبِّنا جميعًا،
لورا.

ملحوظة: قد يبدو هذا غريبًا، لكن حين تُخبر أحدًا بالوقائع الحقيقية لقصةٍ وهمية ينقم عليك وليس على من قصَّها. إن الناس لا يريدون أن يتكدَّر صفو

أفكارهم. فهذا يُثير في نفوسهم شيئًا من عدم الارتياح المُبهَم في رأيي، وهم يمقتون هذا. لذا ينبذونه ويرفضون أن يُفكِّروا فيه. إن كانوا لا يُبالون وحسب فهذا طبيعي ومفهوم. لكن الأمر أقوى من ذلك، وأكثر تأكيدًا بكثير. إن الناس ينزعجون من ذلك.

وهذا أمر في غاية الغرابة حقًّا.

قال جرانت في نفسه، «المزيد» من الحكايات المختلَقة من قبيل حكاية تونيباندي.

بدأ يتعجَّب قائلًا لنفسه كم كان كتاب التاريخ المدرسي، الذي كان يُمثِّل له حتى الآن تاريخ إنجلترا، يحوي من الحكايات المختلَقة من قبيل حكاية تونيباندي.

بعد أن صار الآن مطَّلعًا على بعض الحقائق، عاد لقراءة كتاب مور المعظم. وذلك ليرى كيف ستبدو له الآن الفقرات ذات الصِّلة.

إن كانت تلك الفقرات، حين قرأها جرانت في ضوء ذهنه الناقد، قد بدت له وشايةً مُثيرة للفضول، وعبثية في بعض المواضع، فقد بدت له الآن بغيضةً وشائنة. كان جرانت يشعر الآن بما اعتاد بات ابن لورا الصغير أن يُطلِق عليه «البغض». كما كان مُتحيرًا أيضًا.

هذه كانت رواية مورتون للأحداث. مورتون الشاهد، والضالع في المكيدة. لا بد أن مورتون كان على علمٍ دقيق بما حدث ما بين بداية شهر يونيو ونهايته من ذلك العام. ومع ذلك لم يرِد ذِكر الليدي إليانور باتلر، ولا إشارة إلى قانون اللقب الملكي. طبقًا لكلام مورتون، كانت حجة ريتشارد أن إدوارد كان في السابق مُتزوِّجًا من خليلته إليزابيث لوسي. لكن مورتون أشار إلى أن إليزابيث لوسي نفت تمامًا أنها كانت مُتزوِّجة من الملك.

فلماذا كذب مورتون الكذبة وعاد ليَنفيَها؟

ما السبب وراء استبدال إليانور باتلر بإليزابيث لوسي؟

لأنه بإمكانه أن ينفيَ بحقٍّ أن لوسي تزوَّجَت من الملك، لكنه لم يستطع فِعل ذلك في حالة إليانور باتلر؟

من المؤكَّد أن الافتراض كان أنه يُهمُّ كثيرًا شخصًا مجهولًا أن يبدوَ ادِّعاء ريتشارد بعدم شرعية الأطفال واهيًا.

وبما أن مورتون كان يكتب، بخطِّ يد مور المُعظم، لصالح هنري السابع، فمن المُحتمل أن هذا الشخص المجهول هو هنري السابع نفسه. هنري السابع الذي كان قد أتلف وثيقة قانون اللقب الملكي ومنع أي أحد من الاحتفاظ بنسخة منها.

تذكَّر جرانت شيئًا كان كارادين قد قاله.

لقد تسبَّب هنري في إلغاء القانون «من دون أن يُقرأ».

كان من المُهم جدًّا لهنري ألا تتبادر إلى الأذهان محتويات ذلك القانون، حتى إنه تكفَّل بصورةٍ خاصة بإتلافه غير المُعلَن.

فلماذا كان هذا من الأهمية بمكان لهنري السابع؟

لماذا كان من المهم لـ «هنري» تحديد حقوق ريتشارد؟ لم تكن المسألة أنه كان بوسعه أن يقول: «حُجة ريتشارد مكذوبة؛ ولذا فإن حُجتي مقبولة.» أيًّا كان ادِّعاء هنري تيودور وزعمه الضعيف الهزيل فقد كان مصدره آل لانكستر، ولم يتدخَّل ورثة يورك في المسألة.

إذَن لماذا كان من الأهمية العُظمى لهنري أن تُنسى محتويات قانون اللقب الملكي؟

ما السبب في إخفاء إليانور باتلر، واستبدالها بسيدة لم يسبق لأحدٍ أن ألمح إلى أنها كانت مُتزوجة من الملك؟

استغرق جرانت بسعادة في التفكير في هذه المشكلة حتى قبل وقت تناول العشاء بالضبط، حين أتى الحارس ومعه رسالةٌ قصيرة له. قال الحارس، وهو يُسلمه ورقةً مطوية: «يقولون في المدخل الأمامي إن صديقك الأمريكي هذا ترك لك هذه.»

فقال جرانت: «شكرًا لك. ماذا تعرف عن ريتشارد الثالث؟»

«هل تُوجَد جائزة؟»

«لأجل ماذا؟»

«لأجل الاختبار.»

«لا، إنما الأمر مجرد إرضاء للفضول الفكري. ماذا تعرف عن ريتشارد الثالث؟»

«كان أوَّل من ارتكب عِدَّة جرائم قتل.»

«عدة جرائم؟ كنت أظنُّ أنه قتل ابنَي أخيه فحسب؟»

«لا، أوه، لا. لا أعرف الكثير عن التاريخ، لكني أعرف هذا. لقد قتل أخاه، وابن عمومته، والملك العجوز المسكين في البرج، ثم اختتم بقتل ابنَي أخيه الصغيرَين. إنه قاتل بالجملة.»

أخذ جرانت يُفكِّر في ذلك.

«إذا ما قلت لك إنه لم يقتل أحدًا قط، ماذا كنت لتقول؟»

«سأقول إن من حقك تمامًا أن تقول رأيك. فبعض الناس يعتقدون أن الأرض مُسطَّحة. وبعض الناس يعتقدون أن نهاية العالم ستحلُّ عام ٢٠٠٠. وبعض الناس يعتقدون أن الحياة بدأت قبل أقلَّ من خمسة آلاف عام. ستسمع أشياء أطرف من هذا بكثير عند قوس ماربل آرش في يوم الأحد.»

«أمَا كنت لتتدبَّر الفكرة على أنها مِثالٌ استثنائي؟»

«أجدها تبعث على التفكير فعلًا، لكنها ليست ممَّا يُمكنك أن تُطلِق عليه أمرًا معقولًا، إن جاز التعبير. لكن لا تدعني أعترض طريقك. حاوِل أن تطرحها على نطاقٍ أوسع. اذهب إلى قوس ماربل آرش يوم الأحد واعرضها على الناس هناك، وأراهنك أنك ستجد الكثير من المُناصِرين. بل ربما تبدأ حركة مُناصِرة للفكرة.»

ثم رفع الرجل يدَه في بتحيةٍ غريبة، وابتعد وهو يُهمهِم في نفسه؛ آمنًا منيعًا.

فكَّر جرانت في نفسه قائلًا: «فليُساعدني الرب، ليس ذلك ببعيد. إن تعمَّقتَ أكثر في هذه المسألة، فسأجد نفسي واقفًا على منبرٍ مُؤقَّت في قوس ماربل آرش.»

فتح رسالة كارادين وقرأ: «قلتَ إنك تُريد أن تعرف إن كان الورثة الآخرون للعرش قد نجَوا من ريتشارد. أقصد كما حدثَ مع الصبيَّين. نسيتُ أن أُخبرك: أَعِدَّ لي بهم قائمةً حتى أتمكَّن من البحث عنهم. أظنُّ أن هذه القائمة ستكون ذات أهمية.»

حسنًا، حتى وإن مضى العالَم كله في طريقه مُهمهِمًا، بسرعة ولا مُبالاة، فعلى الأقل كان جرانت يحظى بالأمريكي الشابِّ إلى جواره.

طرح جرانت كتاب مور المُعظَّم جانبًا، بما فيه من روايات تُشبِه ما في صحف الأحد من مشاهد هستيرية واتهاماتٍ شائنة، ومدَّ يده إلى رواية الطالب الرصين للتاريخ حتى يتسنَّى له فهرسة المنافسين المُحتمَلين لريتشارد الثالث على ولاية عرش إنجلترا.

وبينما كان يضع كتاب مور ومورتون من يده، تذكَّر شيئًا.

ذلك المشهد الهستيري أثناء انعقاد المجلس في البرج الذي أورده مور، تلك الفورة المسعورة من جانب ريتشارد على الشعوذة التي كانت قد شلَّت ذراعه، كان ذلك في وجه جين شور.

كان التباين صاعقًا ومُدهشًا بين المشهد المَروي، الذي لا طائل من ورائه والمُنفِّر حتى للقارئ غير المُهتم، والطبيعة اللطيفة المُتحرِّرة، والتي تكاد تقترب من كونها عفوية، للخطاب الذي كان ريتشارد قد كتبه بالفعل عنها.

فكَّر جرانت في نفسه قائلًا مرةً أُخرى: «فليُساعدني الرب، إن كان عليَّ أن أختار بين رجلٍ كتب تلك الرواية ورجلٍ كتب ذلك الخطاب، فسأنحاز إلى جانب الرجل الذي كتب الخطاب، أيًّا كان ما فعله كلٌّ منهما إلى جانب ذلك.

جعله تفكيره في مورتون يؤجِّل إعداد قائمة الورثة من آل يورك إلى بعد أن يكتشف ما حلَّ في نهاية المطاف بجون مورتون. بدا لجرانت أن جون مورتون، بعد أن استفاد

من رفاهية كونه ضيفًا في قصر بكنجهام لتنظيم جهود مشتركة بين آل وودفيل ولانكستر (والتي سيُحضِر خلالها هنري تيودور السفن والقوات من فرنسا، وسيلتقيه دورست وبقية آل وودفيل مع الناقِمين ممَّن يُمكنهم إقناعهم باتباعهم في إنجلترا)، هرب إلى أراضي صيده القديمة في منطقة إيلي، ومن هناك إلى أوروبا. ولم يعُد حتى جاء في أعقاب هنري الذي كان قد انتصر في معركتَي بوسوورث والتاج الملكي، وفي أثناء ذلك كان جون مورتون نفسه في طريقه إلى كانتربري، وقد حاز قبعة الكاردينال وخلوده بصفته مورتون صاحب «شوكة مورتون». وهي الشيء الوحيد تقريبًا الذي كان يتذكَّره أي تلميذ في مدرسة عن سيده هنري السابع.

طوالَ ما تبقَّى من المساء أخذ جرانت بسعادةٍ يتصفح كتب التاريخ على مهَل وعلى غير هُدًى، يجمع أسماء ورثة العرش.

كانوا كثيرين. أولاد إدوارد الخمسة، وابن جورج وابنته. وإن استُبعِد هؤلاء، الأولون لكونهم غير شرعيِّين، والأخيران لعدم الأهلية، كان يُوجَد شخص آخَر مُحتمل؛ وهو ابن أخته الكبرى إليزابيث. كانت إليزابيث هي دوقة سوفولك، وكان ابنها هو جون دي لا بول، إيرل لينكولن.

كان يُوجَد أيضًا في العائلة ولدٌ لم يتوقَّع جرانت وجوده. بدا أن ذلك الطفل الرقيق في ميديلهام لم يكن هو ابن ريتشارد الوحيد. إذ كان له ابنٌ آخر من علاقةٍ عاطفية؛ ولد يُدعى جون. جون من جلوستر. ولدٌ لم يكن له أهمية من حيث المنزلة أو المكانة، لكن وجوده كان مُعترَفًا به وكان يعيش في المنزل. كان هذا عصرًا يُقبَل فيه ابن السِّفاح من دون الشعور بالأسى. لا شكَّ في أن «الغازيَ» جعل ذلك الأمر دارجًا. ومنذ ذلك الحين فصاعدًا روَّج الغُزاة لانعدام الضَّرَر من هذا الأمر. ربما من باب التعويض.

أعدَّ جرانت لنفسه مُذكِّرة مُساعِدة.

إدوارد:

إدوارد، أمير ويلز ريتشارد، دوق يورك إليزابيث

سيسيلي

آن

كاثرين

بريدجيت

إليزابيث:

جون دي لا بول، إيرل لينكولن

جورج:

إدوارد، إيرل ورويك

مارجريت، كونتيسة سالزبوري

ريتشارد:

جون من جلوستر

ثم نسخَها من أجل أن يستخدمها كارادين الشاب، وكان في أثناء ذلك يتساءل كيف تسنَّى لأي أحد، وريتشارد بالأخص، أن يتصور أن التخلُّص من ابنَي إدوارد سيُبقيه آمنًا من التمرد عليه. كان المكان، كما يمكن أن يُطلِق عليه كارادين الشاب، يعجُّ بالورثة. يعجُّ ببُؤر (أم هي مراكز؟) الاستياء.

وللمرة الأولى لم يتجلَّ له فحسب انعدامُ جدوى قتل الصبيَّين، وإنما أيضًا أنها فكرة «حمقاء».

وإن كانت تُوجَد صفةٌ واحدة لم يكن من الممكن أن يتَّصف بها ريتشارد جلوستر، فهي من دون شكٍّ صفة الحُمق.

ثم بحث في كتاب أوليفانت ليرى ما يقوله عن ذلك الصدع الجلي في القصة.

قال أوليفانت: «من الغريب أنه لم يبدُ أن ريتشارد نشر أي خبر عن وفاة الصبيَّين.»

كان الأمر يعدو كونه غريبًا، كان غير معقول.

لو أن ريتشارد أراد اغتيال ابنَي أخيه فلا يُوجَد أدنى شكٍّ إذَن في أنه كان سيفعل ذلك باحترافية. كان يمكن أن يموتا بالحُمَّى، وكان جثماناهما سيُعرَضان أمام أعيُن العامة كما كان من المُعتاد أن يُفعَل مع الجثامين الملكية؛ حتى يعرف الجميع أنهما فارَقا الحياة.

لا يمكن لأحدٍ أن يقول إن شخصًا بعينه غير قادر على القتل — بعد سنواتٍ طويلة قضاها جرانت في حي إمبانكمنت أصبح يعرف ذلك يقينًا — لكن يمكن للمرء أن يكون واثقًا بأقصى درجات اليقين أن شخصًا بعينه لا يمكن أن يكون أحمق.

لكن أوليفانت لم يكن لدَيه شكوك فيما يتعلق بالجريمة. وطبقًا لما أورده أوليفانت فإن ريتشارد كان مُتوحِّشًا. ربما حين يُغطِّي مُؤرِّخ نطاقًا كبيرًا بحجم العصور الوسطى وعصر النهضة لا يمتلك من الوقت ما يكفي ليتوقَّف ويُحلل الأحداث بالتفصيل. قَبِل

أوليفانت كلام مور المُعظَّم، حتى حين كان يتوقَّف على عَجل ليتساءل بشأنِ أمرٍ غريب هنا وهناك. لم يُلاحِظ أن تلك الأمور الغريبة كانت تُقوِّض أُسُس نظريته.

مُمسكًا بكتاب أوليفانت في يدِه، تابَع جرانت القراءة. تابَع القراءة عن التقدُّم بانتصارٍ عبر إنجلترا بعد التتويج. أوكسفورد، جلوستر، ورسستر، ورويك. لم يُسجَّل صوتُ مُنشقٍّ واحد في تلك الجولة. لم يجد سوى جوقة من المُبارِكين الشاكرين. كان يسود ابتهاج بأن حكومةً صالحة ستكون هي الحكومة التي ستستمرُّ في الحُكم لعُمرٍ مديدٍ قادم. وبأنه في نهاية المطاف، لم تؤدِّ بهم وفاة إدوارد إلى سنوات من التفكك وصراعٍ مدَني جديد على شخص ابنه.

ومع ذلك حدث، أثناء هذا النصر، وهذه التزكية المُجمَع عليها، وهذا التهليل العام، أنْ بعث ريتشارد (طِبقًا لما ذكَره أوليفانت المُتأثِّر بمور المعظم) بتيريل عائدًا إلى لندن ليقتل الصبيَّين اللذَين كانا يستذكران دروسهما في البرج. بين يومَي السابع والخامس عشر من شهر يوليو. في ورويك. في أوج شعوره بالأمان، في قلب مَعقل آل يورك على الحدود مع ويلز، دبَّر لقتل صبيَّين فاقِدَين للشرعية.

كانت هذه قصةً مُستبعَدة للغاية.

بدأ جرانت يتساءل إن كان المُؤرِّخون يتمتَّعون بعقولٍ لا تزيد في قُدرتها على حُسن التقدير عن تلك «العقول الفذَّة» التي كان قد التقاها، والتي تتَّسم بالسذاجة البالغة.

لا بد أن يكتشف ومن دون تأخير، إن كان تيريل قد نفَّذ تلك المَهمَّة في شهر يوليو من عام ١٤٨٥، فلماذا لم يتعرض للمُساءلة إلا بعد مرور عشرين عامًا. أين كان في تلك الأثناء؟

لكن صيف ريتشارد كان مِثل الأول من أبريل. يعجُّ بالوعود التي لم يتحقق منها أي شيء. في الخريف كان لزامًا عليه أن يُواجه غزو آل وودفيل ولانكستر المشترك، الذي كان مورتون قد أعدَّه قبل أن يُغادر هو نفسه هذه الشُّطآن. شعرَ مورتون بالفخر من جانب آل لانكستر في هذه المسألة؛ إذ أتَوا ومعهم أسطولٌ من السفن الفرنسية وجيش فرنسي. لكن جانب آل وودفيل لم يتمكَّن من أن يُقدِّمُ إلا تجمُّعات صغيرة ومُتفرقة في مراكز متباعدة؛ جيلدفورد، وسالزبوري، وميدستون، ونيوبيري، وإكسيتر، وبريكون. لم يرغب الإنجليز في المشاركة مع هنري تيودور الذي لم يكونوا يعرفونه، ولا مع آل وودفيل الذين كانوا يعرفونهم حق المعرفة. حتى الطقس الإنجليزي ما كان يُريد أن يُساندهم. وانجرفت آمال دورست في رؤية أخته غير الشقيقة إليزابيث ملكةً على إنجلترا بصفتها

زوجة هنري تيودور في غمار فيضان نهر سيفرن. حاوَل هنري الرُّسوَّ جهة الغرب، لكنه وجد ديفون وكورنوول مُستاءَين من الفكرة. لذلك أبحر مُبتعِدًا باتجاه فرنسا مرةً أخرى، في انتظار يوم يكون حظُّه فيه مُواتيًا أكثر. وذهب دورست ليلحق بالحشد المُتزايد من المَنفيِّين من آل وودفيل الذين يتحلَّقون حول البلاط الملكي الفرنسي.

وهكذا انجرفت خُطة مورتون مع الأمطار الخريفية وعدم الاكتراث الإنجليزي، فأمكن لريتشارد أن ينعم بالسلام قليلًا، لكن مع قدوم الربيع وَطِئهم حزنٌ لم يتمكن أي شيء من مَحوِه. وهو موت ابنه.

قال المؤرِّخ: «قيل إن الملك أبدى أمارات حزن ممزوج باليأس؛ لم يكن وحشًا كاسرًا لدرجة أن يخلوَ من مشاعر الأُبوَّة.»

ولا من مشاعر كونه زوجًا كما يبدو. حيث أورد المؤرِّخون أن علامات المُعاناة نفسها بدت عليه بعد أقلَّ من عام، حين ماتت آن.

وبعد ذلك لم يكن أمامه سوى ترقُّبِ تجدُّد محاولات الغزو الذي كانت قد فَشِلت في السابق، وإبقاء إنجلترا في حالة دفاع، والقلق الذي تسبَّب فيه له استنزاف الخِزانة.

كان ريتشارد قد فعل أفضل ما بوسعه. فأعطى اسمه لبرلمانٍ نموذجي. وعقد سلامًا طال انتظاره مع اسكتلندا، ورتَّب لزواج بين ابنة أخيه وابن جيمس الثالث. وحاوَل جاهدًا أن يعقد سلامًا مع فرنسا، لكنه لم يُفلِح في ذلك. في البلاط الملكي الفرنسي كان هنري تيودور موجودًا، وهناك كان هنري تيودور هو الفتى المُدلَّل والمُفضَّل. كانت مسألةَ وقت فقط قبل أن يرسوَ هنري في إنجلترا، لكن هذه المرة بمُسانَدةٍ أفضل.

تذكَّر جرانت فجأةً الليدي ستانلي، أُم هنري الانفعالية المُنتمية لآل لانكستر. تُرى ما الدور الذي لعبته الليدي ستانلي في الغزو الذي أفسد صيف ريتشارد؟

وراح يبحث في الكتاب المطبوع حتى وجد ضالَّته.

كانت الليدي ستانلي قد وُجِدت مُذنِبة بتهمة التخابر مع ابنها والخيانة.

لكن تبيَّن مرةً أخرى أن ريتشارد كان مُتساهلًا جدًّا فيما يخصُّ مصلحته. إذ صُودِرت أملاك الليدي ستانلي، ولكن سُلِّمت لزوجها. وكذلك سُلِّمت إليه الليدي ستانلي نفسها. وذلك بغرض التحفُّظ عليها. لكن الطريف في الأمر أنه كان من شِبه المؤكَّد أن ستانلي نفسه كان على عِلم بالغزو مثل زوجته.

حقًّا، لم يكن الوحش يتصرَّف وفقًا لطبيعته.

بينما كان جرانت يستسلم للنوم قال له صوتٌ في عقله: «إن كان الصبيَّان قد قُتِلا في شهر يوليو، وكان الغزو المُشترك من آل وودفيل وآل لانكستر قد وقع في شهر أكتوبر، فلماذا لم يستخدموا مسألة مَقتل الصبيَّين وسيلة استنفار؟»

بالطبع كان قد خُطِّط للغزو قبل أن يكون هناك أي شيء عن قتل الصبيَّين؛ كان غزوًا كاملًا يشتمل على خمس عشرة سفينة وخمسة آلاف مُرتزق، ولا بد أن التحضير استغرق وقتًا طويلًا. لكن بحلول وقت الغزو لا بد أن الشائعات عن الفعل الشائن الذي ارتكبه ريتشارد كانت قد انتشرت إن كان ثَمة شائعات من الأساس. فلماذا لم يُذيعوا خبر جريمته في إنجلترا كلها، حتى يأتيَهم الناس وينضمُّوا إلى مَسعاهم ذُعرًا من شناعةِ ما ارتكبه؟

الفصل الثاني عشر

قال جرانت لنفسه حين استيقظ في صباح اليوم التالي: «اهدأ، اهدأ. بدأتَ تُصبح مُنحازًا. وهذه ليست بالطريقة التي تُجرى بها التحقيقات.»

لذا، على سبيل الانضباط الأخلاقي، اتَّخذ جهة الادِّعاء.

بافتراض أن قصة السيدة باتلر كانت مُلفَّقة. قصة دُبِّرت بمساعدة ستيلينجتون. وبافتراض أنَّ اللوردات وكذلك العامة كانوا على استعداد لتقبُّل الخداع أملًا في حكومةٍ مُستقرَّة في المستقبل.

هل تسبَّب ذلك في اقتراب أحد من مسألة مَقتل الصبيَّين؟

لم يحدث، أليس كذلك؟

لو كانت القصَّة مُزيَّفة، فإن الشخص الذي كان ينبغي التخلُّص منه هو ستيلينجتون. كانت الليدي إليانور قد ماتت في دَير الراهبات قبل وقتٍ طويل؛ لذا لم تكن موجودة لتُدمِّر قانون اللقب الملكي تمامًا في أي وقت تشاء. لكن ستيلينجتون كان باستطاعته فعل ذلك. ولا شك أن ستيلينجتون لم يجد صعوبةً في استكمال حياته. فقد نجا من بطش الرجل الذي كان قد وضعه على العرش.

كان التضارب المُفاجئ في الإجراءات، والاقتضاب الحادُّ في نمط التحضير للتتويج، إما إدارةً مرحلية رائعة، أو ببساطةٍ ما يُمكن للمرء أن يتوقَّعه إن نزلت صاعقة اعترافات ستيلينجتون على أُذنَي شخصٍ مُستعد لأن يسمع. كان ريتشارد يَبلغ من العمر ... ماذا؟ أحد عشر عامًا؟ اثنَي عشر عامًا؟ ... حين جرى التوقيع على عقد باتلر وشُهِد عليه، كان من المُستبعَد أن يكون قد عرَف أيَّ شيء عنه.

لو كانت قصة باتلر مُختلَقة لتطويق عُنُق ريتشارد بمِنَّة، فلا بد أن ريتشارد كافأ ستيلينجتون. لكن لم يكن يُوجَد ما يدلُّ على الإجبار في اختيار ستيلينجتون كاردينالًا أو في منحه ترقيةً أو تقليده منصبًا.

لكنَّ أصدق الأدلة على أن قصة الليدي باتلر كانت طرحًا حقيقيًّا يَكمُن في الحاجة الماسَّة لدى هنري السابع لأن يُدمِّرها. لو كانت باطلة، فعندئذٍ كان كل ما عليه فِعله من أجل تقويض مِصداقية ريتشارد هو أن يُعلنها على الملأ ويجعل ستيلينجتون يتراجع عمَّا قال. لكنه بدلًا من ذلك تكتَّم عليها.

عند هذه النقطة أدرك جرانت بشيء من الشعور بالقرف أنه عاد إلى جانب الدفاع مرةً أُخرى. فقرَّر أن ينفض يدَه من الأمر. سيقرأ رواية لافينيا فيتش أو روبرت روج، أو أحد الكُتَّاب العصريين الرائجين الذين تقبع كُتبُهم الباهظة على الطاولة في إهمال، وسيَنسى أمر ريتشارد بلانتاجانت حتى يظهر كارادين الشابُّ مرةً أُخرى ليُجدِّد البحث والتحقيق.

وضع مُخطَّط شجرة عائلة أحفاد سيسيلي نيفيل في ظرف ووجَّهه إلى كارادين، وأعطاه إلى «القزمة» لتُرسِله. ثم قلَب البورتريه الذي كان يستند إلى الكُتب على وجهه؛ حتى لا يُغرَيه ذلك الوجه الذي كان السيرجنت ويليامز قد وضعه دون تَردُّد على المائدة، ومدَّ يدَه نحو كتاب سيلاس ويكلي «العَرق والأُخدود». وبعدها انتقل من صراعات سيلاس القذرة إلى فناجين شاي لافينيا، ومن فناجين شاي لافينيا إلى مرح روبرت في «الكواليس»، في استياءٍ مُتزايد، حتى عاوَد برينت كارادين الظهور في حياته مرةً أُخرى.

نظر إليه كارادين في قلق وقال: «لا تبدو مُشرِق الوجه كآخِر مرة رأيتك فيها يا سيد جرانت. ألستَ على ما يُرام؟»

فقال جرانت: «ليس فيما يتعلَّق بريتشارد، لا.» وتابَع: «لكنِّي لديَّ قصةٌ أخرى من القصص المُشابهة لتونيباندي من أجلك.»

وسلَّمه خطاب لورا عن المرأتَين الغارقتَين اللَّتَين لم تُغرقا قَط.

قرأها كارادين في سرورٍ أخذ يتزايد كشمس صُبح تُشرق، حتى تألَّق وجهه.

وقال: «هذا رائع. شيءٌ فائق، ويُمثِّل تونيباندي حتى النخاع حقًّا. بديع، جميل. ألم تكن تعلم بهذا الأمر من قبل؟ وتدَّعي أنك اسكتلندي؟»

فأوضح جرانت: «أنا اسكتلندي من جيلٍ مختلف.» وتابَع: «لا، كنت أعلم أن أيًّا من هاتَين المُعاهِدتَين لم تَمُت «في سبيل إيمانها» بالطبع؛ لكنني لم أكُن أعلم أنها، أو بالأحرى أنهما، لم تموتا مُطلَقًا.»

كرَّر كارادين في حيرة: «لم تَمُوتا في سبيل إيمانهما؟ أتعني أن «الأمر برُمَّته» مُختلَق مِثل مسألة تونيباندي؟»

أخذ جرانت يضحك. وقال في ذهول: «أظن ذلك.» واستطرد: «لم أُفكِّر في الأمر من قبلُ مُطلقًا. كنت أعرف منذ وقتٍ طويل أن الشهيدتَين لا تَعدُوان أن تكونا شهيدتَين أكثر من ذلك السفَّاح الذي سيُعدَم لقتله صاحبة المتجر العجوز في إسكس، حتى إنني توقفتُ عن التفكير في الأمر. لم يمُت أحد في اسكتلندا لأجل أي شيءٍ عدا الجرائم المدنية.»

«لكنَّني كنتُ أظنُّ أنهم أناسٌ ورِعون جدًّا؛ أقصد أولئك المُعاهِدين.»

«كنتَ تَنظُر إلى صور مُعاهِدين من القرن التاسع عشر. ذلك الجمع الصغير المُبجَّل الجالس وسط نباتات الخَلَنج يستمع إلى الواعظ؛ وجوه شابَّة جَذلة، وشعر أبيض يتطاير مع رياح الرب. كان المُعاهدون هم المُعادِل المُماثِل تمامًا للجيش الجمهوري الأيرلندي في أيرلندا. أقليَّة صغيرة عنيدة، وحشد مُتعطش للدماء بشِدَّة يُلحِق أشدَّ الخزي بالأمة المسيحية. إن ذهبت إلى الكنيسة يوم الأحد بدلًا من الذهاب إلى مكان اجتماعهم، فمن المُرجَّح أن تستيقظ يوم الإثنين لتجدَ حظيرتك مُحترِقة أو أوتارَ أرجُلِ جيادك مقطوعة. وإن كنتَ مُجاهِرًا أكثر باعتراضك فستُرْدى صريعًا. إن الرجال الذين أطلقوا النار على رئيس الأساقفة شارب في حضور ابنته في وضح النهار على أحد الطُّرق في مُقاطعة فايف، كانوا هم أبطال الحركة. «رجال يتحلَّون بالشجاعة والحَميَّة في سبيل الرب»، طبقًا لكلام تابعيهم المُعجَبين بهم. لقد عاش أولئك الرجال آمنين مُتبجِّحين وسط تابعيهم من المُعاهِدين في الغرب لسنواتٍ طويلة. وكان «مُكرِّز بالإنجيل» هو من أطلق النار على الأسقف هونيمان في شارع بإدنبرة. أطلقوا النار أيضًا على كاهن أبرشية كارسفيرن العجوز على عتبة باب منزله.»

فقال كارادين: «يبدو هذا حقًّا مِثل أفعال الأيرلنديين.»

«كانوا في الواقع أسوأ من الجيش الجمهوري الأيرلندي؛ لأن الأمر كان ينطوي على أحد عوامل الطابور الخامس. كانوا يتلقَّون دعمًا ماليًّا من هولندا، وكانت أسلحتهم تأتيهم منها أيضًا. ولم تكن حركتهم بائسة على الإطلاق. كانوا يتوقَّعون أن يستولوا على السلطة في أي وقت، ويحكموا اسكتلندا. كان كل وعظهم تحريضًا وفتنة. أعنف ما يمكن أن تتخيَّله من تحريض على الجريمة. ولم تصبر أي حكومة في العصر الحديث على مِثل هذا التهديد مِثلما فعلت الحكومة في ذلك الوقت. كان المُعاهدون يحصلون على العفو دائمًا وباستمرار.»

«عجبًا. وأنا الذي كنت أظنُّ أنهم يُحاربون من أجل حرية عبادة الرب بطريقتهم الخاصة.»

«لم يمنعهم أحد قطُّ من عبادة الرب بأي طريقة تُلائمهم. صدِّق أو لا تصدِّق، كان مُبتغاهم فرض أسلوبهم في الحُكم الكنَسي ليس على اسكتلندا فحسب، بل على إنجلترا. ينبغي أن تقرأ وثيقة «العهد» في يوم من الأيام. طبقًا لعقيدة العهد لم تكن حُرية العبادة مكفولةً لأي أحد، عدا المعاهِدين أنفسهم بالطبع.»

«وكل شواهد القبور والآثار التي يذهب السيَّاح لزيارتها ...»

«كلها زائفة مِثل حكاية تونيباندي. إن قرأت يومًا على شاهد أحد القبور أن جون هوزيت «مات بسبب تمسُّكه بكلمة الرب وعهد العمل الإصلاحي الاسكتلندي»، مع نظمٍ شعري أو سطرٍ نثري مؤثِّر تحته عن «تراب ضحَّى بنفسه في وجه الطغيان»، فتأكَّد حينها أن المدعو جون هوزيت ثبت جُرمه أمام محكمة عادلة بجريمة مدنية عقوبتُها الموت، وأن موته غير ذي صِلة بأي شكل من الأشكال بكلمة الرب.» ثم ضَحِك جرانت من بين أسنانه ضحكةً خفيفة. وأضاف: «ومن سُخرية القدر أن أعضاء مجموعة، كان اسمُها ملعونًا عند بقية اسكتلندا في ذلك الوقت، ارتقَوا إلى منزلة القدِّيسين والشهداء.»

قال كارادين وهو غارق في التفكير: «ما كنتُ لأعجب إن لم يكن ذلك مُحاكاة صوتية.»

«ماذا؟»

«كالقط والجرذ، كما تعلم.»

«ما الذي تتكلَّم عنه؟»

«أتذكُر ما قلتَه عن هجاء القط والفأر؛ ذلك الكلام المُقفَّى الذي جعله وقعُه يبدو إهانة؟»

«أجل، جعله خبيثًا.»

«في الواقع، كلمة «دراجوون» تؤدي نفس الغرض. أظن أن الدراجوونز كانوا ببساطةٍ شُرطة ذلك الزمن.»

«أجل. قوات المُشاة المحمولة.»

«حسنًا، إن وقع كلمة «دراجوونز» يبدو لي، ولأي شخص آخر يقرأ عنها حسبما أظن، مُريعًا. لقد أصبحت تعني شيئًا لم تكن تَعنيه من قبلُ قط.»

«أجل، أفهم. قوة قاهرة. في الواقع، لم تكن الحكومة تمتلك سوى حَفنة صغيرة من الرجال لحفظ الأمن في مساحةٍ شاسعة؛ لذا كانت كفَّة المُعاهدين أرجح دائمًا. كانت كذلك بطُرقٍ شتَّى. لم يكن في استطاعة فرد من الدراجوونز (والتي يُقصَد بها رجل شرطة) أن يُلقيَ القبض على أي أحد من دون مُذكِّرة ضبط (لم يكن في استطاعته أن يُدخِل جواده

إلى الإسطبل من دون إذن المالك، إذا تطلَّب الأمر ذلك)، لكن لم يكن يُوجَد ما يعوق مُعاهدًا يَكمُن وسط نباتات الخلنج ويقتنص أفراد الدراجوونز وقتما شاء. وهو ما كانوا يفعلونه بالطبع. والآن هناك مجموعةٌ كاملة من الكتابات عن التقيِّ المسكين المظلوم الذي يَرقُد وسط نبات الخلنج ومعه مُسدَّسه، وعن فرد الدراجوونز المُتوحِّش الذي مات أثناء تأدية عمله.»

«مثل ريتشارد.»

«مثل ريتشارد. إلامَ وصلتَ في مسألة تزييف الوقائع؟»

«في الواقع، لم أتمكن بعدُ من التوصُّل إلى ما كان هنري قلقًا بشأنه ودفعه إلى التعتيم على ذلك القانون وكذلك إبطاله. حدث تعتيم تامٌّ على الأمر، وكان مَنسيًّا لسنوات حتى ظهرت المسودة الأصلية، بالصدفة البحتة، في سجلات البرج. وطُبِعت في عام ١٦١١. طبع سبيد النصَّ الكامل في كتابه «تاريخ بريطانيا العُظمى».»

«أوه. إذَن لا شك على الإطلاق بشأن قانون اللقب الملكي. اعتلى ريتشارد العرش كما ينصُّ القانون، ورواية مور المُعظَّم هراء. لم تكن تُوجَد على الإطلاق امرأة تُدعى إليزابيث لوسي في هذه المسألة.»

«لوسي؟ من إليزابيث لوسي؟»

«أوه، لقد نسيت. لم تكن موجودًا عندما توصَّلت إلى ذلك الأمر. طبقًا لما ذكر مور المُعظم، ادَّعى ريتشارد أن إدوارد كان مُتزوجًا من إحدى خليلاته، وتُدعى إليزابيث لوسي.»

كانت نظرة التقزُّز على وجه الشاب كارادين الوديع التي كان يتسبَّب فيها دومًا ذِكر مور المعظم تجعله يبدو كأنه يكاد يشعر بالغثيان.

«ذلك هراء.»

«هذا ما أشار إليه مور المُعظم بعجرفة.»

قال كارادين وقد فَهِم المغزى: «لماذا كانوا يرغبون في إخفاء إليانور باتلر؟»

«لأنها تزوَّجت إدوارد بالفعل، وكان الأطفال بالفعل غير شرعيين. وبالمناسبة، إن كان الأطفال غير شرعيين حقًّا، فلن يهبَّ أحدٌ لتأييدهم، ولن يُمثِّلوا خطرًا على ريتشارد. هل لاحظتَ أن الغزو المشترك من آل وودفيل وآل لانكستر كان لأجل هنري، وليس لأجل الصبيَّين، رغم أن دورست كان أخاهم غير الشقيق؟ وكان ذلك قبل أن تصِله أي شائعات عن موتهم. من منظور قادة تمرد دورست ومورتون، لم يكن الصبيَّان يُمثلان أي أهمية. كانوا يدعمون هنري. بهذه الطريقة، سيَعتلي زوج أخت دورست عرش إنجلترا، وستكون الملكة أخته غير الشقيقة. الأمر الذي من شأنه أن يُمثِّل تحولًا محمودًا لهاربٍ مُفلس.»

«أجل. أجل، جيد، هذه نقطةٌ صحيحة عن أن دورست لا يقاتل من أجل إعادة أخيه غير الشقيق إلى العرش. لو كانت تُوجَد فرصة ولو ضئيلة لأن تقبل إنجلترا الصبي، فمن المؤكَّد أنه كان سيدعم الصبي. سأخبرك بشيءٍ آخر مُثير للاهتمام وجدتُه. وهو أن الملكة وبناتها سرعان ما خرجنَ من ملاذهنَّ الآمن. إن حديثك عن ابنها دورست هو ما جعلني أتذكَّر. ولم تخرج من ملاذها الآمن فحسب، وإنما استقرَّت كأن شيئًا لم يكن. وبناتها كنَّ يذهبنَ إلى الاحتفالات في القصر. أتعرف ما هو المقابل؟»

«لا، ماذا؟»

«كان ذلك «بعد أن «اغتِيل» الأميران». أجل، وسأُخبرك بشيءٍ آخر. بعد أن قُتِل ولداها على يدِ عمِّهما الشِّرير، تكتب الملكة إلى ابنها الآخر في فرنسا — دورست — وتطلب منه أن يعود للوطن ويتصالح مع ريتشارد، الذي سيُحسِن معاملته.»

ساد الصمت بينهما.

لم تكن تُوجَد عصافير تُزقزق في هذا اليوم. فقط صوت المطر الهادئ وهو يتساقط على النافذة.

أخيرًا قال كارادين: «لا تعليق؟»

قال جرانت: «أتعرِف، من وجهة نظر رجل شرطة، لا يُوجَد أي دليل بحق ريتشارد على الإطلاق. وأعني ذلك حرفيًّا. ليس الأمر أن الأدلة ليست قوية بما يكفي. أقصد قوية بما يكفي ليَمثُل أمام المحكمة. حرفيًّا، لا يُوجَد أي دليل بحقِّه على الإطلاق.»

«في رأيي أنه لا يُوجد. وبخاصة حين أخبرك أن كلَّ شخص من أولئك الأشخاص الذين أرسلت لي أسماءهم كانوا أحياءً يُرزَقون ويتمتعون بالحرية حين قُتِل ريتشارد في بوسوورث. لم يكونوا يتمتَّعون بالحُرية فحسب، بل كانوا تحت رعايةٍ جيدة للغاية. فلم يكن أطفال إدوارد يرقُصون في القصر فحسب، بل كانت مُخصصات ملكية. وقد جعل ريتشارد أحد أولئك الأطفال وليًّا للعهد حين مات ابنه.»

«أيهم؟»

«ابن جورج.»

«إذَن كان يُريد أن يعكس سريان القانون على أطفال أخيه.»

«أجل. فقد احتجَّ على إدانته، إن كنت تتذكَّر.»

«لقد فعل، حتى طبقًا لما ذكر مور المعظم. إذَن كان كل ورثة عرش إنجلترا يُباشرون حياتهم بحُرية ومن دون قيود أثناء فترة حُكم ريتشارد الثالث المتوحِّش.»

«بل كانوا أكثر من ذلك. كانوا جزءًا من المُخطط العام للأمور. أعني، جزءًا من العائلة والاقتصاد العام للمملكة. كنتُ أقرأ مجموعةً من سجلات يورك كتبها رجل يُدعى ديفيز. أقصد سجلات مدينة يورك، وليس العائلة. كان كلٌّ من وورويك الشاب — ابن جورج — وابن عمه، لينكولن الشاب، عضوًا في المجلس. أرسلت إليهم المدينة خطابًا. كان ذلك في عام ١٤٨٥. زِد على ذلك أن ريتشارد مَنح رتبة فارس إلى وورويك الشاب في الوقت نفسه الذي منح فيه ابنه الرتبة نفسها، في حفلٍ رائع في يورك.» توقَّف كارادين برهةً ثم قال في اندفاع: «سيد جرانت، هل تُريد أن تؤلِّف كتابًا عن هذا الأمر؟»

قال جرانت مُندهشًا: «كتاب!» وأردف: «لا سمح الرب. لماذا؟»

«لأنني أرغب في تأليف كتاب. وسيكون أفضل بكثير من كتاب أُؤلِّفه عن المُزارِعين.»

«افعل فورًا.»

«أريد أن يكون لديَّ شيء أُريه لوالدي. يظن أبي أنني عديم الفائدة؛ لأنني لا أستطيع أن أهتمَّ بالأثاث والتسويق والرسوم البيانية للمبيعات. إن أمسك في يده بكتابٍ ألَّفته أنا فقد يُصدِّق أنني لستُ حالةً ميئوسًا منها في نهاية المطاف. في الواقع، لا أستبعد أن يتفاخر بي على سبيل التغيير.»

نظر إليه جرانت نظرةً عطوفة.

ثم قال: «نسيتُ أن أسألك عن رأيك في منزل كروسبي.»

«أوه، لا بأس، لا بأس. لو رآه كارادين الثالث فسيرغب في أخذ تصميمه معه لدى عودته وإعادة بنائه في مكانٍ ما في آديرونداكس.»

«إن ألَّفتَ ذلك الكتاب عن ريتشارد، فسيفعل ذلك بكل تأكيد. سيشعر بأنه شريك في الملكية. ماذا ستُسمِّيه؟»

«الكتاب؟»

«أجل.»

«سأستعير عبارةً من هنري فورد، وأُسميه «التاريخ مجرد هراء».»

«ممتاز.»

«لكن، سيكون أمامي المزيد والمزيد من القراءة والبحث، قبل أن أشرع في الكتابة.»

«لا شك في أنك قرأت وبحثت كثيرًا. لكنك لم تصِل بعدُ إلى السؤال الحقيقي.»

«ما هو؟»

«من القاتلُ الفعلي للصبيَّين.»

«أجل، بالطبع.»

«إن كان الصبيَّان على قيد الحياة حين استولى هنري على البرج، فماذا حدث لهما؟»

«أجل. سأبدأ في العمل على ذلك. ما زلتُ أريد أن أعرف لماذا كان مُهمًّا لهنري أن يُعتِّم على محتويات قانون اللقب الملكي.»

نهض ليُغادر، ولاحظ البورتريه الذي كان موضوعًا على وجهه على الطاولة. فمدَّ يده وأعاده إلى موضعه الأصلي، وأسنده على كومة الكتب باهتمامٍ بالغ.»

ثم قال مُخاطبًا صورة ريتشارد المرسومة: «ابقَي هنا.» وأضاف: «سأُعيدكِ إلى حيث تنتمِين.»

قال جرانت بينما كان كارادين يخرج من الباب:

«فكَّرتُ للتوِّ في جزء من التاريخ «ليس» مُزيَّفًا.»

فتريَّث كارادين في المغادرة، وقال: «وما هو؟»

«مجزرة جلينكو.»

«هل حدثت فعلًا؟»

«حدثت فعلًا. و... برينت!» فعاد برينت وأطلَّ برأسه من الباب. وقال: «ماذا؟»

«كان الرجل الذي أعطى أوامر هذه المجزرة مُعاهِدًا مُتحمِّسًا.»

الفصل الثالث عشر

لم يكن قد مرَّ على مغادرة كارادين أكثر من عشرين دقيقة حين أتت مارتا مُحملةً بالأزهار والكتب والشموع والنيَّات الحسنة. وجدت جرانت مُنغمسًا في القراءة عن القرن الخامس عشر كما أورده السير كوثبرت أوليفانت. فحيَّاها في شرود لم تكن مُعتادةً عليه.

قال: «إن قُتِل ابنان لكِ على يد زوج أُختهم، فهل كنتِ ستقبلين معاشًا سخيًّا منه؟»

قالت: «أظنُّ أن السؤال بلاغي»، بينما كانت تضع حزمة الأزهار وتنظر حولها لترى أي المزهريَّات المشغولة بالفعل ستُلائم نوع هذه الأزهار أكثر.

«صدقًا، أظن أن كل المؤرِّخين مجانين. اسمعي هذا:

«من الصعب تفسير تصرُّف الملكة الأرملة؛ إذ يبدو من غير المؤكَّد ما إن كانت خائفة من إخراجها من ملجئها بالقوة، أو كانت مُتعبةً لا أكثر من إقامتها البائسة في ويستمنستر، وقرَّرت أن تتصالح مع قاتل ابنَيها بدافع من مجرد لامبالاةٍ شديدة من جانبها.»»

قالت مارتا: «رُحماك أيها الرب!» وهي تقف وفي إحدى يدَيها جرَّة من الخزف المصقول وأسطوانة زجاجية في الأُخرى، وتنظُر إليه وعلى وجهها أمارات تخمين جامح.

«أتظنِّين أن المؤرِّخين يُنصتون فعلًا إلى ما يقولون؟»

«مَن تلك الملكة الأرملة المذكورة؟»

«إليزابيث وودفيل. زوجة إدوارد الرابع.»

«أوه أجل. لعبتُ دورَها ذات مرة. كان دورًا «صغيرًا». في مسرحية عن ورويك صانع الملوك.»

قال جرانت: «ما أنا بالطبع إلَّا رجل شرطة.»

«لعلِّي لم أتحرَّك قطُّ في الدوائر الصحيحة. ربما قابلتُ أشخاصًا لُطفاء فقط. أين ينبغي للمرء أن يذهب ليلتقيَ بامرأةٍ أصبحت على علاقةٍ ودِّية بقاتل ابنَيها؟»

قالت مارتا: «اليونان على ما أظن. اليونان القديم.»

«لا يُمكنني أن أتذكَّر عينةً على ذلك من هناك حتى.»

«أو ربما مصحَّة للمجانين. هل كانت تُوجَد أي علامة من علامات البلاهة على إليزابيث وودفيل؟»

«لم يُلاحِظ أحدٌ قط. كانت ملكةً طيلة عشرين عامًا أو نحو ذلك.»

قالت مارتا وهي تُتابع ترتيب أزهارها: «الأمر هزلي بالتأكيد، آمُل أن ترى ذلك.» وتابعت: «ليس مأساةً على الإطلاق. كأنها تقول: «أجل، أعلم أنه قتل إدوارد وريتشارد الصغير، لكنه مخلوقٌ جذَّاب حقًّا، ومن الضارِّ كثيرًا على حالة الروماتيزم لديَّ أن أعيش في مكانٍ يدخله الضوء من الشمال».»

فضحك جرانت وعادت إليه حالته المِزاجية الجيدة.

«أجل، بالطبع. هذا هو قمَّة العبث. ينتمي هذا إلى كتاب «القوافي القاسية»، وليس إلى التاريخ المُعتدل. لذلك يُدهشني المؤرِّخون. إذ يبدو أنهم لا يتمتَّعون بأي موهبة لتقدير احتمالية أي موقف. ينظرون إلى التاريخ وكأنه عرضٌ في صندوق الدنيا؛ بشخصياتٍ ذات بُعدَين أمام خلفيةٍ بعيدة.»

«ربما حين ينبش المرء في السجلَّات المُهترئة لا يكون لديه وقت ليتعلَّم طبائع الناس. لا أقصد الناس الموجودين في السجلَّات، ولكن الناس بصفةٍ عامة. أقصد أناسًا من لحم ودم. وكيف تكون ردود أفعالهم تجاه الظروف.»

سألها جرانت: «كيف كنتِ ستؤدِّين دورها؟» وقد تذكَّر أن فَهْم الدافع هو ما كان يهمُّ مارتا.

«أؤدِّي دور مَن؟»

«المرأة التي خرجت من الدير وعقدت صداقةً مع قاتل ولدَيها مُقابلَ سبعمائة ميرك فضية كلَّ عام والحقِّ في حضور الحفلات في القصر.»

«لا يُمكنني أن أؤديَ دورها. لا تُوجَد امرأة كهذه خارج مسرحيات يوربيديس، أو في بيت أحد المُجرمين. لا يمكن للمرء أن يؤدِّيَ دورَها إلا باعتبارها شخصيةً تافهة ضعيفة. ستكون مادةً جيدة جدًّا لمسرحيةٍ هزلية، عندما أفكِّر في الأمر. بعيدًا عن التراجيديا الشعرية. من نوعية الشعر المُرسَل. ينبغي عليَّ أن أجرِّب ذلك في وقتٍ ما. من أجلِ حفلٍ خيري صباحي أو شيء مُشابه. آمُل أنك لا تكره نبات الميموزا. من الغريب، مع الأخذ في الاعتبار طول المدة التي عرفتُك فيها، أنني لا أعرف سوى القليل عمَّا تُحِب وما لا تحب. من الذي ابتكر شخصية المرأة التي أصبحت على علاقة صداقة بقاتل ابنَيها؟»

«لم يبتكر شخصيَّتَها أحد. خرجت إليزابيث وودفيل من الدير بالفعل، وقبلت معاشًا سنويًّا من ريتشارد. ولم يُكفَل لها المعاش فحسب، وإنما دُفِع لها. وذهبت بناتها إلى الحفلات في القصر وكتبت إلى ابنها الآخر — من زواجها الأول — تطلب منه أن يعود إلى الوطن من فرنسا ويتصالح مع ريتشارد. ورأي أوليفانت الوحيد في سبب هذا إما أنها كانت خائفةً من إخراجها من الدير عَنوةً (هل عرفتِ أنَّ شخصًا يُجَر جرًّا خارج الدير؟ الرجل الذي يفعل هذا يُعزَل، وقد كان ريتشارد ابنًا بارًّا بالكنيسة المقدسة) أو أنها كانت قد سئمت حياة الدير.»

«وما هي نظريتك عن هذا التصرُّف الغريب للغاية؟»

«التفسير الواضح هو أن الطفلَين كانا حيَّين يُرزقان. لم يُشِر أحد مطلقًا إلى العكس في ذلك الوقت.»

راحت مارتا تتأمَّل أغصان الميموزا المُزهرة. وقالت: «أجل، بالطبع. قلتَ إنه لم يكن يُوجَد أي اتهام في قانون الإدانة ذلك. أقصد بعد وفاة ريتشارد.» انتقلت عيناها من نبات الميموزا إلى البورتريه على الطاولة ثم إلى جرانت. وقالت: «تظن إذَن، تظن حقًّا بوصفك رجل شرطة رصينًا مُتزنًا أن ريتشارد لم يكن له أي صلة بمقتل الصبيَّين.»

«أنا واثق إلى حدٍّ بعيد من أنهما كانا حيَّين يُرزَقان حين استولى هنري على البرج لدى وصوله إلى لندن. فلا يُوجد «أي شيء» يُفسِّر إغفاله فضح الأمر لو كان الصبيَّان مفقودَين. هل يُمكنكِ أن تُفكري في أي سبب؟»

«لا. لا، بالطبع لا. الأمر غير قابل للتفسير إلى حدٍّ بعيد. لطالَما ظننتُ أن الأمر كان فضيحةً مُدوِّية. وأنه كان أحد الاتهامات الرئيسية لريتشارد. يبدو أنك وحَمَلي المُزغب تقضيان وقتًا شيِّقًا مع التاريخ. حين اقترحتُ عليك إجراءَ تحقيقٍ بسيط بهدف إضاعة الوقت وإيقاف الشعور بالوَخز لم يكن لديَّ أدنى فكرة أنني كنتُ أساهم في إعادة كتابة التاريخ. الأمر الذي يُذكِّرني بأن أتلانتا شيرجولد تبحث عنك.»

«عني أنا؟ إنني حتَّى لم ألتقِ بها من قبل.»

«ومع ذلك تبحث عنك كأنها تُريد اقتناصك. تقول إن سلوك برينت تجاه المتحف البريطاني أصبح سلوكَ مُدمنٍ تجاه مواد مُخدِّرة يتعاطاها. لا يمكنها أن تُبعده عنه. وإن تمكَّنت من إبعاده جسديًّا عنه، فإنه يُمضي الوقت في العودة إليه بذهنه، وكأنها غير موجودة بالنسبة له. حتى إنه توقَّف عن حضور مسرحية «إلى البحر في وعاء» حتى آخرها. أتراه كثيرًا؟»

«كان هنا قبل أن تأتيَ ببضع دقائق. لكنني لا أتوقَّع أن أسمع منه خبرًا مُجددًا لبضعة أيام قادمة.»

لكنه كان مُخطئًا في ذلك.

فقبل وقت تناول العشاء مُباشرةً، أتاه الحارس ومعه برقيَّة.

وضع جرانت إبهامه تحت لِسان ظرف الرسالة الرقيق وأخرج ورقتَي برقية. كانت البرقية من برينت.

> بحقِّ اللعنة لقد وقع أمرٌ شنيع (نقطة) تعرف ذلك السجل التاريخي المكتوب باللاتينية الذي حدَّثتُك عنه (نقطة) السجل الذي كتبه الراهب في كوريلاند آبي (نقطة) لقد اطَّلعت عليه للتوِّ ووجدت الشائعة فيه/شائعة مقتل الطفلَين (نقطة) هذا السجل مكتوب قبل وفاة ريتشارد؛ لذا فقد باء مَسعانا بالفشل/أليس كذلك/وباء بالفشل مسعاي أنا على وجه الخصوص، ولن أتمكن أبدًا من كتابة الكتاب الرائع الذي كنتُ أريد كتابته (نقطة) أتساءل إن يُسمَح لأيِّ أحدٍ أن ينتحر في نهركم أم إنه مُخصَّص للإنجليز فقط.
>
> برينت.

جاء صوت الحارس قاطعًا الصمت، فقال: «إن خدمة الرد على هذه البرقية مدفوعة يا سيدي. فهل ترغب في إرسال رد؟»

«ماذا؟ أوه. لا. ليس على الفور. سأبعث به بعد قليل.»

قال الحارس: «حسنًا، يا سيدي»، وهو ينظر في إكبار إلى ورقتَي البرقية — ففي أُسرة الحارس كانت البرقيات قاصرة على ورقةٍ واحدة فقط — ثم غادَر، ولم يكن يُهمُّهم هذه المرة.

أخذ جرانت يُفكِّر في الأخبار التي وصلته في بذخٍ عابر للأطلسي في هيئة برقية. أعاد قراءة البرقية.

قال في نفسه وهو غارق في التفكير: «كوريلاند.» لماذا بدا ذلك الاسم مألوفًا؟ لم يذكر أحدٌ كوريلاند من قبلُ حتى الآن في هذه المسألة. لم يتحدث كارادين إلا عن سجلٍّ تاريخي كتبه راهب في مكانٍ ما.

في حياته المهنية، كثيرًا ما واجَه جرانت حقيقة أو واقعةً بدا أنها دمَّرت القضية برُمَّتها، فلم يُصِبه حينئذٍ يأس أو جزَع. كان ردُّ فعله مثلما كان سيفعل لو كان في تحقيقٍ

مهني. فأخذ الحقيقة الصغيرة المُزعجة وفكَّر فيها. فكَّر فيها في هدوء. وبموضوعية. ومن دون الشعور باليأس الشديد الذي شعر به كارادين.

ثم قال مرةً أخرى في نفسه: «كوريلاند.» كانت كوريلاند تقع في مكانٍ ما في كامبريدج شَيَر. أم إنها في نورفولك؟ في مكانٍ ما على الحدود هناك، في الريف المُنبسط.

دخلت عليه «القزمة» بطعام عشائه، ووضعت الصحن المُسطَّح الذي يُشبه الوعاء حيث يُمكن له أن يصِل إليه في شيء من الراحة، لكنه لم يكن واعيًا لوجودها.

سألته: «أيُمكنك أن تصِل بيدك إلى البودنج بسهولةٍ من هنا؟» وإذ لم يُجبها، سألته ثانيةً: «سيد جرانت، أيُمكنك أن تصِل بيدك إلى البودنج إن تركتُه على الحافة هناك؟»

صاح فيها: «إيلي!»

«ماذا؟»

فقال بنعومةٍ وهو ينظر إلى السقف: «إيلي.»

«سيد جرانت، أتشعُر بأنك لستَ على ما يُرام؟»

أفاق جرانت إلى وجود وجه «القزمة» الصغير المُغطَّى جيدًا بمسحوق التجميل، والذي بدت عليه أمارات القلق؛ إذ حال بينه وبين الشقوق المألوفة في السقف.

قال: «أنا بخير، بخير. أفضل ممَّا كنتُ عليه يومًا. كُوني فتاةً مُطيعة وانتظري لحظة، لتُرسلي لي برقية. ناوليني لوح الكتابة. لا يُمكنني أن أصِل إليه وتلك الكتلةُ من بودنج الأرز بيني وبينه.»

ناولته اللَّوح والقلم، وعلى نموذج الرد المدفوع الأجر كتب:

أيُمكنك أن تجد شائعاتٍ مُماثلةً انتشرت في فرنسا في الوقت نفسه تقريبًا؟

جرانت

بعد هذا تناوَل عشاءه بشهيةٍ طيبة، وسكنت حركته حتى يروح في نومٍ هانئ. كان مُنجرفًا في تلك المرحلة الوسطية اللذيذة بين اليقظة والغياب عن الوعي حين شعرَ بأن أحدًا ما يميل عليه ليتفحَّصه. ففتح عينَيه ليرى من يكون، فأبصر مُباشرةً قزحيتَي «الأمازونية» البُنِّيتَين المُتلهِّفتين القلِقتَين، اللتين كانتا تبدوان في ضوء المصباح الخافت أكبر وأكثر شبهًا بالبقر من ذي قبل. وكانت تُمسك في يدِها بظرفٍ أصفر.

قالت: «لم أعرف ما ينبغي أن أفعل.» واستطردت: «لم أُرِد أن أُزعجك، لكنني لم أكُن أعرف إن كان الأمر ذا أهميةٍ أم لا. إنها بَرقية. لا يمكن للمرء أن يُخمِّن أبدًا. وإن لم تتسلَّمها الليلة فسيَعني هذا أن يتأخَّر تسليمها إليك اثنتَي عشرة ساعة. فقد انتهى دوام المُمرِّضة إنجهام؛ لذا لم يكن هناك من يمكن سؤاله حتى تأتيَ المُمرِّضة بريجز في الساعة العاشرة. آمُل أني لم أُوقِظك. لكنك لم تكُن نائمًا، أكنت كذلك؟»

طَمْأنها جرانت إلى أنها فعلت الصواب، فتنهَّدت تنهيدةً كادت تُسقِط صورة ريتشارد. ووقفت بجواره بينما كان يقرأ البرقية، وكانت بمظهرٍ يُوحي بالتأهُّب لأنْ تدعمه في حال احتوت البرقية على أخبارٍ سيئة. كانت «الأمازون» تَعتبر أن كل البرقيات تحمل أخبارًا سيئة.

كانت البرقية من كارادين.

وكانت تقول: «تقصد أنك تريد تَكرارًا للشائعة/تريد أن يُوجد تَكرار لها واتهامٌ آخر (علامة استفهام)؛ برينت.»

أخذ جرانت نموذج الرد المدفوع الأجر، وكتب: «أجل. يُفضَّل أن تكون في فرنسا.»

ثم خاطَب «الأمازونية»: «أظن أنه يمكنكِ أن تُطفئي المصباح. سأنام حتى السابعة من صباح الغد.»

راحَ في النوم وهو يتساءل كم سيَمضي من الوقت قبل أن يرى كارادين مُجدَّدًا، وما احتمالات وجود شائعة أخرى، وهو ما كان يُحبِّذه.

لكن في نهاية المطاف لم يكن قد مرَّ وقتٌ طويل عندما أتى كارادين مرةً أخرى، وهذه المرة لم تكن تبدو عليه أمارات الرغبة في الانتحار على الإطلاق. بدا بالفعل عريضًا بغرابة. بدا مِعطفه لباسًا مُلائمًا وليس واسعًا. نظر إلى جرانت.

قال: «سيد جرانت، أنت أعجوبة. أيُوجَد كثيرون مِثلك في سكوتلاند يارد؟ أم إنك حالة خاصة؟»

نظر إليه جرانت وهو لا يكاد يُصدِّق. فقال: «لا تُخبرني أنك وجدتَ شائعة مُماثلة في فرنسا!»

«ألم ترد ذلك؟»

«بلى. لكني لم أجرؤ على أن آمُل فيها. إذ بدَت احتمالاتٌ عكس ذلك هائلة. ما الشكل الذي اتخذَته الشائعة في فرنسا؟ سجلٌّ تاريخي؟ خطاب؟»

«لا. شيء أكثر إثارةً للدهشة. شيءٌ أكثر إثارة للجزَع في الواقع. يبدو أن المُستشار الملكي الفرنسي تحدَّث عن هذه الشائعة في خطبة له أمام مجلس الطبقات في مدينة تور.

كان الرجل بالفعل فصيحًا في الحديث عن هذا الأمر. وبطريقةٍ ما، كانت فصاحته هي العزاء الوحيد الذي أجده في هذا الموقف.»

«لماذا؟»

«بدا الأمر في مُخيِّلتي مِثل سيناتور يَعجَل بالهجوم على شخصٍ اتخذ إجراءً لن يستحسنه شعب ذلك السيناتور. كان الأمر أقربَ إلى السياسة منه إلى الدولة، إن كنتَ تفهم ما أقصد.»

«ينبغي أن تعمل في سكوتلاند يارد يا برينت. ماذا قال المستشار؟»

«في الواقع، إنَّ حديثه بالفرنسية، وفرنسيَّتي ليست قوية؛ لذا من الأفضل أن تقرأه بنفسك.»

ثم أعطاه ورقةً عليها كتابة بخطه الطفولي، فقرأ جرانت:

> أرجوكم أن تتأمَّلوا الأحداث التي وقعَت بعد وفاة الملك إدوارد في هذا البلد. تأمَّلوا طِفلَيه اللذَين كانا قبلئذٍ عظيمَين وجسورَين. لقد سفك دمهما وأفلت قاتلهما من العقاب، وانتقل التاج إلى قاتلهما بمباركة الشعب.

قال جرانت: «هذا البلد.» واستطرد: «إذَن كان الرجل مُناوئًا تمامًا لإنجلترا. إنه يُشير حتى إلى أن «سفك دم» الطفلَين كان بإرادة الشعب الإنجليزي. إنه يَعتبرنا عِرقًا همجيًّا.»

«أجل. ذلك ما كنت أقصده. إنه رجل سياسة يُحاول إحراز نقطة لصالحه. وفي الواقع، أرسل مجلس الوصاية على العرش في فرنسا بعثةً دبلوماسية إلى ريتشارد في العام نفسه — بعد حواليَ ستة أشهُر — لذا يُرجَّح أنهم وجدوا أن الشائعة لم تكن صحيحة. وقَّع ريتشارد على ضمانِ مرورٍ آمنٍ من أجل زيارتهم. وما كان ليفعَل ذلك لو كانوا لا يزالون يَقذفونه بوصفه قاتلًا لا يُمكن المساس به.»

«لا، ما كان لِيفعل. أيُمكنك أن تُزوِّدني بتاريخ حادثتَي التشهير هاتَين؟»

«بالطبع. لديَّ التواريخ هنا. كتب الراهب في كوريلاند عن أحداث في أواخر صيف عام ١٤٨٣. ويقول إنه كانت تُوجَد شائعةٌ مُفادها أن الطفلَين كانا قد قُتِلا، لكن لا أحد يعرف مآل هذه الشائعات. أما الإهانة فكانت في اجتماع مجلس الطبقات في يناير من عام ١٤٨٤.»

قال جرانت: «ممتاز.»

«لماذا أردتَ أن تُوجَد حالةٌ أخرى للشائعة؟»

«كإعادة للفحص والتدقيق. أتعرف أين تقع كوريلاند؟»

«أجل. في ريف فين.»

«في ريف فين. بالقُرب من إيلي. وكان مورتون يختبئ في ريف فين بعد هروبه من هجوم بكنجهام.»

«مورتون! أجل، بالطبع.»

«إن كان مورتون هو ناقل الشائعة، فلا بد أنه حدث انتشارٌ آخر لها في أوروبا، حين انتقل إلى هناك. هرب مورتون من إنجلترا في خريف عام ١٤٨٣، وظهرت الشائعة على الفور في يناير من عام ١٤٨٤. يتصادف أن كوريلاند مكانٌ معزول جدًّا؛ لذا فإنها تُمثِّل مكانَ اختباء مثاليًّا لأسقفٍ هارب حتى يتمكَّن من ترتيب خروجه من البلاد.»

قال كارادين مُجدَّدًا، وهو يلوي لسانه بالاسم: «مورتون!» وأضاف: «إنك تُصادف مورتون متى ما وجدتَ أمرًا غريبًا في هذه المسألة.»

«إذَن فقد لاحظتَ ذلك أيضًا.»

«كان هو لُبَّ تلك المؤامرة لقتل ريتشارد قبل أن يُتوَّج، وكان خلف التمرُّد ضد ريتشارد حين «تم» تتويجه، ودربُه إلى أوروبا كان قذرًا كدَربِ حلزون ... بالوقيعة وإثارة الفتن.»

«في الواقع جزئية الحلزون هذه محضُ استنتاج. ما كانت لتصمد في المحكمة. لكن لا ريب بشأن أنشطته بمجرد أن عبَر القنال. استقرَّ في وظيفة بدوامٍ كامل هدفُها الوقيعة وإثارة الفتن. وعَمِل مع صديق له يُدعى كريستوفر أورزويك جاهدَين كالقنادس من أجل مصلحة هنري؛ إذ «أرسلا خطابات تحريض ورُسلًا مُتخفِّين» إلى إنجلترا لتأجيج المشاعر المُناوئة لريتشارد.»

«حقًّا؟ لا أعرف بقدرِ ما تعرف أنت عما يصمد في المحكمة وما لا يصمد فيها، لكن يبدو لي أن درب الحلزون هذا يُعَدُّ استنتاجًا مقبولًا جدًّا، إن سمحتَ لي بقول ذلك. فأنا لا أظنُّ أن مورتون انتظر حتى يخرج من البلاد ليبدأ في زعزعة الاستقرار.»

«لا. لا، بالطبع لم ينتظر. كانت مسألة رحيل ريتشارد عن العرش مسألةَ حياة أو موت لمورتون. لو لم يرحَل ريتشارد، لكانت حياة مورتون المهنية قد انتهت. كان سيُقضى عليه. حينها لم يكن حتى سيُصبح من بين المُقرَّبين. لم يكن ليتبقَّى له شيء. كان سيُجرَّد من كل وظائفه، ولم يكن سيَتبقَّى له سوى عباءة الرهبنة. وهو الذي كان قاب قوسَين أو أدنى من أن يُصبح رئيس أساقفة. لكن إن تمكَّن من مساعدة هنري تيودور في اعتلاء

العرش فلن يُصبح رئيس أساقفة كانتربري وحسب، بل سيُصبح كاردينالًا أيضًا. أوه، أجل، كان من المُهم بشكلٍ قاهر ويائس لمورتون ألا يَحكُم ريتشارد إنجلترا.»

قال برينت: «كان الرجل المُناسب لمَهمَّة الوقيعة وإثارة الفتن. لا أظنُّ أنه كان يعرف التردُّد. وشائعةٌ صغيرة مِثل شائعة قتل الطفلَين ما كانت لتُمثِّل له أمرًا جللًا.»

قال جرانت، الذي كانت عادته في تقييم الأدلة ودراستها تتغلَّب على أي شيء حتى كُرهه لمورتون: «بالطبع، يُوجَد دومًا احتمالٌ ضعيف أنه كان يُصدِّق هذه الشائعة.»

«صدَّق أن الطفلَين اغتِيلا؟»

«أجل. ربما كانت من اختراعِ شخصٍ آخر. ففي نهاية المطاف، لا بدَّ أن البلاد كانت تعجُّ بالقصص التي روَّج لها آل لانكستر، مجرد سوء نية من ناحية، ودعاية مُغرِضة من ناحيةٍ أخرى. ربما كان الرجل ينقل آخرَ ما وصل إليه من عينات من ذلك.»

فقال برينت بنبرةٍ جافَّة: «هه! ما كنتُ لأستبعد عنه أنه يُمهِّد الطريق من أجل جريمته المُستقبليَّة.»

فضحكَ جرانت. وقال: «ما كنتُ لأستبعد عنه ذلك أيضًا. علامَ حصلت أيضًا من ذلك الراهب في كوريلاند؟»

«وجدتُ قليلًا من العزاء أيضًا. إذ تبيَّن لي بعد أن كتبتُ تلك البرقية المشوبة بالهلع أنَّ كلامه لا يُمكن أبدًا أن يُؤخَذ باعتباره حقائق لا ريب فيها. إذ كان يكتب ما يَصِل إليه من شائعات من العالم الخارجي. فهو يقول على سبيل المثال إن ريتشارد أقام حفلَ تتويج ثانيًا في يورك؛ وهذا بالطبع ليس صحيحًا على الإطلاق. فإن كان الرجل مُخطئًا بشأنِ حدثٍ كبير ومعروف كالتتويج، فلا يُمكننا أن نَثِق فيه بصفته ناقلًا للأخبار. لكنه كان بالمناسبة يعرف بالفعل بأمر اللقب الملكي. إذ سجَّل فَحْوى الموضوع برُمَّته، بما في ذلك الليدي إليانور.»

«هذا مُثير للاهتمام. فحتى أحد الرُّهبان في كوريلاند قد سَمِع بالمرأة التي من المُفترَض أن إدوارد كان مُتزوِّجًا منها.»

«أجل. لا بدَّ أن مور المُعظَّم ابتدع حكاية إليزابيث لوسي بعد ذلك بوقتٍ طويل.»

«ناهيك عن ذكر القصة الشائنة التي تقول بأنَّ ريتشارد استند في مُطالَبته بالعرش إلى فعلٍ مشين أتَتْه والدته.»

«ماذا؟»

«يقول إن ريتشارد أمر بإلقاء موعظة زُعِم فيها أن إدوارد وجورج كانا ابنَين لأُمه من رجلٍ آخر غير أبيه، وأنه كان الابن الشرعي الوحيد؛ ومن ثَم فإنه الوريث الحقيقي الوحيد للعرش.»

فقال كارادين الشابُّ بنبرةٍ ساخرة: «كان يمكن لمور المُعظَّم أن يُفكِّر في قصةٍ أكثر إقناعًا من هذه.»

«أجل. خاصةً أن ريتشارد كان يعيش في منزل أُمه في الوقت الذي ذاع فيه هذا الافتراء!»

«كان كذلك فعلًا. كنتُ قد نسيتُ ذلك. فأنا لا أتحلَّى بعقلية شُرطية سليمة. ما تقوله عن أن مورتون هو ناقل الشائعة دقيق جدًّا. لكن لنفترض أن الشائعة ظهرت في مكانٍ آخر، حتى بعدَ كلِّ هذا.»

«هذا مُمكِن بالطبع. لكنني على استعداد لأن أُراهنك بورقةٍ من فئة الخمسين جنيهًا منِّي مُقابل أي مبلغ منك أنَّ هذا لن يحدث. إنني لا أعتقد ولو للحظةٍ واحدة أنه كانت تُوجَد شائعةٌ مُتداوَلة مُفادها أن الصبيَّين فُقِدا.»

«ولمَ لا؟»

«لسببٍ أرى أنه مُفحِم. ذلك أنه لو كان يُوجَد أي شعور عام بعدم الارتياح، أو أي شائعات مُغرِضة أو أفعال تخريبية واضحة، لكان ريتشارد قد اتَّخذ من فوره إجراءاتٍ من شأنها إيقاف كل ذلك. فحين انتشرت الشائعات فيما بعدُ أنه كان يَتقدَّم للزواج بابنة أخيه إليزابيث — الأخت الكبرى للصبيَّين — انقضَّ عليها كالصقر. لم يُرسِل فحسب بالخطابات إلى المدن المختلفة يُنكِر الشائعة بعباراتٍ قاطعة، وإنما كان ثائرًا جدًّا (ومن الواضح أنه فكَّر في أن من المُهم كثيرًا ألَّا يتعرَّض للتشهير به)، حتى إنه استدعى «كبارات» لندن إلى أكبر قاعة أمكَنَه أن يجدها (حتى يتمكَّن من جمعهم كلهم فيها في وقتٍ واحد)، وأخبرهم وجهًا لوجه بما كان يجول في خاطره بشأن هذه المسألة.»

«أجل. بالتأكيد أنت مُحقٌّ. كان ريتشارد سيُنكِر هذه الشائعة على الملأ لو كانت مُتداوَلة. ففي نهاية المطاف، كانت تلك شائعةً مشينة ومُريعة أكثر من شائعةِ أنه كان سيتزوَّج من ابنة أخيه.»

«أجل، في الواقع كان بإمكان المرء في تلك الآونة أن يَحصُل على تشريعٍ يُحِلُّ له الزواج بابنة أخيه. ربما لا يزال بإمكان المرء فعل ذلك الآن بحسب علمي. ليس ذلك مجال تخصُّصي في سكوتلاند يارد. الأمر الأكيد أنه إن كان ريتشارد قد قطع هذه الأشواط من

أجل نفي شائعة الزواج تلك، فلا بدَّ أنه كان سيَقطع أشواطًا أكبر بكثير ليضع حدًّا لشائعة قتله للصبيَّين، لو كانت تلك الشائعة موجودة. هنا نجد أن الاستنتاج الحتمي أنه لم تكن تُوجَد شائعة مُتداوَلة باختفاء الصبيَّين أو ارتكاب فعل شائن بحقِّهما.»

«مُجرَّد مَزاعم محدودة واهية بين الفينز وفرنسا.»

«مجرد مَزاعم محدودة واهية بين الفينز وفرنسا. لا شيء في الصورة يُوحي بأي أمر مُقلِق بشأن الصبيَّين. أقصد: في التحقيق الشُّرطي يبحث المرء عن أيِّ اضطراب في مسلك المُشتبَه بهم في جريمةٍ ما. لماذا قرَّر فلان، الذي يذهب لمشاهدة الأفلام مساء كل خميس، أنه لن يذهب لمشاهدة الأفلام في تلك الليلة بالتحديد؟ لماذا قطع فلانٌ تذكرةَ ذهاب وعودة كالمعتاد لكنه لم يستخدمها على غير العادة؟ هذا النوع من الأمور هو ما أقصده. لكن في الفترة القصيرة بين اعتلاء ريتشارد للعرش وموته تجد الجميع يتصرَّفون بصورةٍ طبيعية جدًّا. خرجَت أمُّ الصبيَّين من الدير وتصالحت مع ريتشارد. واستكملت الفتَيات حياة البلاط الملكي. ويُفترَض أن الصبيَّين كانا لا يزالان يتلقَّيان دروسهما التي كانت قد أعاقتها وفاة والدهما. وأبناء عمومتهما الصغار كان لهم مكانٌ في المجلس، ويتمتَّعون بأهميةٍ كبيرة في مدينة يورك، بحيث تُرسَل الخطابات إليهم. يبدو المشهد كلُّه طبيعيًّا ومُسالِمًا، يمضي فيه الجميع في شئونهم الطبيعية، ولا تُوجَد إشارةٌ واحدة في أي مكان إلى وقوع جريمة قتل مُفزِعة وغير ضرورية في العائلة.»

«يبدو أنني سأكتب ذلك الكتاب في نهاية المطاف، يا سيد جرانت.»

«بكل تأكيد ستكتبه. فأنت لن تُنقِذ ريتشارد فحسب من هذا الافتراء، وإنما ستُبرِّئ ساحة إليزابيث وودفيل من تُهمة التغاضي عن مَقتل ابنَيها مُقابل سبعمائة ميرك فِضِّي في العام إلى جانب امتيازات أخرى.»

«بالطبع لا يُمكنني أن أكتب الكتاب وأتركه في مَهبِّ الريح هكذا. سيَتحتَّم عليَّ أن أجد على الأقل نظريةً تُفسِّر ما حدث للطفلَين.»

«ستفعل.»

انتقلت نظرات كارادين الوديعة من السُّحب الصغيرة الغائمة على نهر التيمز إلى جرانت، فأخذ يَنظُر إليه في تساؤل.

سأله: «لماذا تلك النبرة؟» وأضاف: «لماذا تبدو راضيًا عن نفسك هكذا؟»

«في الواقع، كنت أُتابع المسارات الشُّرطية. أثناء تلك الأيام المُملَّة التي كنتُ أنتظر فيها قدومك مرةً أخرى.»

«المسارات الشُّرطية؟»

«أجل. فتِّش عن المُستفيد، وما إلى ذلك. لقد اكتشفنا أنَّ موت الصبيَّين ما كان سيعود بأي نفع على ريتشارد. لذا فنحن نُتابِع طريقنا ونبحث لنرى على من كان سيعود النفع في تلك الحالة. وهنا يأتي دَور اللقب الملكي.»

«ما علاقة اللقب الملكي بجريمة القتل؟»

«لقد تزوَّج هنري السابع بأُخت الصبيَّين الكبرى. إليزابيث.»

«أجل.»

«وذلك عن طريق تعويض آل يورك عن اعتلائه العرش.»

«أجل.»

«وقد أضفى هنري على إليزابيث الشرعية من خلال إبطال قانون اللقب الملكي.»

«بالتأكيد.»

«لكن بإضفاء الشرعية على الأطفال فإنه تلقائيًّا جعل من الصبيَّين وريثَين للعرش قبلها. في الواقع، جعل من الصبي الأكبر فيهما ملكًا لإنجلترا بإبطال قانون اللقب الملكي.»

أصدر كارادين صوت طقطقة خفيفًا بلسانه. وكانت عيناه خلف إطار النظارة السميك تلمع من الابتهاج.

قال جرانت: «لذا، أقترح أن نُتابع التحقيق باتِّباع تلك المسارات.»

«بالتأكيد. ماذا تُريد؟»

«أُريد أن أعرف أكثر بكثير عن اعتراف تيريل. لكن أولًا، وقبل كل شيء، أُريد أن أعرف كيف تصرَّف الأشخاص المَعنيِّين. ما الذي حدث لهم، وليس ما أورد فلان عن فلان. تمامًا كما فعَلْنا في مسألةِ خلافة ريتشارد على العرش بعد وفاة إدوارد المُفاجئة.»

«حسن. ماذا تُريد أن تعرف؟»

«أريد أن أعرف ما حلَّ بكلِّ ورثة العرش من آل يورك والذين تركهم ريتشارد أحياءً يُرزَقون ومُنعَّمين. كل واحد منهم. أيُمكنك أن تفعل ذلك من أجلي؟»

«بكل تأكيد. هذا أمرٌ بسيط.»

«وأُريد أن أعرف المزيد عن تيريل.

أقصد عن الرجل نفسه. من كان، وماذا فعل.»

«سأفعل ذلك». نهض كارادين في جوٍّ من «أنا لها»، حتى إنَّ جرانت ظنَّ لوهلةٍ أنه سيُغلِق أزرار مِعطفه. ثم أردف: «أنا مُمتنٌّ لك كثيرًا، يا سيد جرانت على كلِّ هذا ... هذا ...»

«هذا المرح واللعب؟»

«حين تستعيد عافيتك كاملة، سوف ... سوف ... سوف آخُذك في جولةٍ حول برج لندن.»

«اجعلها رحلةَ ذهاب وعودة بالقارب إلى جرينتش. فنحن بني الجُزر لدَينا شغفٌ بكلِّ ما هو مُتعلق بالبحر.»

«كمِ المدة التي يظنُّون أنه سيستغرقها قيامُك من مَرقدك؟ أتعرِف؟»

«سأَقوم قبل أن تعود بالأخبار عن الورثة وعن تيريل على الأرجح.»

الفصل الرابع عشر

ما حدث أن جرانت لم يكن قد قام من مَرقده حين جاء كارادين، لكنه كان جالسًا مُعتدلًا.

فقال لبرينت: «لا يُمكنك أن تتخيَّل كم يبدو هذا الجدار المُقابل خلَّابًا، بعد السقف. وكم يبدو العالم صغيرًا وغريبًا وهو في وضعيته الصحيحة.»

تأثَّر جرانت بابتهاج كارادين الواضح في هذه الأثناء، ومرَّ وقتٌ قبل أن يَشرعا في العمل. كان جرانت هو من توجَّب أن يقول: «حسنٌ، كيف أبلى ورثة آل يورك في ظلِّ حكم هنري السابع؟»

قال الشابُّ وهو يُخرِج رِزمة ملاحظاته المعتادة ويسحب كرسيًّا بعَقِب إصبع قدَمه اليُمنى في عارضة الكرسي: «أوه، أجل.». ثم جلس على الكرسي. وقال: «من أين أبدأ؟»

«نحن نعرف ما حل بإليزابيث. لقد تزوَّجها هنري، وكانت ملكة إنجلترا حتى ماتت فأقدمَ على محاولة أن يتزوَّج جوانا المجنونة ملكة إسبانيا.»

«أجل. تزوَّجت إليزابيث من هنري في ربيع عام ١٤٨٦؛ في شهر يناير بالأحرى، بعد خمسة أشهُر من معركة بوسوورث، وماتت في ربيع عام ١٥٠٣.»

«سبعة عشر عامًا. مسكينةٌ إليزابيث. لا بدَّ أن تلك السنوات مرَّت كأنها سبعون عامًا مع هنري. إذ كان الرجل ما يُشار إليه تخفيفًا بأنه «عديم القيمة». لنُكمِل مع بقية أفراد الأُسرة. أقصد أطفال إدوارد. مصير الطفلَين مجهول. ماذا حلَّ بسيسيلي؟»

«كانت مُتزوجة من عمِّه المُسنِّ اللورد ويليس، وأُرسلت لتعيش في لينكولنشاير. أمَّا آن وكاثرين، اللتان كانتا طفلتَين، فقد أُعدَّتا لتتزوَّجا من اثنَين من أفاضل آل لانكستر حين كانتا كبيرتَين بما يكفي. بريدجيت، الصغرى، أصبحت راهبة في دارتفورد.»

«أمورٌ مألوفة جدًّا، حتى الآن. من يأتي بعد ذلك؟ ابن جورج.»

«أجل. ورويك الصغير. سُجِن في البرج مدى الحياة، وأُعدِم بزعم تخطيطه للهرب.»

«هكذا إذَن. ماذا عن ابنة جورج؟ مارجريت؟»

«أصبحت كونتيسة سالزبوري. وكان إعدامها على يد هنري الثامن بتهمةٍ مُلفَّقة يُعدُّ مثالًا كلاسيكيًّا على القتل القضائي.»

«وماذا عن ابن إليزابيث؟ الوريث البديل؟»

«جون دي لا بول. ذهب ليعيش مع عمَّته في بورجندي حتى ...»

«ليعيش مع مارجريت، أخت ريتشارد.»

«أجل. مات في انتفاضة سيمنِل. لكن كان له أخٌ أصغر لم تضعه في تلك القائمة. وقد أُعدِم على يد هنري الثامن. كان قد استسلم لهنري السابع في ظل وثيقة ضمان عدم تعرُّض؛ لذا أظنُّ أن هنري فكَّر أن خَرْقها قد يُفسد حظَّه. على أي حال كان قد أوشك أن يستنفد كلَّ رصيده من الحظ. أما هنري الثامن فلم يُجازف. ولم يتوقَّف عند دي لا بول. كان يُوجَد أربعةٌ آخرون أغفلتَهم من هذه القائمة. إكستر، وسوري، وبكنجهام، ومونتاج. تخلَّص الرجل من هؤلاء جميعًا.»

«وماذا عن ابن ريتشارد؟ جون؟ ابن السِّفاح.»

«منحَه هنري السابع معاشًا قدرُه عشرون جنيهًا في العام، لكنه كان أول من قُتِل من هؤلاء.»

«بأي تُهمة؟»

«بتُهمة أنه كان مَوضع شك لتَلقِّيه دعوةً للذهاب إلى أيرلندا.»

«أنت تمزح.»

«لا أمزح. كانت أيرلندا هي محلَّ تركيز المُوالِين للتمرُّد. وكانت أُسرة يورك شهيرةً جدًّا في أيرلندا، وحصوله على دعوة من تلك الجهة كان بمثابة الحصول على شهادة وفاة في نظر هنري. رغم أنني لا أستطيع أن أرى سببًا لانزعاج هنري من جون الشاب. إذ كان «شابًّا مُتَّسِمًا بالحيوية وحسَن التصرُّف» طبقًا لما ذُكِر في كتاب «العهود» بالمناسبة.»

قال جرانت بنبرةٍ لاذِعة للغاية: «كانت حُجَّته في المطالبة بالعرش أفضل من حجة هنري. إذ كان هو الابن غير الشرعي الوحيد للملك. بينما كان هنري هو حفيدَ ابنٍ غير شرعي لأصغر أبناء الملك.»

ساد الصمت بُرهة.

ثم قال كارادين قاطعًا الصمت: «أجل.»

«أجل على ماذا؟»

«على ما تظن.»

«يبدو الأمر كذلك، حقًّا. فهما الوحيدان اللذان يغيبان عن القائمة.»

ساد الصمت مرةً أخرى.

ثم قال جرانت بعد قليل: «كانت جرائم القتل كلها قضائية. قتل تحت مِظلَّة القانون. لكن لا يمكن للمرء أن يُطبِّق عقوبة الإعدام بحقِّ طفلَين صغيرَين.»

«لا، لا يمكن له ذلك»، قال كارادين مُوافقًا إيَّاه، وتابَع مُراقبته للعصافير. «كان من المُحتَّم أن يتمَّ الأمر بطريقةٍ أخرى. ففي نهاية المطاف، كان الصبيَّان هما المُهمَّين.»

«كانا هما الشخصيتَين الرئيسيتَين.»

«كيف نبدأ إذَن؟»

«كما فعلنا في حالة خلافة ريتشارد على العرش. اكتشِف أين كان الجميع في الشهور الأولى من حُكم هنري وماذا كانوا يفعلون. لنقل في السنة الأولى من حُكمه. سيكون ثَمة كسر للنمط عند أحدهم، تمامًا كما حدث أثناء تحضيرات تتويج الصبي.»

«حسنًا.»

«هل توصَّلت إلى أي شيء عن تيريل؟ من كان؟»

«أجل. لم يكن كما تصوَّرته مُطلقًا. كنت قد تصوَّرت أنه عالة من نوعٍ ما؛ ألم تفعل؟»

«بلى، أظنُّني تصوَّرته كذلك. ألم يكن عالة؟»

«لا. كان شخصًا ذا حيثية. اسمه السير جيمس تيريل من جيببينج. وكان عضوًا في العديد من ... اللجان، كما أظن أنكم تُطلِقون عليها، أثناء حكم إدوارد الرابع. وقد تقلَّد لقب قائد فُرسان، أيًّا كان ما يعنيه ذلك، أثناء حصار بيرويك. وقد أبلى بلاءً حسنًا في ظل حُكم ريتشارد، لكنني لا أستطيع أن أجد دليلًا على أنه حضر معركة بوسووث. إذ أتى الكثيرون مُتأخِّرين للغاية إلى المعركة — أكنت تعرف ذلك؟ — لذا لا أظن أن هذا يعني شيئًا خاصًّا. على كل حال، لم يكن من نوعية الخادم الخنوع كما تصوَّرتُه دومًا.»

«هذا مُثير للاهتمام. كيف أبلى في ظلِّ حُكم هنري السابع؟»

«في الواقع، هذا هو الأمر المُثير للاهتمام. إذ يبدو أنه ازدهر كثيرًا في ظل حكم هنري؛ كونه كان خادمًا أمينًا وناجحًا لآل يورك. عيَّنه هنري آمرًا على حصن جوينيس. ثم أُرسِل سفيرًا لروما. وكان من بين المُفوِّضين للتفاوض بشأن معاهدة إتابلس. ومنحَه هنري عوائد بعض الأراضي في ويلز مدى الحياة، لكنه حمله على التنازل عنها مُقابل عوائد أراضي بلدية جوينيس التي كانت بنفس القيمة، لا يُمكنني أن أفهم سبب ذلك.»

فقال جرانت: «أنا أفهم السبب.»

«حقًّا؟»

«ألم تُلاحِظ أن كل مَراتب الشرف والسلطات التي مُنِحت له كانت جميعها خارج إنجلترا؟ حتى مكافأته المُتمثِّلة في عوائد الأرض.»

«أجل، هكذا هي فعلًا. ماذا تفهم من ذلك إذَن؟»

«لا شيء في الوقت الراهن. ربما أنه وجد جوينيس أفضل بسبب الْتِهاب الشُّعَب الهوائية الذي كان مُصابًا به. يمكن للمرء أن يتعمَّق أكثر من اللازم في القراءات فيما يتعلق بالمعاملات التاريخية. إنها، مِثل مسرحيات شكسبير، تفتح الباب أمام عددٍ لا حصر له تقريبًا من التفسيرات والتأويلات. كم دامت فترة الهناء هذه بينه وبين هنري السابع؟»

«أوه، فترة طويلة إلى حدٍّ كبير. كان كل شيء على خير ما يُرام حتى عام ١٥٠٢.»

«وما الذي حدث في عام ١٥٠٢؟»

«تناهى إلى سمع هنري أنه كان يستعدُّ لمساعدة أحد أفراد آل يورك في البرج على الهرب إلى ألمانيا. فأرسل حامية كاليه على بَكْرة أبيها لمُحاصَرة حصن جوينيس. لكن ذلك لم يكن سريعًا بما يكفي من وجهة نظره، فأرسل القيِّم على الخاتم الملكي؛ أتعرِف ما يعنيه هذا اللقب؟»

فأومأ جرانت إيجابًا.

«أرسل القيِّم على الخاتم الملكي — يا لها من تسمياتٍ تلك التي اخترعتموها أيها الإنجليز من أجل مسئوليكم الرسميين — ليَعرض عليه ضمان عدم التعرض إن أتى على متن مَركب إلى كاليه وتشاور مع وزير الخِزانة.»

«دعني أَحزِر.»

«لا داعي، أليس كذلك؟ انتهى به الأمر في زنزانة في البرج. وقُطِع رأسه «على عجل ودون محاكمة» يوم الإثنين المُوافق السادس من شهر مايو لعام ١٥٠٣.»

«وماذا عن اعترافه؟»

«لم يكن يُوجَد اعتراف.»

«ماذا؟!»

«لا تَنظُر إليَّ هكذا. أنا لست بمسئول.»

«لكنني كنت أظنُّ أنه اعترف بقتله للصبيَّين.»

«أجل، وذلك طبقًا لرواياتٍ عديدة. لكنها روايات عن اعتراف، وليست ... ليست نصًّا له، إن كنت تفهم ما أرمي إليه.»

«أتعنى أن هنري لم يَنشُر اعترافًا؟»

«لا. روى مُؤرِّخه الأجير بوليدور فيرجيل سردًا عن كيفية وقوع جريمة القتل. بعد أن كان تيريل قد مات.»

«لكن إن كان تيريل قد اعترف بأنه قتل الصبيَّين بتحريض من ريتشارد، فلماذا لم يُتَّهم بالجريمة ويُحاكَم علنيًّا عليها؟»

«لا أتصوَّر سببًا لذلك.»

«دعني أستوضح هذا. لم تكن تُوجَد أنباء عن اعتراف تيريل حتى مات.»

«لا، لم تكن تُوجَد.»

«يعترف تيريل أنه، قبل وقتٍ طويل في عام ١٤٨٣، أي قبل ما يَقرُب من عشرين عامًا، هُرِع إلى لندن من ورويك، وأخذ مفاتيح البرج من الآمر عليه ... نسيت اسمه ...»

«براكينبيري. السير روبرت براكينبيري.»

«أجل. أخذ مفاتيح البرج من السير روبرت براكينبيري لليلةٍ واحدة، وقتل الصبيَّين، وسلَّمه المفاتيح مرةً أخرى وعاد ليُبلغ ريتشارد. اعترف بفعل هذا؛ ومن ثَم وضع نهاية للُغزٍ دام طويلًا، ومع ذلك لم يُتعامَل معه علنًا.»

«على الإطلاق.»

«كنت سأكرَه أن أذهب إلى المحكمة بحكاية كهذه.»

«ما كنتُ لأُفكِّر في الأمر حتى. إنها أكذَبُ ما سمعتُ من حكايات.»

«ألم يُحضِروا براكينبيري حتى ليُثبِت أو ينفيَ قصة تسليم المفاتيح؟»

«قُتِل براكينبيري في بوسوورث.»

«إذَن كان الرجل ميتًا أيضًا، وهو ما كان مُلائمًا.» اضطجع جرانت وأخذ يُفكِّر في الأمر. وتابَع قائلًا: «أتعلَم، إن كان براكينبيري قد مات في معركة بوسوورث، فلدينا دليلٌ صغير في صالحنا.»

«كيف؟ ما هو؟»

«إن كان هذا قد حدث فعلًا؛ أقصد إن كانت المفاتيح قد سُلِّمت لليلةٍ واحدة بناءً على أمر ريتشارد، إذَن فلا بد أن الكثير من المُوظَّفين الصغار في البرج كانوا على علم بذلك. ومن غير المعقول أن أحد هؤلاء لم يكن على استعداد ليقصَّ القصة على مسامع هنري حين استولى على البرج. خاصةً إن كان الصبيَّان مفقودَين. كان براكينبيري ميتًا. وكذلك كان ريتشارد. فمن المُنتظَر من الشخص التالي في ترتيب إمرة البرج أن يُقدِّم الصبيَّين. وحين

لم يظهرا لا بدَّ أنه قال: «سلَّم آمر البرج المفاتيح لليلةٍ واحدة، واختفى الصبيَّان منذ ذلك الحين.» ولا بدَّ أنه جرَت مُطارَدة بلا هوادة للرجل الذي تسلَّم المفاتيح. كان من شأنه أن يُصبح الدليل الأول في حُجَّة هنري ضد ريتشارد، وإيجاد ذلك الرجل كان سيَغدو بمثابة مَدعاة لتفاخُر هنري.»

«ليس ذلك فحسب، لكن تيريل كان معروفًا بين أهل البرج بحيث لم يكن يمكن له أن يمرَّ من دون أن يُلاحظه أحد. وفي لندن الصغيرة في تلك الآونة، لا بدَّ أنه كان شخصيةً شهيرة للغاية.»

«أجل. لو كانت تلك الحكاية صحيحة، لَحُوكِم تيريل وأُعدِم علنًا بتهمة قتل الطفلَين في عام ١٤٨٥. إذ لم يكن لدى تيريل من يحميه.» مدَّ يده نحو سجائره. وأكمل: «إذَن ما يتبقى لنا هو أنَّ هنري أعدَم تيريل في عام ١٥٠٢، وأعلن على لسان مُؤرِّخيه الوُدعاء أن تيريل اعترف بأنه قتل الأميرَين قبل عشرين عامًا.»

«أجل.»

«ولم يُقدِّم، في أي وقت ولا أي مكان، أي مُسوِّغ لعدم مُحاكَمة تيريل على فعلته الشنيعة التي اعترف بها.»

«لا. ليس بحسب ما توصلتُ إليه. كان يمضي في طُرقٍ مُنحرِفة جانبية دائمًا مثل سرطان بحر. لم يكن مباشرًا في أي شيء، حتى في القتل. كان من المُحتَّم التمويهُ عليه ليبدوَ كأنه شيءٌ آخر. انتظرَ سنواتٍ طوالًا ليَجد عُذرًا قانونيًّا من نوعٍ ما للتمويه على جريمة قتل. كان الرجل ذا عقل مُلتوٍ. أتعرِف ماذا كان أول فعل رسمي له بصفته هنري السابع؟»

«لا.»

«أنْ أعدَم بعض الرجال الذين كانوا يُقاتلون في صفِّ ريتشارد في معركة بوسوورث بتهمة الخيانة. وهل تَعرِف كيف تمكَّن من إضفاء صبغة قانونية على خيانتهم؟ بتأريخ توقيت جلوسه على العرش من اليوم السابق لمعركة بوسوورث. إن عقلًا قادرًا على الإتيان بتصرفٍ ذكي من هذا العيار لهو عقلٌ قادر على أي شيء.» ثم أخذ السيجارة التي كان جرانت يُقدِّمها له. وأكمل في ابتهاجٍ رصين: «أوه، لا، لم ينجُ بفعلته. إذ وضع الإنجليز، بارَكهم الرب، حدًّا لذلك. أخبروه بأن عليه أن يتوقف.»

«وكيف ذلك؟»

«قدَّموا له، بأسلوبهم الإنجليزي اللطيف الدَّمِث، قانونًا برلمانيًّا ينصُّ على أنه لا يجوز إدانة أي شخص يخدم صاحب السيادة الراهنة على البلاد بالخيانة، ولا ينبغي أن يُعاقَب

بمصادرة أملاكه ولا بالسجن، وجعلوه يُوافق عليه. هذا تصرُّف إنجليزي للغاية؛ ذلك التهذيب القاسي. لا هتافات في الشارع ولا إلقاء للأحجار؛ لأنهم لم يَرُق لهم ما فعله بشأن الخيانة. مجرد قانون لطيف ومنطقي وكيِّس وعليه أن يتقبَّله ويَرُوق له. أُراهن أنَّ غضب هنري ازداد شيئًا فشيئًا من ذلك. حسنًا، ينبغي أن أذهب الآن. من الرائع حقًّا أن أراك مُعتدلًا في جلستك وتُدوِّن ملحوظات. أظنُّ أننا سنقوم بتلك الرحلة إلى جرينتش عمَّا قريب. ماذا يُوجَد في جرينتش؟»

«بعض أشكال العمارة الجميلة ونهرٌ مُوحِل بديع.»

«هذا كل شيء؟»

«وبعض الحانات الجيدة.»

«سنذهب حتمًا إلى جرينتش.»

وحين غادَر انزلق جرانت في سريره، وأخذ يُدخِّن سيجارةً تلوَ الأخرى وهو يُفكِّر بعُمق في قصة الورثة من آل يورك الذين ازدهرت حياتهم في عهد ريتشارد الثالث، ولقُوا حتفَهم في عهد هنري السابع.

ربما كان بعضهم قد «نال ما يستحقُّه». فتقرير كارادين كان، في نهاية المطاف، مُختصرًا؛ لم يكن فيه تلطيف ولا حمَّال أوجُه. لكن الأمر المؤكَّد أنها كانت مصادفةً غريبة للغاية أنَّ كل الأشخاص الذين اعترضوا طريق آل تيودور إلى العرش قد قُطِع دابرهم بهذه الطريقة التي كانت تصبُّ تمامًا في مصلحة آل تيودور.

نظر، دون تحمُّس كبير، إلى الكتاب الذي كان قد أحضره له كارادين الشاب. كان اسمه «حياة ريتشارد الثالث وحكمه»، من تأليف شخص يُدعى جيمس جيردنر. كان كارادين قد أكَّد له أنه سيَجد الدكتور جيردنر جديرًا بالوقت الذي سيَقضيه في قراءة كتابه. إذ كان الدكتور جيردنر، طبقًا لبرينت، «صوتًا صارخًا في البرية».

لم يبدُ الكتاب لجرانت مُمتعًا بدرجةٍ كبيرة، لكن أي شيء عن ريتشارد كان أفضل من شيء عن أي شخص آخر؛ لذا بدأ جرانت يتصفَّحه، وسُرعان ما أدرك ما كان برينت يقصده حين قال إن ذلك الدكتور كان «صوتًا صارخًا في البرية». كان الدكتور جيردنر مؤمنًا بإصرار بأن ريتشارد قاتل، ولكن لأنه كان كاتبًا أمينًا، ومُثقَّفًا ونزيهًا وفقًا لمعاييره، فلم يكن من شِيَمه أن يطمس الحقائق. كان مشهد محاولات الدكتور جيردنر البهلوانية للتوفيق بين ما بين يدَيه من حقائق ونظريَّته أكثر شيء مُسلٍّ شَهِده جرانت منذ وقتٍ طويل.

أقرَّ الدكتور جيردنر من دون إحساس واضح بالتناقض بحكمة ريتشارد الكبيرة وسخائه وشجاعته واقتداره وجاذبيَّته وشعبيته والثقة التي كان يبعث عليها حتى عند أعدائه المهزومين، وفي السياق نفسه أورد افتراءه الحقير على والدته وذبحه لطفلَين ضعيفَين. قال الدكتور الفاضل إنَّ المرويَّات المأثورة تقول ذلك، وأورد بوقارٍ المرويات المُريعة وأيَّدها. لم يكن يُوجَد خبث أو خسَّة في شخصيته، طبقًا لكلام الدكتور، لكنه كان قاتلًا لطفلَين بريئَين. حتى أعداؤه كانوا يَثِقون في عدله، لكنه قتل ابنَي أخيه. وكانت نزاهته مُلفِتة ولا غبار عليها، لكنه قتلَ لتحقيق مكاسب.

كان الدكتور جيردنر ببهلوانيَّته أعجوبةً لا مثيل لها في المرونة. بتعجُّبٍ تساءلَ جرانت أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، بأي جزءٍ من عقلهم كان المؤرخون يُفكِّرون. إنهم بكل تأكيد لا يَصِلون إلى ما يَصِلون إليه من استنتاجاتٍ عن طريق عمليةٍ منطقية معروفة لدى البشر. لم يُصادِف جرانت في صفحات الروايات ولا الكتب الواقعية، ولا في الحياة بلا شك، أيَّ إنسانٍ كان يُشبِه ولو من بعيدٍ شخصيةَ ريتشارد حسبما وصفها الدكتور جيردنر، ولا شخصية إليزابيث وودفيل حسبما كتب أوليفانت.

لعله كان يُوجَد شيء من الصحة في نظرية لورا القائلة بأن الطبيعة البشرية تجد صعوبة في التخلي عن المعتقدات المسبقة. وأن ثَمة معارضةً داخلية غامضة وغير مفهومة وامتعاضًا من انقلاب الحقائق المُسلَّم بها. كان الدكتور جيردنر بالتأكيد يُسحَب كطفلٍ خائف باليد التي كانت تجرُّه نحو المحتوم.

كان جرانت يعرف حق المعرفة أن رجالًا جذَّابين يتمتَّعون بقدرٍ كبير من النزاهة ارتكبوا جرائم قتل في أوانهم. لكن ليس ذلك النوع من جرائم القتل، وليس لأجل تلك النوعية من الأسباب. إن الرَّجل من النوعية التي صوَّرها الدكتور جيردنر في كتابه «حياة ريتشارد الثالث وتاريخه»، يُمكن أن يقتل فقط حين تضطرب حياته الشخصية بفعلِ حدثٍ مُزلزِل. فقد يقتل زوجته حين يكتشف خيانتها له فجأةً. أو يقتل شريكه الذي تُدمِّر مُضارَباته السِّرية شركتَهما ومُستقبَل أطفاله. أي جريمة قتل سيرتكبها ستكون ناتجةً عن انفعالٍ حادٍّ ولن تكون عن تخطيط أبدًا، ولن تكون أبدًا جريمةَ قتلٍ عمدي عن سبق إصرار وترصُّد.

لا يمكن للمرء أن يقول: لأن ريتشارد يتمتع بصفات كذا وكذا، فمن ثَم لا يُمكنه أن يرتكب جريمة قتل. لكن يُمكن للمرء أن يقول: لأن ريتشارد يتمتع بهذه الصفات؛ فمن ثَم لا يُمكنه أن يرتكب جريمة القتل هذه.

كانت جريمة القتل ستكون ساذجةً سخيفة، جريمة قتل الأميرَين الصبيَّين، وكان ريتشارد رجلًا ذا اقتدار وحكمة بارزَين. كانت الجريمة هي جريمة قتل عمد بما يَفُوق الوصف، وكان الرجل يتمتَّع بقدرٍ عظيم من النزاهة والاستقامة. كانت جريمة تنمُّ عن غِلظة القلب، وقد كان رجُلًا معروفًا عنه حُنوُّه وطيبة قلبه.

يمكن للمرء أن يخوض في قائمة الفضائل التي يتمتَّع بها، والتي تحظى بالاعتراف بصحتها، ويجد أن كل فضيلة منها جعلت من مشاركته في هذه الجريمة أمرًا مُستبعَدًا إلى أقصى حد. وبوضع هذه الفضائل جميعًا في الاعتبار نجد أنها تُشكِّل جدارًا من الاستحالة يرتفع إلى سماء الخيال.

الفصل الخامس عشر

قال كارادين حين دخل عليه بعد بضعة أيام، وهو في غاية البهجة والمرح: «نسيتَ أن تسألني عن شخصٍ ما في قائمتك.»

«مرحبًا. مَن ذاك؟»

«ستيلينجتون.»

«بالطبع! أسقف باث الفاضل. إذا كان هنري يكره قانون اللقب الملكي، باعتباره شاهدًا على نزاهة ريتشارد وعدم شرعية زوجة هنري، فلا بدَّ أنه كان يكره أكثر وجود المُحرِّض على هذا القانون. ماذا حدث لستيلينجتون العجوز؟ قُتِل بأمرٍ قضائي؟»

«من الواضح أن ذلك العجوز لم يلعب.»

«لم يلعب ماذا؟»

«لعبة الحيوانات الأليفة مع هنري. إذ نجا الرجل. إما أنه كان عجوزًا ماكرًا، أو أنه كان بريئًا جدًّا فلم يرَ الفخَّ على الإطلاق. وفي اعتقادي، إن كان مسموحًا لباحثٍ أن يحظى باعتقادٍ شخصي، أنه كان بريئًا بدرجةٍ لا تُمكِّن أيَّ عاملٍ مُحرِّض من استفزازه تجاه أي شيء. أي شيء يُمكن أن يتسبَّب له في تهمةٍ عقوبتها الإعدام، على أي حال.»

«أتقول إنه هزم هنري؟»

«لا. أوه، لا. لم يهزم أيُّ أحدٍ هنري. وجَّه هنري إليه تُهمة ونسيَ إطلاق سراحه. ولم يعُد الرجل إلى بيته قَط. من أيضًا لم يعُد إلى البيت قَط؟ ماري في قصيدة «رمال نهر دي»؟»

«أنت مُتألِّق للغاية هذا الصباح، ناهيك عن قول إنك في غاية الابتهاج.»

«لا تَقُلها بتلك النبرة المُرتابة. لم تنجَلِ الأمور بعد. وهذا الانفعال الذي تُلاحظه هو فورانٌ فِكري. ابتهاجٌ روحي. تألقٌ عقلي بالكامل.»

«حسنًا؟ اجلس وهاتِ ما عندك. ما هذا الأمر الجيد للغاية؟ أظنُّ أن ثَمة خبرًا جيدًا، أليس كذلك؟»

«جيِّدٌ صفةٌ مُلائمة بالكاد. الوصف الأصحُّ هو رائع، رائع بصورةٍ مثالية.»

«أعتقد أنك «كنت» تُعاقِر الشراب.»

«ما كنت لأستطيع تَناوُل الشراب هذا الصباح حتى وإن حاولت. إنني مُمتلئ تمامًا حدَّ الكفاية بالشعور بالرِّضا والارتياح.»

«أفهم أنك وجدتَ الخَرق في النمط الذي كنَّا نبحث عنه.»

«أجل، وجدتُه، لكنه كان مُتأخرًا أكثر ممَّا كنَّا نظن. أقصد مُتأخِّرًا في الزمن. بعد فترةٍ طويلة. في الأشهُر الأولى كان كل شخص يفعل ما يُتوقَّع منه فعله. تولَّى هنري مقاليد الحُكم، ولم يَذكُر أحدٌ كلمةً عن الصبيَّين، ونظَّف الفوضى وتزوَّج أخت الصبيَّين. وجعل البرلمان الذي يتكوَّن من تابِعيه المَدِينين يُلغي الحكم بفقدان أهليَّته، ولم يَذكُر أحدٌ كلمةً عن الصبيَّين، ومرَّر قانونًا بفقدان ريتشارد للأهلية، وكذلك أتباعه المُخلِصون الذين حوَّل عناية خدمتهم له إلى أفعالِ خيانة من خلال إدراجِ تاريخٍ أبْكَر. تسبَّب هذا الأمر في وجودِ مجموعةٍ كبيرة من الأملاك المُصادرة في الصندوق المُشترَك دفعةً واحدة. وبالمناسبة، اختُلِقت فضيحةٌ مُريعة في حقِّ راهب كوريلاند من خلال ممارسات هنري الذكية في أمور الخيانة. إذ قال: «يا إلهي، أيُّ أمنٍ هذا الذي سيتمتَّع به ملوكنا منذ الآن فصاعدًا في أيام الحروب إن كان تابعوهم المُخلِصون يُحرَمون عند الهزيمة من الحياة والثروة والميراث».»

«غفَل عن مُواطنيه.»

«أجل. ربما كان يعرف أن الشعب الإنجليزي سيَتوصَّل إلى ذلك الأمر عاجلًا أو آجلًا. لعلَّه كان غريبَ الأطوار. على أي حال، سار كلُّ شيء بالطريقة التي يَتوقَّع المرء أن يسير بها كلُّ شيء في ظل حُكم هنري. إذ ارتقى على العرش في شهر أغسطس من عام ١٤٨٥، وتزوَّج إليزابيث في يناير التالي. وأنجبت إليزابيث طفلها الأول في وينشستر، وكانت أُمها حاضرةً معها أثناء تعميد الطفل. كان ذلك في سبتمبر من عام ١٤٨٦. ثم عادت إلى لندن، أقصد الملكة الأم، في الخريف. وفي شهر فبراير، انتبه جيدًا، في شهر فبراير كانت قد أُودِعت أحد الأديرة لبقيَّة حياتها.»

قال جرانت في ذهولٍ شديد: «إليزابيث وودفيل؟» كان هذا آخِر شيء توقَّعه.

«أجل. إليزابيث وودفيل. أُم الصبيَّين.»

سأله جرانت بعد أن فكَّر في الأمر لوهلة: «كيف تعرف أنَّها لم تذهب طوعًا؟» وتابَع: «لم يكن من غير الشائع للسيدات ذوات الشأن اللائي سَئِمنَ حياة البلاط الملكي أن يَرْكَنَّ إلى الرهبنة. لم تكن حياةً قاسية. لديَّ بالفعل فكرةٌ عن أن حياة الرهبنة كانت مُريحة جدًّا للنساء الثريَّات.»

«لقد جرَّدها هنري من كل ما تملك، وأمر بها إلى دَير الراهبات في بِرموندسي. وقد أثار هذا الأمر ضجَّة، بالمناسبة. إذ يبدو أنه كان يُوجَد «الكثير من التساؤلات».»

«لست مُتفاجئًا. يا له من أمرٍ استثنائي. هل أعطى هنري مُبررًا لذلك.»

«أجل.»

«ماذا قال عن سبب تدميره لها؟»

«إنها كانت لطيفة مع ريتشارد.»

«هل أنت جاد؟»

«بالتأكيد.»

«أكان ذلك هو التبرير الرسمي؟»

«لا. تلك رواية مؤرِّخ هنري الأليف.»

«فيرجيل؟»

«أجل. وقد نصَّ أمر المجلس الذي جعلها حبيسةً أنَّ ذلك كان «لأجلِ اعتباراتٍ عديدة».»

سأله جرانت مُرتابًا: «أتقتبس حرفيًّا؟». فأجابه: «أجل، أقتبس. هذا ما هو مكتوب: «لأجل اعتباراتٍ عديدة».»

وبعد لحظةٍ قال جرانت: «لم يكن يتمتع بموهبة في اختلاق الأعذار، أليس كذلك؟ لو كنتُ مكانه لأتيت بستة أعذار أفضل.»

«إما أنه كان لا يهتمُّ أو أنه كان ينظر للآخرين على أنهم ساذجون للغاية. وليَكُن في علمك، لم يُقلِقه تَعاملُها اللطيف مع ريتشارد إلا بعد مرور ثمانية عشر شهرًا من خلافته لريتشارد. حتى ذلك الحين كان كلُّ شيءٍ يسير بسلاسة ويُسرٍ على ما يبدو. حتى إنه قدَّم لها الهدايا والضيعات وما إلى ذلك، حين خَلَف ريتشارد.»

«ماذا كان سببه الحقيقي؟ ألدَيك أي اقتراحات؟»

«في الواقع، لديَّ شيءٌ آخر بسيط قد يُمدُّك بالأفكار. وقد أمدَّني بفكرةٍ جَهنَّمية.»

«هاتِ ما عندك.»

«في شهر يونيو من ذلك العام ...»

«أي عام؟»

«أول عام من زواج إليزابيث. عام ١٤٨٦. العام الذي تزوَّجت فيه في شهر يناير وأنجبت الأمير آرثر في وينشستر في شهر سبتمبر، في حضور والدتها التي كانت ترقُص من السعادة.»

«حسنًا. أكمِل.»

«في شهر يونيو من ذلك العام، تلقَّى السير جيمس تيريل عفوًا عامًّا. في السادس عشر من يونيو.»

«لكن ذلك لا يعني الكثير. كان أمرًا شائعًا جدًّا. في نهاية مدَّة الخدمة. أو عند بداية فترةٍ جديدة من الخدمة. كان يعني ببساطةٍ أنك مُبرَّأ من أيِّ شيء قد يستخدمه أيُّ أحدٍ ضدك فيما بعد.»

«أجل، أعرف. أعرف ذلك. العفو الأول ليس هو الأمر المُثير للدهشة.»

«العفو «الأول»؟ أكان يُوجَد عفوٌ ثانٍ؟»

«أجل. ذلك هو العامل الحاسم. حصل السير جيمس على عفوٍ عامٍّ ثانٍ بعد شهرٍ واحد بالضبط. في يوم السادس عشَر من شهر يوليو لعام ١٤٨٦ على وجه الدقة.»

قال جرانت وهو يُفكِّر: «أجل.» واستطرد: «ذلك حقًّا أمرٌ غير عادي.»

«إنه أمرٌ غير عادي للغاية، بأي حال من الأحوال. وقد سألت شابًّا يعمل بجواري في المتحف البريطاني — يُجري أبحاثًا تاريخية، ولا أستحي أن أقول إنه كان مصدر عونٍ كبير لي — فقال لي إنه لم يُصادف قطُّ أمرًا كهذا. أريته المُدخلَين، في كتاب «بيان وقائع هنري السابع»، فراحَ يتأمَّلهما كأنه عاشقٌ وَلْهان.»

قال جرانت وهو يُفكِّر: «في السادس عشر من شهر يونيو، مُنِح تيريل عفوًا عامًّا. وفي يوم السادس عشر من شهر يوليو مُنِح عفوًا عامًّا آخر. وفي نوفمبر تقريبًا تعود أمُّ الصبيَّين إلى المدينة. وفي شهر فبراير تُحتجَز مدى حياتها.»

«أيُوحي هذا بشيء لك؟»

«يُوحي بالكثير.»

«أتظنُّ أنه فعلَها؟ تيريل؟»

«هذا مُمكن. إنَّ ممَّا يُوحي بدلالاتٍ كثيرة أنه حين نجد الخَرق في النمط الذي كُنَّا نبحث عنه، نجد تيريل موجودًا بأكثرِ خَرقٍ غير معقول في نمطه الخاص. متى أصبحتْ شائعة اختفاء الأطفال متداولة؟ أقصد، متى أصبحت شيئًا يتحدَّث عنه الجميع.»

«يبدو أن ذلك كان في وقتٍ مُبكِّر إلى حدٍّ بعيد من فترة حكم هنري.»

«أجل، يبدو هذا مُناسبًا. من المُؤكَّد أن من شأن هذا أن يُفسِّر الأمر الذي حيَّرني منذ بداية هذه المسألة.»

«ماذا تقصد؟»

«من شأنه أن يُفسِّر عدم حدوث ضجة حين اختفى الصبيَّان. كان هذا أمرًا يُثير الحيرة دومًا، حتى لدى أولئك الذين ظنُّوا أن ريتشارد هو من فعلها. وفي الواقع، حين تُفكِّر في الأمر تجد أن من المُستحيل أن يفلت ريتشارد بفعلته. إذ كانت تُوجَد معارضةٌ كبيرة وفاعلة وقوية للغاية في أيام ريتشارد، وقد تركهم أحرارًا ومُتناثرين في أرجاء البلاد ليُكملوا حياتهم كما يحلو لهم. كان لدَيه حشد آل وودفيل وآل لانكستر ليتعاطى معهم لو أنَّ الصبيَّين اختفيا. لكن من ناحية التدخل والفضول الذي لا داعيَ له كان هنري آمنًا تمامًا. إذ كان قد احتاط بأنْ سجن مُعارِضيه. كان مصدر الخطر الوحيد المُحتمل هو أم زوجته، وفي اللحظة التي أصبحت فيها قادرة على أن تكون مصدر إزعاج وُضِعت هي أيضًا قيد الاحتجاز المُشدَّد.»

«أجل. ألا تظنُّ أنه كان يُوجَد «شيء» بوسعها فِعله؟ حين وجدَت أنها تُمنع من الحصول على أخبار الصبيَّين.»

«ربما لم تعلم قطُّ أنهما كانا مفقودَين. ربما قال لها ببساطة: «رغبتي هي أنكِ لا ينبغي لكِ رؤيتهما. أرى أنكِ ذات تأثيرٍ سيِّئ عليهما؛ أنتِ يا من خرجتِ من الدير وسمحتِ لبناتكِ بأن يذهبن إلى حفلات ذلك الرجل!».»

«أجل، هكذا هو الأمر بالطبع. لم يكن يتعيَّن عليه أن ينتظر حتى يعتريَها الشك بالفعل. ربما تمَّ الأمر برُمَّته في خطوةٍ واحدة. لعله قال لها: «أنتِ امرأةٌ سيئة، وأمٌّ سيئة؛ وسأُرسلكِ إلى أحد الأديرة لأُنقِذ روحكِ وأطفالك من وجودكِ المُفسِد».»

«أجل. وفيما يخصُّ بقيَّة إنجلترا، كان الرجل آمنًا بقدرِ ما يمكن أن يكون أي قاتل على الإطلاق. فبعد فِكرته السعيدة عن اتهامات «الخيانة»، ما كان أحد ليشرئبَّ برأسه ليسأل عن صحة الصبيَّين بصفةٍ خاصة. لا بدَّ أن الجميع كانوا حذِرين للغاية. فلم يكن أحدٌ يعلم ما قد يُفكِّر فيه هنري تاليًا ليجعله جريمة بأثرٍ رجعي من شأنها أن تُوديَ بحياتهم في طيِّ النسيان وبمُمتلَكاتهم في جُعبة هنري. لا، لم يكن الوقت مُناسبًا ليكونوا فضوليين أكثر من اللازم بشأنِ أيِّ شيء لم يكن يخصُّهم. لا يعني ذلك أنه ليس من السهل، على أي حال، أن يُرضيَ المرء فضوله.»

«تقصد مع وجود الصبيَّين في البرج.»

«مع وجود الصبيَّين في برجٍ يحرسه رجال هنري. لم يكن هنري يتمتع بسلوك ريتشارد الذي كان يحضُّ على التلاقي والعيش مع ترك فرصة للغير لأن يعيشوا. ولم يكن هنري يُواجه تَحالفًا كتحالف آل يورك وآل لانكستر. لا بدَّ أن الأشخاص القائمين على البرج كانوا من رجال هنري.»

«أجل. لا بدَّ بالطبع أنهم كانوا كذلك. هل تعلم أن هنري كان أول ملك إنجليزي يتَّخذ حُراسًا شخصيين له؟ أتساءل ما الذي قاله لزوجته عن إخوتها.»

«أجل. سيكون من المُشوِّق معرفة هذا. ربما حتي أخبرها بالحقيقة.»

«هنري! مُستحيل! كان هنري سيتكلَّف عناءً كبيرًا يا سيد جرانت من أجل أن يُقرَّ بحقيقةٍ بسيطة كحقيقةِ أن مجموع اثنين زائد اثنين يُساوي أربعة. صدِّقني، كان الرجل كالسلطعون؛ ما كان ليتقدَّم نحو شيء في خطٍّ مستقيم قَط.»

«لو كان الرجل ساديًّا لأخبرها دون أن يخشى عقابًا. فعمليًّا، لم يكن يمكنها فِعل شيء حيالَ الأمر. حتى ولو أرادت أن تفعل. وربما لم تكن ترغب بشدة في فعل شيء. كانت قد قدَّمت وريثًا لعرش إنجلترا، وكانت تستعدُّ لتقديم وريث آخر. ربما لم يكن لدَيها رغبة في أن تشنَّ عليه حملة، خاصةً لو كانت حملةً ستُزلزِل الأرض من تحت قَدمَيها.»

قال كارادين الشابُّ بنبرةٍ حزينة: «لم يكن هنري ساديًّا.» كان حزينًا لأنه منح هنري فضيلةً سلبية. واستطرد يقول: «بطريقةٍ ما كان على العكس تمامًا. لم يكن يستمتع بالقتل على الإطلاق. كان عليه أن يُجمِّل الأمر لنفسه قبل أن يتحمَّل التفكير فيه. كان عليه أن يُزيِّنه بالقانون. إن كنتَ تظنُّ أن هنري كان مُستمتعًا بالتبجح أمام إليزابيث في فراشهما بشأن ما فعله بأخوَيها، فأظنُّ أنك مُخطئ.»

قال جرانت: «أجل، على الأرجح.» واضطجع يُفكِّر في هنري. ثم قال بعد بُرهة: «لقد فكَّرت للتوِّ في الصفة المناسبة لهنري. كان رديئًا. كان مخلوقًا رديئًا.»

«أجل. حتى إن شَعره كان خفيفًا وقليلًا.»

«لم أقصد جسديًّا.»

«أعلم أنك لم تكن تقصد ذلك.»

«كل ما فعله كان رديئًا. فكِّرْ في الأمر، «شوكة مورتون» هي أردأ طريقة لإدرار العوائد في التاريخ. لكن لم يكن الأمر مُتعلقًا بجشَعه للمال فحسب. كل ما يخصُّه يتَّصف بالرداءة، أليس كذلك؟»

«أجل. ما كان الدكتور جيردنر سيُعاني من أي مشكلة في محاولةِ جعلِ تصرفاته مُلائمة لشخصيته. كيف أبلَيتَ مع الدكتور؟»

«دراسة رائعة. أظنُّ أنه لولا فضل الرب لكان الدكتور المُبجَّل سيكسب قُوتَه من الإجرام.»

«لأنه غَش؟»

«لأنه لم يَغُش. كان واضحًا كالشمس. كل ما في الأمر أنه لم يتمكَّن من الانتقال بطريقةٍ منطقية من نقطة إلى أخرى.»

«لا بأس، سأسمع.»

«يُمكن للجميع أن ينتقل مَنطقيًّا من النقطة أ إلى النقطة ب، حتى لو كان طفلًا. ويمكن لُمعظم البالغين أن ينتقلوا منطقيًّا من النقطة ب إلى النقطة ج. لكن كثيرين لا يمكنهم ذلك. مُعظم المجرمين لا يُمكنهم ذلك. قد لا تُصدِّق هذا؛ أعرف أن هذا يُعَد تدنيًا مُريعًا من المفهوم الشائع عن المجرم بصفته شخصيةً جَسورة وجذَّابة، لكن العقل الإجرامي في الأساس عقلٌ ساذج. ولا يمكنك في بعض الأحيان أن تتخيَّل مدى سذاجته. سيَتعيَّن عليك أن تُجرِّب الأمر لتُصدِّق مدى افتقارهم إلى قدرات المنطق. فقد يَصِلون إلى النقطة ب، لكنهم يكونون غير قادرين على الانتقال إلى النقطة ج. تجدهم يضعون شيئَين مُختلِفَين وغير مُتوافِقَين تمامًا جنبًا إلى جنب ويُفكِّرون فيهما باطمئنانٍ لا جدال فيه. لا يُمكنك أن تَحمِلهم على رؤية أنهم لا يُمكنهم الحصول على هذَين الشيئين معًا، أكثر من قُدرتك على حَملِ رَجل لا يتمتَّع بذَوق على أن يرى أن مِن المُستحيل مُحاكاةَ العوارض من طِراز تيودور عن تثبيت طبقات من خشب الأبلكاش بالمسامير إلى الجملون. هل بدأت في كتابك؟»

«في الواقع، بدأتُ بدايةً مبدئية نوعًا ما. أعرف الطريقة التي «أريد» أن أكتبه بها. أقصد شكلَه. آمُل أنك لن تُمانع.»

«ولماذا أمانع؟»

«أُريد أن أكتبه بالطريقة التي حدث بها. أُريد أن أكتب عن مَجيئي لزيارتك، واستهلالنا مسألة ريتشارد بطريقةٍ عارضة تمامًا، وعدم معرفتنا لِما كنَّا نمضي إليه، وكيف الْتَزمنا بما حدث بالفعل وليس بما رَوى أحدُهم عنه بعد حدوثه، وكيف بحثنا عن الخرق في النمط المعتاد الذي من شأنه أن يُشير إلى أين وقع الفعل الشِّرير، كالفقاقيع التي تتصاعد من غوَّاصٍ يغوص عميقًا تحت الماء، وهكذا على نفس الشاكلة.»

«أظنُّ أن هذه فكرةٌ عظيمة.»

«فعلًا؟»

«أظنُّ ذلك بالفعل.»

«حسنٌ إذَن. سأستمرُّ في هذا. وسأُجْري بعض الأبحاث عن هنري، فقط كنوعٍ من الزخرف للكتاب. أرغب في أن أكون قادرًا على وضع سِجلاتهما التاريخية جنبًا إلى جنب. حتى يتسنَّى للناس المقارنة بأنفسهم. هل تعرف أن هنري ابتكر محكمة «غرفة الملك»؟»

«أكان هنري من فعَل ذلك؟ كنت قد نسيتُ هذا. «شوكة مورتون» ومحكمة «غرفة الملك». عيِّنة كلاسيكية عن المُمارَسات الذكية، وعيِّنة كلاسيكية كذلك على الطغيان. لن تُواجِه صعوبةً في التمييز بين الصورتَين المُتنافِستَين، حقًّا! إن «شوكة مورتون» و«غرفة الملك» يُمثِّلان تباينًا مقبولًا مع «منحِ حقِّ الكفالة»، و«منع ترهيب المُحلِّفين».»

«أكان ذلك في برلمان ريتشارد؟ حقًّا، يا له من كمٍّ كبير من القراءة عليَّ أن أُنجِزه. إن أتلانتا في خصامٍ معي. وتكرهك بشدة. تقول إنَّ نفعي لأي فتاة بقدرِ نفع موضة العام الماضي. لكنْ صدقًا يا سيد جرانت، هذه هي المرة الأولى في حياتي التي يَحدُث لي فيها شيءٌ مُثير. أقصد شيئًا مُهمًّا. ليس معنى مُثير أنه مُثير. فأتلانتا مُثيرة لي. إنها كل الإثارة التي أردتُ أن أحصل عليها يومًا. لكن أيًّا منَّا لا يُمثِّل أهمية، بالطريقة التي أقصد بها معنى الأهمية، إن كنتَ تفهم ما أقصد.»

«أجل، أفهم. لقد وجدتُ شيئًا يَستحقُّ أن يُفعَل.»

«ذاك بالضبط. لقد وجدتُ شيئًا يستحقُّ أن يُفعَل. وأنا من سيفعله؛ ذلك هو الرائع في الأمر. أنا، ابن السيدة كارادين الصغير. لقد أتيتُ إلى هنا مع أتلانتا، ولم يكن لديَّ فكرة عن أي شيء سوى استخدام حيلة إجراء الأبحاث بصفتها حُجة. ذهبت إلى المتحف البريطاني من أجل الحصول على بعض المعلومات حتى يهدأ والدي، فخرجتُ منه بمهمة. ألا يُزلزلك هذا؟!» ثم نظر إلى جرانت مُفكِّرًا. وقال: «هل أنت واثق تمامًا، يا سيد جرانت، من أنك لا تُريد كتابة هذا الكتاب بنفسك؟ ففي النهاية، هذا شيءٌ عظيم.»

فقال جرانت بنبرةٍ صارمة: «لن أكتب كتابًا أبدًا.» وأضاف: «ولا حتى كتابًا بعنوان «العشرين عامًا التي قضيتها في سكوتلاند يارد».»

«ماذا! لن تكتب حتى سيرتك الذاتية؟»

«ولا حتى سيرتي الذاتية. رأيي المدروس في هذا الشأن أنَّ كُتبًا أكثر من اللازم قد كُتِبت بالفعل.»

فقال كارادين، وقد بدا مُتألِّمًا بعض الشيء: «لكن هذا كتابٌ ينبغي أن يُكتَب.»

«بالطبع. لا بدَّ أن يُكتب هذا الكتاب. أخبِرني: ثَمة شيء نسيتُ أن أسألك عنه. كم من وقتٍ كان قد مضى حين أُرسِل تيريل إلى فرنسا بعد حصوله على العفو المزدوج؟ بعد خدمته المُفترَضة لهنري في يوليو من عام ١٤٨٦، متى أصبح قائد حصن جوينيس؟»

تلاشى مظهر الألم الذي كان باديًا على كارادين، وبدا ماكرًا بقدرِ ما أمكنَه أن يبدوَ بوجهِ الحمَل المُزغب اللطيف ذلك.

وقال: «كنت أتساءل في نفسي متى ستسأل ذلك السؤال.» وأردف: «كنت سأُخبرك بذلك لدى خروجي لو كنت قد نسيت أن تسألني. والإجابة هي: على الفور تقريبًا.»

«هكذا إذَن. حصاةٌ صغيرة أخرى مناسبة للفُسَيفساء. أتساءل إن كان قد تصادف أن منصب قائد الحصن صار خاليًا أم إن هنري أرسله إلى فرنسا لأنه كان يريد أن يُخرجه من إنجلترا.»

«أُراهن أن العكس هو ما حدث، وأن تيريل هو الذي أراد أن يُغادِر إنجلترا. لو كان هنري السابع هو حاكمي، فمن المُؤكَّد أنني كنت سأُفضِّل أن يحكمني عن بُعد. خاصةً لو كنت قد أدَّيتُ له مَهمةً سِرية، وكان سيصبح من الأفضل لهنري لو أنني لم أعِش حتى سنٍّ كبيرة جدًّا.»

«أجل، لعلك مُحقٌّ. لم يُغادِر الرجل إلى خارج البلاد فحسب، بل ظلَّ هناك، كما لاحظنا بالفعل. هذا شيءٌ مُثير للاهتمام.»

«لم يكن هو الوحيد الذي ظلَّ خارج البلاد. فعَل جون دايتون ذلك أيضًا. لم أتمكَّن من معرفة هُويَّة كل الأشخاص الذين كان من المفترَض أنهم كانوا بالفعل مُتورِّطين في جريمة القتل. فكل روايات آل تيودور عن ذلك مختلفة، وأظن أنك تعرف هذا. بالفعل معظم هذه الروايات مختلف لدرجةِ تناقضها التام بعضها مع بعض. فمُؤرِّخ هنري الأليف بوليدور فيرجيل يقول إن الجريمة ارتُكِبت حين كان ريتشارد في يورك. وطبقًا لما أورد مور المعظم، فإن هذا كان أثناء رحلةٍ أسبق، حين كان ريتشارد في ورويك. وتختلف الشخصيات باختلاف الروايات. لذا من الصعب فَرزُها. لا أعرف من كان ويل سلاتر — بلاك ويل بالنسبة إليك، وهي محاكاةٌ صوتية أخرى — أو مايلز فوريست. لكن كان يوجد شخص يُدعى جون دايتون. يقول جرافتون إنه عاش طويلًا في كاليه «مُحتقَرًا بقدرِ ما كان يُشار إليه بالبنان»، ومات هناك في بؤسٍ عظيم. كم كانوا يتمتَّعون بأخلاقٍ طيبة حقًّا. لم يكن الفيكتوريون بأفضل منهم.»

«لو أن دايتون كان فقيرًا معدمًا فلا يبدو أنه أدَّى أي مهمة لحساب هنري. ماذا كانت مهنته؟»

«في الواقع، إن كان هو جون دايتون المقصود فقد كان قسًّا، ولم يكن معدمًا بالمرَّة. كان يعيش في رفاهيةٍ كبيرة من عائدات هذه الوظيفة اليسيرة. أعطى هنري لجون دايتون منصب كاهن فولبِك، بالقرب من جرانثام، وهي في لينكولنشاير، يوم الثاني من مايو عام ١٤٨٧.»

قال جرانت مُتباطئًا في الحديث: «حسنًا، حسنًا.» وتابَع: «١٤٨٧. وكان أيضًا يعيش خارج البلاد في بُحبوحة.»

«آه. رائع، أليس كذلك؟»

«هذا رائع. وهل يشرح أيُّ أحد كيف أن دايتون المعروف لم يُؤتَ به إلى البلاد مُكبَّلًا ليُشنَق جزاءً على قتله الملك؟»

«أوه، لا. لا شيء كهذا. مُؤرِّخو آل تيودور ... ألم يكن أيٌّ منهم يُفكِّر بمنطقية في كيفية الانتقال من النقطة ب إلى النقطة ج.»

فضحكَ جرانت. وقال: «أرى أنك تعلَّمت.»

«بالطبع. أنا لا أتعلَّم التاريخ فحسب. إنني أنحني إجلالًا لسكوتلاند يارد فيما يتعلَّق بموضوع تحليل العقل البشري. في الواقع، سنكتفي بهذا القدر الآن. إن كنت تشعر بأنك قوي بما يكفي فسأقرأ عليك أول فصلَين في الكتاب في المرة التالية التي آتي فيها.» ثم توقَّف برهةً وعاد يقول: «هل تُمانِع يا سيد جرانت لو أهديت هذا الكتاب لك؟»

فقال جرانت في استهانة: «أرى أن من الأفضل لو أهديته إلى كارادين الثالث.»

لكن يبدو أن كارادين لم يرَ الأمر موضع استهانة.

فقال بمسحة من الصلابة: «أنا لا أستخدم الإهداء من باب التملُّق.»

فردَّ جرانت بسرعة: «أوه، ليس تملقًا.» وأردف: «إنما هي مسألة سياسة.»

وقف كارادين في منتصف الغُرفة، مُكتسيًا بطابَعٍ رسمي أمريكي مُنفعل، ومُحاطًا بطيَّات مِعطفه الفوقي الواسع، وقال: «ما كنت لأبدأ هذا الأمر قطُّ لولا أنت يا سيد جرانت.» وأضاف: «وأحب أن أُقدِّم الإقرار الواجب بدَيني لك.»

تَمتَم جرانت: «سيكون هذا من دواعي سروري بالطبع»، فعاد الشابُّ ذو المظهر الملكي الواقف في منتصف الغُرفة إلى صِبيانيَّته مرةً أخرى وانتهت اللحظة المُحرِجة. غادَر

كارادين بفرح وخُطًى رشيقة كما أتى، وبدا وكأن وزنه ازداد بمقدار ثلاثين باوند، وصدره انتفخ بمقدار اثنَي عشر إنشًا أكثر مما كان قبل ثلاثة أسابيع.

وأخذ جرانت المعلومات الجديدة التي حصل عليها، وعلَّقها على الجدار المُقابل، وراح يُحدِّق فيها.

الفصل السادس عشر

لقد حُبِست وأُبعِدت عن العالم؛ تلك المرأة ذات الجمال الفاضل الراسخ والشَّعر المُذهَّب.

تساءل جرانت للمرة الأولى، لماذا كان مُذهَّبًا. لعله كان فِضيًّا مُذهَّبًا؛ كانت شقراء مُتألِّقة. كان من المُؤسِف أن كلمة «شقراء» تدنَّت إلى درجةٍ أنها كادت تحمل مدلولًا مُحقَّرًا.

لقد حُبِست لتقضيَ بقيَّة أيامها حيث لا يمكن أن تُمثِّل مشكلةً أو مصدرَ إزعاج لأحد. كانت تُرافِقها دوَّامة من المتاعب طَوال حياتها. كانت إنجلترا قد اهتزَّت بزواجها من إدوارد. وكانت هي الوسيلة المُستتِرة التي تسبَّبت في دمار ورويك. وتسبَّب لطفها مع عائلتها في إقامة فصيل جديد تمامًا في إنجلترا، ومنع ارتقاء ريتشارد إلى العرش في سلام. كان وقوع معركة بوسوورث أمرًا أدَّى إليه ضمنيًّا ذلك الاحتفال الصغير البسيط في براري نورثهامبتونشير حين أصبحت زوجة إدوارد. ولكن لم يبدُ أن أحدًا حمل نحوها ضغينة. فحتى ريتشارد الذي أخطأت في حقه سامحها على الفظائع المُترتِّبة على علاقاتها. لم يحمل أحدٌ نحوها ضغينة، حتى جاء هنري.

لقد اختفت في غموض. إليزابيث وودفيل. المِلكة الأرملة التي كانت أم ملكة إنجلترا. أم أميرَي البرج، التي عاشت بحُرية وفي رغد في ظل حكم ريتشارد الثالث.

كان ذلك خرقًا غريبًا في النمط، أليس كذلك؟

أبْعَد جرانت عن تفكيره مسألةَ تاريخ الأشخاص، وبدأ يُفكِّر بطريقةٍ شُرطية. كان الوقت قد حانَ كي يُرتِّب أوراق قضيَّته. كان الوقت قد حانَ كي ينظمها من أجل عرضها. من شأن هذا أن يُساعِد الشاب في كتابه، والأفضل من ذلك أنه سيُساعده في تصفية ذهنه. ستكون الأمور بالأبيض والأسود حسبما يراها.

مدَّ جرانت يده نحو لوح الكتابة والقلم، وكتب مُدخلًا مُنمَّقًا:

القضية: هي اختفاء صبيَّين (إدوارد أمير ويلز، وريتشارد دوق يورك) من برج لندن عام ١٤٨٥، أو في وقت مُقارِب لذلك.

تساءل إن كان من الأفضل أن يُدوِّن أسماء المُشتبَه بهما في عمودَين مُتوازيَين أم واحدًا تِلو الآخر. ربما كان من الأفضل أن ينتهيَ من ريتشارد أولًا. لذا دوَّن عنوانًا مُنمَّقًا آخر، وبدأ في تلخيصه:

ريتشارد الثالث

السجل السابق:

جيد. لديه سجلٌّ مُمتاز في الخدمة العامة، ويتمتع بسمعةٍ طيبة في حياته الخاصة. السمة البارزة كما تُشير إليها أفعاله هي المنطق السليم.

في مسألة الجريمة المزعومة:

(أ) كانت استفادته مُستبعَدة؛ إذ كان يوجد تسعة ورثة آخرين من آل يورك، من بينهم ثلاثة ذكور.

(ب) لا يوجد اتهامٌ معاصر.

(ج) استمرَّت أمُّ الطفلَين على علاقتها الودية به حتى وفاته، وكانت بناتها يَحضرن حفلات القصر.

(د) لم يُظهِر خوفًا من ورثة آل يورك الآخرين، فأنفق بسخاء على معيشتهم، وكفلَ لكلٍّ منهم وضعه الملكي.

(هـ) كان حقُّه في التاج لا يقبل الجدال؛ إذ صادَق عليه قانونٌ برلماني وتزكيةٌ عامة؛ فكان الصبيَّان خارج نطاق وراثة العرش، ولم يكونا يُمثِّلان خطرًا عليه.

(و) لو افترِض أنه كان قلِقًا من عدم الولاء، فإن الشخص الذي كان يتعيَّن عليه أن يتخلَّص منه لم يكن الصبيَّين، وإنما الشخص الذي كان سيَخلُفه على العرش، وهو ورويك الصغير. وهو الذي أعلن على الملأ أنه وريثه حين مات ولده.

هنري السابع

السجل السابق:

مُغامر، عاش في بلاط ممالك أجنبية. ابن لأمٍّ طموحة. لا شيء سلبيَّ معلوم فيما يتعلق بحياته الخاصة. لم يتولَّ منصبًا أو عملًا عامًّا. الصفة البارزة كما تُشير أفعاله هي الدهاء.

في مسألة الجريمة المزعومة:

(أ) كان من المهم له كثيرًا ألا يعيش الصبيَّان. بإبطاله للقانون الذي يُقرُّ بعدم شرعية الصبيَّين، جعل الصبي الأكبر منهما ملِكًا على إنجلترا، والأصغر وريثه.

(ب) في القانون الذي قدَّمه أمام البرلمان من أجل إدانة ريتشارد، اتهم ريتشارد بالطغيان والقسوة المعتادَين، لكنه لم يذكر مسألة الأميرَين الصغيرين. والاستنتاج الحتمي هنا أن الصبيَّين كانا على قيد الحياة، وكان مكانهما معروفًا.

(ج) حُرِمت أمُّ الصبيَّين من دخلها، وأُودعت ديرًا للراهبات بعد مرور ثمانية عشر شهرًا من جلوسه على العرش.

(د) اتَّخذ تدابير عاجلة من أجل أن يأمن جانب ورثة العرش الآخرين، وأودعهم الحبس المؤقَّت حتى تمكَّن من التخلص منهم بأدنى قدرٍ من الفضيحة.

(ه) لم يكن لديه أدنى حق في الجلوس على العرش. منذ وفاة ريتشارد، كان ورويك الصغير هو الملك «الشرعي» لإنجلترا.

خطر لجرانت للمرة الأولى، وهو يكتب هذا، أنه كان بمقدور ريتشارد أن يُضفيَ الشرعية على ابنه غير الشرعي، جون، ويفرضه على الأمة. لم يكن ثَمة افتقار إلى سابقة في مثل هذا المسعى. في نهاية المطاف، كانت عشيرة بوفورت بأَسرِها (بما في ذلك أمُّ هنري) تنحدر، ليس من اتحادٍ غير شرعي وحسب، وإنما من سِفاحٍ مُزدوج. لم يكن يُوجَد ما يمنع ريتشارد من جعل ذلك الصبي، «النَّشِط الحسن التصرُّف» الذي كان يعيش في رفاهة في منزله، مُستحقًّا شرعيًّا للعرش. كان من المُؤكَّد بناءً على تدابير ريتشارد أن هذا المسار لم يكن قد تبادر إلى ذهنه. كان قد عيَّن ابن أخيه وريثًا له. كان المنطق السليم هو السمة الغالبة عليه حتى في أشد أوقات حزنه. المنطق السليم والمشاعر الأسرية. لم يكن ابنه غير الشرعي ليجلس على كرسي آل بلانتاجانت بغضِّ النظر عن مدى نشاطه وحُسن تصرُّفه ما دام ابن أخيه موجودًا، ويمكن له أن يشغل الكرسي.

كان من اللافت للنظر كيف مدى تَغلغُل هذا الجو الأُسري في الحكاية بأكملها. من رحلات سيسيلي بصحبة زوجها، وحتى اعتراف ابنها الطوعي بابن أخيه جورج وريثًا له.

وخطرَ بباله للمرة الأولى أيضًا وبقوةٍ كبيرة كيف أن هذا الجو الأُسري قد أضفى القوة على حُجة براءة ريتشارد. إن الصبيَّين اللذين من المُفترَض أنَّ ريتشارد قتلهما كما لو كان يقتل مُهرَين توءمًا كانا ابنَي إدوارد، كانا طفلَين لا بد أنه عرَفهما معرفةً شخصية

وجيِّدة. أما هنري، على الجانب الآخر، فكان الصبيَّان لا يُمثِّلان له إلا رمزَين. عقبتَين في طريقه. ربما حتى لم تكن عيناه قد وقعت عليهما. وبغضِّ النظر عن جميع المسائل المتعلقة بالشخصية، فإن الاختيار بين هذين الرجلين باعتبارهما مُشتبَهًا بهما قد يتقرَّر على هذا الأساس وحده تقريبًا.

كان من المُهدِّئ للذهن تمامًا أن يرى القضية مُنظَّمة ومُرتَّبة على هيئة «أ» و«ب» و«ج». لم يُلاحظ من قبلُ كيف أنَّ سلوك هنري كان مُثيرًا للرِّيبة والشك بصورةٍ مُضاعَفة حيالَ قانون اللقب الملكي. وإن كانت مطالبة ريتشارد بالعرش عبثية كما أصرَّ هنري، فمن المُؤكَّد أن التصرف البديهي كان إعادة قراءة القانون على العامة وإثبات زيفه. لكن هنري لم يفعل أي شيء من هذا القبيل. بل كابَد عناءً لا مُتناهيًا من أجل محو أي ذكرى لذلك القانون. كانت النتيجة النهائية محسومة، وهي أن حق ريتشارد في العرش كما هو مُبيَّن في قانون اللقب الملكي كان لا جدال فيه.

الفصل السابع عشر

في فترةٍ ما بعد الظهيرة عندما عاوَد كارادين الظهور في غُرفة المستشفى كان جرانت قد سار نحو النافذة وعاد إلى سريره، وكان مُبتهجًا من ذلك كثيرًا، حتى إن المُمرِّضة القزمة شعرت بالحاجة لتذكيره بأن هذا شيءٌ يمكن لطفل في عمر ثمانية عشر شهرًا أن يفعله. لكن لم يكن يمكن لأي شيء أن يكبت جرانت اليوم.

صاح بتبجُّح قائلًا: «ظننتم أنكم ستُبقونني هنا لأشهُر، أليس كذلك؟»

فقالت بتحفظ: «نحن مسرورون كثيرًا لرؤيتك تتحسَّن بهذه السرعة»، ثم أضافت: «وبالطبع، مسرورون كثيرًا أيضًا لأننا سنستعيد سريرك.»

وراحت خطواتها تُطقطِق في المَمر وهي تبتعد، بشَعرها الأشقر المُموَّج وقامتها المشدودة.

استلقى جرانت على سريره، ونظر إلى غُرفة السجن الصغيرة بشعورٍ يكاد يقترب من المحبة. إن رجلًا وقف على حافة أحد القطبَين أو رجلًا وقف على قمَّة جبل إفرست لا يتفوَّقان بشيء على رجلٍ وقف بجوار نافذة بعد أسابيع من كونه على بُعدِ اثنَي عشر حجرًا فقط من العَوَز. أو هكذا شعرَ جرانت.

غدًا سيعود إلى البيت. سيعود إلى البيت لتعتنيَ به السيدة تينكر. سيَتحتَّم عليه أن يقضيَ نصف يومه في السرير، ولن يكون قادرًا على المشي إلا بمساعدة عصاه، لكنه سيعود رجلًا مستقلًّا. لن يكون تحت رحمة أحد. لن يكون تحت رعاية امرأة مُجِدَّة قصيرة، ولن تعطف عليه امرأةٌ مِعطاءةٌ ضخمة.

كان هذا استشرافًا لمستقبلٍ رائع.

كان بالفعل قد أمطر السيرجنت ويليامز — الذي كان قد أولى عناية بإنهاء مَهامِّه الروتينية في إسكس — بكل تعبيرٍ لديه عن الامتنان، وكان حينئذٍ يَتُوق إلى أن تأتيَ مارتا من أجل أن يتباهى أمامها برجولته المُكتشَفة حديثًا.

كان ويليامز قد سأله: «كيف كان تعاملك مع كتب التاريخ؟»

«على أفضلِ نحو. لقد أثبتُّ أنها جميعًا خاطئة.»

ابتسَم ويليامز. وقال: «أظن أنه يوجد قانونٌ ضد ذلك.» وتابَع: «لن يَرُوق هذا لوكالة الاستخبارات والأمن الداخلي. قد يتحوَّل الأمر إلى خيانة أو ازدراء للذات الملكية أو شيء من هذا القبيل. لا يمكن للمرء أن يتوقَّع شيئًا في هذه الأيام. سأحترس لو كنت مكانك.»

«أُقسمُ أنني لن أعود أبدًا ما حيِيتُ لتصديق أي شيء أقرؤه في كتب التاريخ.»

فأشار ويليامز بمنطقه الصارم: «سيتعيَّن عليك أن تستثنيَ بعض الحالات.» وأضاف: «فالملكة فيكتوريا كانت حقيقية، وأظنُّ أن يوليوس قيصر قد غزا بريطانيا بالفعل. ولديك عام ١٠٦٦.»

«بدأت تُساوِرني شُكوكٌ هائلة بشأن عام ١٠٦٦. أرى أنك أتممت مهمة إسكس. كيف يبدو تشامي؟»

«إنه آفةٌ صغيرةٌ شعواء. كان يُعامَل بِلِين طوالَ حياته منذ بدأ يسرق فكَّة النقود من أمه وهو في عمر التاسعة. ربما كان ضرْبه بالحزام وهو في الثانية عشرة من عمره سيُنقِذ حياته. الآن سيُشنَق قبل أن يُزهِر اللوز. سيأتي الربيع مُبكِّرًا هذا العام. كنت أعمل طيلة مساء كل يوم في الحديقة في الأيام القليلة الماضية، بعدما صار النهار يمتد. ستُسَرُّ باستنشاق الهواء العليل مُجدَّدًا.»

كان ويليامز قد غادَر باسمًا رصينًا مُتزنًا، كما يليق برجل كان يُضرَب بالحزام في صِباه من أجل مصلحته.

وهكذا كان جرانت يَتُوق لزائرٍ آخرَ من العالم الخارجي الذي سيُصبح جزءًا منه عما قريب، وكان مسرورًا حين سمع النقر المُتردِّد المألوف على بابه.

فنادى يقول في ابتهاج: «ادخُل يا برينت!»

فدخل برينت.

لكنه لم يكن برينت نفسه الذي غادَره آخرَ مرة.

كان ابتهاجه قد ولَّى. كان عرض صدره المُكتسَب حديثًا قد ولَّى.

لم يَعُد كارادين الرائد السبَّاق.

كان مجردَ شابٍّ نحيل يرتدي مِعطفًا فوقيًّا طويلًا جدًّا وواسعًا جدًّا. بدا كارادين صغيرًا ومصدومًا ومفجوعًا.

راقَبه جرانت في حيرةٍ وجزع وهو يجتاز الغُرفة بمشيته الخاملة غير المُتناسِقة. لم تكن توجد مجموعة أوراق بارزة من جيبه الذي يُشبِه كيس البريد.

أوه، حسنًا، فكَّر جرانت بطريقةٍ فلسفية؛ كان الأمر مُمتعًا ما دام مستمرًّا. كان من المُحتَّم أن تطرأ عقبة في مرحلةٍ ما. فلا يمكن للمرء أن يُجريَ أبحاثًا جادَّة بطريقة الهُواة البريئة تلك ويأمُل أن يُثبت شيئًا من خلالها. لا يمكن للمرء أن يتوقَّع أن يدخل شابٌّ هاوٍ سكوتلاند يارد ويحلَّ قضيةً أعجزت المُحترِفين؛ فلماذا ظنَّ نفسه أذكى من المُؤرِّخين. كان يريد أن يُثبت لنفسه أنه كان مُحقًّا في قراءته للوجه في البورتريه؛ أراد أن يمحوَ عارَ وضعِه أحد المجرمين في موضع القضاة بدلًا من أن يضعه في قفص الاتهام. لكن كان سيَتحتَّم عليه أن يتقبَّل خطأه ويُرحِّب به. لعله كان يتمنى ذلك. لعله، في أعماق أعماقه، كان يزداد سرورًا واغتباطًا بنفسه لبراعته في قراءة الوجوه.

«مرحبًا، يا سيد جرانت.»

«مرحبًا، برينت.»

في الواقع كان الأمر أسوأ على الصبي. كان في عمرٍ يتوقَّع فيه حدوث المعجزات. كان لا يزال في عمرٍ يتفاجأ فيه من انفجار بالون.

قال جرانت للشاب مُمازحًا: «تبدو حزينًا.» وأردف: «حدث شيءٌ غير مُتوقَّع.»

«كل شيء.»

جلس كارادين على الكرسي وحدَّق في النافذة.

سأل في عبوس: «ألا تُصيبك هذه العصافير اللعينة بالإحباط؟»

«ما الأمر؟ هل اكتشفت في نهاية المطاف أنه كانت توجد شائعةٌ متداولة عن الصبيَّين قبل موت ريتشارد؟»

«أوه، بل أسوأ من ذلك بكثير.»

«أوه. أهو شيءٌ مكتوب؟ خطاب مثلًا؟»

«لا، ليس الأمر على ذلك النحو على الإطلاق. إنه شيءٌ أسوأ بكثير. شيءٌ جوهري ... جوهري للغاية. لا أعرف كيف أُخبرك.» أخذ كارادين يُحملِق في سخط في العصافير المُتناحرة. وقال: «اللعنة على هذه الطيور. لم يَعُد بإمكاني إطلاقًا أن أكتب ذلك الكتاب، يا سيد جرانت.»

«ولمَ لا، يا برينت؟»

«لأن هذا الأمر ليس جديدًا على أي أحد. كان الجميع يعرفون كل تلك الأشياء طيلة الوقت.»

«يعرفون؟ يعرفون ماذا؟»

«أن ريتشارد لم يقتل الصبيَّين، وكل ذلك.»

«كانوا «يعرفون»؟ منذ متى؟!»

«أوه، منذ مئات ومئات من السنين.»

«تماسَكْ يا صديقي. لم يمرَّ على هذا الأمر سوى أربعمائة عام فحسب.»

«أعرف. لكن هذا لا يُشكِّل أي فارق. كان الناس يعرفون أن ريتشارد لم يفعلها منذ مئات ومئات ...»

«هلَّا تتوقَّف عن هذا العويل وتتحدث بالمنطق. متى كانت أول مرة بدأ فيها رد الاعتبار هذا؟»

«بدأ؟ أوه، من أول لحظة مُمكِنة.»

«ومتى كان ذلك؟»

«ما إنْ رحل آل تيودور وكان من المأمون أن يتكلم الناس.»

«تقصد في عهد ستيوارت؟»

«أجل، أظن ذلك ... أجل. رجل يُدعى باك كتبَ تبرئةً في القرن السابع عشر. وكتب عنها هوراس والبول في القرن الثامن عشر. وشخص يُدعى مارخام في القرن التاسع عشر.»

«ومَن كتب عنه في القرن العشرين؟»

«لا أحد على حد علمي.»

«إذَن ما المشكلة في أن تفعل أنت هذا؟»

«لكن الأمر لن يكون سواءً، ألا ترى؟ لن يكون اكتشافًا عظيمًا!» قالها بتشديد. «اكتشافًا عظيمًا».

ابتسَم له جرانت. وقال: «أوه، بحقك! لا يمكن أن تتوقَّع أن تتوصل إلى «اكتشافاتٍ عظيمة» في منطقةٍ خالية من الأجمات. إن لم تستطع أن تكون سبَّاقًا، فما المشكلة في أن تقود حملةً عظيمة؟»

«حملة عظيمة؟»

«بالتأكيد.»

«علامَ؟»

«على الزيف والوقائع المُزيَّفة مثل أحداث تونيباندي.»

اختفى التبلُّد من وجه الفتى. وفجأةً ظهَر عليه الاستمتاع، وكأنه شخصٌ رأى مزحة لتوِّه.

وعلَّق قائلًا: «هذا أسوأ الأسماء وأسخفها، حقًّا!»

«إن كان الناس ظلوا طوال ثلاثمائة وخمسين عامًا يُشيرون إلى أن ريتشارد لم يقتل ابنَي أخيه، ولا يزال بوسع كِتاب مدرسي أن يقول بكلماتٍ صريحة مباشرة ومن دون تحفُّظ إنه فعل، فيبدو لي أن تزييف التاريخ، ومثال عليه أحداث تونيباندي، مُتقدِّم عليك منذ وقت طويل. حان الوقت لكي تنشغل بالمَهمَّة.»

«لكن ماذا يُمكِنني «أنا» أن أفعل في حين أن أشخاصًا مِثل والبول وأمثاله قد فَشِلوا؟»

«يوجد مَثلٌ قديم عن المياه المستمرَّة الجريان وتأثيرها على الحجر.»

«سيد جرانت، أشعر الآن بشيء من الهُزال والوهن الشديد.»

«لا بد لي أن أقول إنك تبدو كذلك فعلًا. لم أرَ من قبلُ مثلَ هذا الشعور بالشفقة على الذات. وتلك ليست حالةً مزاجية مناسبة للبدء في مناطحة الشعب البريطاني. سوف تفقد الكثير من ثِقَلك فعلًا.»

«أتقصد لأنني لم أكتب كتابًا من قبل؟»

«لا، هذا لا يُهمُّ على الإطلاق. إن أفضل كتاب لدى معظم الكُتَّاب هو كتابهم الأول؛ فهو أكثر كتاب أرادوا كتابته. لا، أقصد أن كل الأشخاص الذين لم يقرءوا كتابَ تاريخ مُطلَقًا منذ تركوا المدرسة سيشعرون بأنهم مُؤهَّلون لإصدار الأحكام على ما كتبت. سيَتَّهمونك بمحاولة تبييض صفحة ريتشارد، ولكلمة «تبييض» مسحةٌ من ازدراء أو انتقاص لا تجدها في كلمة «تبرئة»؛ لذا سيُطلِقون لفظ «تبييض» على ما تفعل. قلة منهم سيبحثون في الموسوعة البريطانية، وسيشعرون بأنهم جديرون ومؤهَّلون للتعمُّق أكثر قليلًا في المسألة. وهؤلاء سيقتلونك بدلًا من أن يسلخوك. ولن يُزعِج المؤرِّخون الجادون أنفُسَهم حتى بملاحظتك.»

فقال كارادين: «قسمًا بالرب لأحمِلنَّهم على ملاحظتي!»

«أحسنت! تبدو تلك الروح أقرب إلى الروح التي ظفِرَت بالإمبراطورية.»

قال كارادين يُذكِّره: «ليس لدينا إمبراطورية.»

فقال جرانت بنبرةٍ صارمة: «أوه، كلَّا، لديكم.» وأضاف: «لكن الفارق الوحيد بين إمبراطوريتنا وإمبراطوريتكم أن إمبراطوريتكم اقتصادية، في نطاقٍ واحد، بينما

إمبراطوريتنا على شكل قِطع وأجزاء في سائر أنحاء العالم. هل كنت قد كتبت أي شيء في الكتاب قبل أن تصطدم بحقيقة عدم أصالته المريعة؟»

«أجل، كنت قد أنهيت فصلَين.»

«ماذا فعلت بهما؟ لم تتخلص منهما، أفعلت؟»

«لا. كِدت أفعل. كِدت أرمي بهما في نار المدفأة.»

«ما الذي منعك؟»

قال كارادين: «كانت مدفأةً كهربائية.» ثم مدَّ ساقَيه الطويلتين في حركةٍ تنمُّ عن الاسترخاء، وأخذ يضحك. ثم تابَع قائلًا: «إنني أشعر بتحسُّن بالفعل، يا أخي. لا أُطيق الانتظار حتى أُوجِّه ضربةً ساحقة إلى فم الشعب الإنجليزي مباشرةً باستخدام بضع حقائق عن بلدهم. إن روح كارادين الأول تغلي في عروقي.»

«تبدو تلك حماسةً خبيثة.»

«كان كارادين الأول وغْدًا عجوزًا لا يعرف الهوادة في قطع الأخشاب. بدأ حياته حطَّابًا، وانتهى به الحال إلى امتلاك قلعة على طِراز عصر النهضة ويخْتَين وسيارة خاصة. سيارة تسيرُ على السكة الحديدية. كان بالسيارة ستائر من الحرير الأخضر المُزركَش، وكانت مُرصَّعة بأعمالٍ خشبية يتعين على المرء رؤيتها ليُصدِّق أنها موجودة. يوجد افتراضٌ شائع، لا سيَّما من قِبَل كارادين الثالث، أن دماء آل كارادين آخذة في الوهَن. لكنني الآن أشعر تمامًا كأني كارادين الأول. أعرف تمامًا كيف كان شعور ذلك العجوز حين أراد شراء غابة بعينها وأخبره أحدهم أنه لن يستطيع الحصول عليها. سأُنجز الأمر بكل حماسة يا أخي.»

فقال جرانت بنبرةٍ مُعتدِلة: «هذا رائع.» وأضاف: «كنت أتطلَّع إلى ذلك الإهداء.» ثم أخذ لوحَ الكتابة من فوق الطاولة وأمسك به. وقال: «كنت عاكفًا على تلخيصٍ يُشبِه ما يقوم به رجال الشُّرطة. ربما سيكون ذا عونٍ لك حين تصل إلى مرحلة النهاية في الكتاب.»

أخذ كارادين التلخيص وراح ينظر فيه بإمعان واحترام.

«اقطع الورقة وخذها معك. لقد انتهيت منه.»

فقال كارادين في حزن: «أظن أنك في غضون أسبوع أو اثنَين ستكون مُنشغلًا كثيرًا بتحقيقاتٍ حقيقية، ولن يكون لديك وقت للاعتناء بتحقيقٍ أكاديمي.»

قال جرانت بنبرةٍ صادقة: «لن أستمتع أبدًا بأي تحقيق بقدرِ ما استمتعت بهذا.» ثم نظر بطرْفِ عينه إلى البورتريه الذي كان لا يزال مُستندًا إلى الكتب. واستطرد: «كنتُ مُحطَّمًا أكثرَ مما يمكن أن تُصدِّق حين أتيتَ وقد تمكَّن منك القنوط، وكنت أظنُّ أن

الكتاب باء بالفشل.» ثم عاوَد النظر إلى البورتريه وقال: «تظنُّ مارتا أنه يُشبِه لورينزو دي ميديشي قليلًا. ويظنُّ صديقها جيمس أنه وجه قدِّيس. ويظنُّ طبيبي الجرَّاح أنه وجهُ مُعاق. ويظنُّ السيرجنت ويليامز أنه يبدو كقاضٍ عظيم. لكنني أظنُّ أن رئيس المُمرِّضات هو الأقرب إلى الصواب.»

«وماذا تقول؟»

«تقول إنه وجهٌ تعجُّ ملامحه بأشد صور المعاناة وأفظعها.»

«أجل. أجل، أظن أنه كذلك. وما كان المرء ليَعجَب من ذلك في نهاية المطاف.»

«أجل. أجل، لم يهنأ الرجل إلا قليلًا. لا بد أن آخر سنتَين في حياته كانتا ثقيلتَين مُفاجئتين كانهيارٍ ثلجي. كان كل شيء يسير على خيرِ ما يُرام. وكانت إنجلترا في حالة استقرار أخيرًا. والحرب الأهلية تتلاشى من الأذهان، وحكومة قوية صارمة تُحافِظ على السلام، وتجارة رائجة تُحقِّق الرخاء. لا بد أن المشهد عند النظر من ميديلهام عبر وينسليديل كان يبدو مُبشِّرًا بمستقبلٍ رائع. وفي غضون عامَين، فقدَ زوجته وابنه والسلامَ الذي حقَّقه.»

«أعرف أمرًا واحدًا لم يُصِبه.»

«وما هو؟»

«معرفة أن اسمه سيُمثِّل موضع استهجان وسخرية على مر القرون.»

«أجل. كانت تلك ستُصبح الضربة القاصمة. أتعرِف الشيء الذي أجده من وجهةِ نظرٍ شخصيةٍ الأمرَ «الأكثر» إقناعًا في مسألة براءة ريتشارد من أي تخطيط لاغتصاب العرش؟»

«لا، ما هو؟»

«حقيقة أنه تعيَّن عليه أن يرسل في طلب تلك القوات من الشمال حين أذاع ستيلينجتون أخباره. لو كان يعرف مسبقًا ما كان ستيلينجتون سيقوله، أو حتى كانت لديه أي خُطط لتلفيق قصة بمساعدة ستيلينجتون، لكان قد أتى بتلك القوات معه. إن لم يكن إلى لندن فإلى المقاطعات الرئيسية حيث كانت ستصبح عونًا له. إن إرساله على عَجل أولًا إلى يورك ثم إلى أقاربه من آل نيفيل لهو دليل على أن اعتراف ستيلينجتون أخذه على حين غِرَّة تمامًا.»

«أجل. لقد أتى بصحبة حاشيته من السادة مُتوقِّعًا أن يتسلَّم العرش. فجابه أخبار اضطرابات آل وودفيل حين أتى إلى نورثهامبتون، لكن ذلك لم يُزعِزعه. فاجتثَّ شوكة الألفَي شخص من آل وودفيل، وتابَع طريقه إلى لندن كأنَّ شيئًا لم يكن. وكان لم يزل

أمامه سوى تتويج تقليدي بحدٍّ علمه. ولم يرسل في طلب قوات تابعة له إلا حين اعترف ستيلينجتون أمام المجلس. وكان عليه أن يرسل خطابًا إلى شمال إنجلترا في مثل هذه اللحظة الحرِجة. أجل، أنت مُحقٌّ بالطبع. لقد أُخِذ على حين غِرَّة.» ثم عدَّل بسبَّابته ذراعَ نظارته بحركته المعهودة، وقدَّم دليلًا مُصاحبًا. «أتعرِف ما الذي أجده أكثر إقناعًا في قضية جُرم هنري؟»

«ماذا؟»

«الغموض.»

«الغموض؟»

«الغموض. التكتُّم. الأعمال القذرة التي تتم بسِرِّية.»

«أتقصد أن هذا من سِماته الشخصية؟»

«لا، لا، لا شيء ماكر بقدرِ الغموض. ألا ترى؛ لم يكن ريتشارد بحاجة لأي غموض، لكن قضية هنري برُمَّتها تعتمد على أن تكون نهاية الصبيَّين غامضة. لم يستطِع أحد قطُّ أن يتوصَّل إلى مُبرِّر لهذه الطريقة القذرة والسِّرية التي من المُفترَض أن ريتشارد قد استخدمها. كان ارتكاب الجريمة بهذه الطريقة ضربًا من الجنون. ولم يكن يمكنه أن يأمُل في أن ينجوَ بفَعلته. إذ كان سيَتحتَّم عليه إن عاجلًا أو آجلًا أن يُفسِّر سبب عدم وجود الصبيَّين. وبقدرِ عِلمه كانت أمامه فترةٌ طويلة من الحكم. ولم يستطِع أحد قطُّ أن يُفكِّر في سبب اختياره لهذه الطريقة الصعبة الخطيرة، في حين أنه كان أمامه أساليب وطُرقٌ أكثر بساطة. لم يكن عليه سوى أن يخنق الصبيَّين، ويُرقِدهما في نعشهما بينما تمرُّ عليهما لندن بأَسرِها وتنتحب على صبيَّين ماتا قبل أوانهما بسبب الحُمَّى. كانت تلك هي الطريقة التي كان «من شأنه» أن يُنجِز الأمر بها، أيضًا. يا إلهي، كانت «الغاية» من قتلِ ريتشارد الصبيَّين أن يمنع قيام أي انتفاضة من أجلهما، ولكي يحصل على أي نفع من القتل كان عليه أن يُعلِن نبأ وفاتهما على العامة، وبأسرعِ ما يمكنه. لو لم «يعرف» الناس بموت الصبيَّين فمن شأن هذا أن يُقوِّض خُطته برُمَّتها. أما هنري فكان مُختلفًا. كان «يتعيَّن» على هنري أن يجد طريقة ليُبعدهما عن الأنظار. «تعيَّن» على هنري أن يكون غامضًا. «تعيَّن» على هنري أن يخفيَ حقيقة توقيت وفاتهما وكيفيتها. كان هنري يعتمد في «القضية برُمَّتها» على عدم معرفة أحد بما حدث بالضبط للصبيَّين.»

قال جرانت مُبتسمًا في وجه المستشار اليافع المُتحمِّس: «هذا صحيح يا برينت، صحيح بكل تأكيد.» وتابع: «ينبغي لك أن تكون في سكوتلاند يارد يا سيد كارادين!»

فضحكَ برينت.

وقال: «سأكتفي بالبحث في تزييف الحقائق التاريخية مِثل أحداث تونيباندي.» وأضاف: «أُراهن أنه يوجد الكثير من الوقائع المُماثلة التي لا نعرف عنها شيئًا. أُراهن على أنَّ كتب التاريخ مليئة بها.»

قال جرانت: «بالمناسبة، حريٌّ بك أن تأخذ كتاب السير كوثبرت أوليفانت معك.» ثم أخرج المجلَّد الضخم المهيب من الدُّرج. وقال: «ينبغي أن يُلزَم المؤرِّخون بدراسة علم النفس قبل أن يُسمح لهم بالكتابة.»

«هه. لن يُفيدهم ذلك بأي شيء. إن الشخص الذي يهتمُّ بالأشياء التي تجعل الناس يتصرفون بسلوكٍ مُعيَّن لا يكتب التاريخ. إنما يكتب الروايات، أو يصبح طبيبًا نفسيًّا، أو قاضيًا ...»

«أو مُحتالًا.»

«أو مُحتالًا. أو عرَّافًا. إن الرجل الذي يفهم طبائع الناس لا يتوق على الإطلاق لكتابة التاريخ. فالتاريخ بمثابة دُمَى جنود.»

«أوه، بحقك. ألا ترى أنك مُتزمِّت بعض الشيء في رأيك هذا؟ إن التاريخ مجالٌ واسع للتثقيف والاطلاع على ...»

«أوه، لم أقصد ما فهِمتَه. أقصد أنه عبارة عن تحريك دُمًى صغيرة هنا وهناك على رقعةٍ مُسطَّحة. إنه منتصف الطريق إلى الرياضيات، حين تُفكِّر في الأمر.»

فقال جرانت بمكرٍ فجأةً: «إذَن لو كان فيه من سمات الرياضيات فليس للمُؤرِّخين الحق في أن يُقحِموا فيه الأخبارَ القائمة على الشائعات والنميمة.» ما برِحَت ذكرى مور المعظم تُزعِجه. أخذ يُقلِّب في صفحات كتاب السير كوثبرت الضخم المهيب يُطالعه مطالعةَ المودِّع. وحين وصل إلى الصفحات الأخيرة، تباطأت سرعة تقليبه للصفحات حتى توقَّفت.

وقال: «غريب هو مدى استعدادهم لمنح رجل صفةَ الشجاعة في المعركة. ليس لديهم سوى مرويَّات تراثية، ومع ذلك لا أحدَ منهم يتشكك في أمرها. بل في الواقع، لا أحدَ منهم يَقصُر عن التأكيد عليها.»

فقال كارادين مُذكِّرًا إياه: «كانت هذه إشادة من عَدُو. إذ بدأت المرويات التراثية بقصيدةٍ قصصية كتبَها الجانب الآخر.»

«أجل. على يد رجل من آل ستانلي. «ثم قال فارس إلى الملك ريتشارد» إنها هنا في مكانٍ ما.» قلَّب صفحة أو صفحتَين من الكتاب حتى وجد ما كان يبحث عنه. وأضاف: «كانَ ذلك الفارس هو «السير ويليام هارينجتون الصالح». ذلك هو الفارس المعني.»

«لن ينجوَ رجُل من ضرباتهم؛ فقوَّات ستانلي قوية جدًّا (أولئك الخونة الملاعين!)»
يمكنك أن تعود مع مدٍّ آخر؛ إذ أظنُّ أنك بقيت هنا طويلًا،
جوادك مستعدٌّ طوع إشارتك، وربما يكون النصر حليفك في يومٍ آخر،
وتعود وتحكم بسُموٍّ ملكي، وتضع تاجك وتكون مليكنا.
«لا، أعطِني فأس الحرب في يدي، وضَعْ تاجَ إنجلترا عاليًا على رأسي.
أُقسمُ بمن بسطَ الأرض ولجَّ البحر، لَأَمُوتنَّ اليوم ملِكًا لإنجلترا.
لن أفرَّ ولو خطوةً واحدة ما دام بين ضلوعي نفَسٌ يتردد.»
«وحدث ما قاله؛ إذا كان فقدَ حياتَه فقدْ مات ملِكًا.»

قال كارادين يُفكِّر: ««ضعْ تاجَ إنجلترا على رأسي.»» واستطرد: «ذلك كان التاج الذي عُثِر عليه في أَجَمة هوثورن بعد ذلك.»

«أجل. أُخِذ غنيمةً على الأرجح.»

«اعتدتُ أن أتصوَّره أحد تلك الأشياء الفخمة التي تُوِّج الملك جورج فيها، لكن يبدو أنه كان مجرد حَلْقة ذهبية.»

«أجل. كان يمكن ارتداؤها على خوذة المعركة.»

فقال كارادين فجأةً: «يا إلهي، من المُؤكَّد أنني كنت سأكره أن أرتديَ هذا التاج لو كنت مكان هنري! من المؤكد أنني كنت سأكرهه!» ثم صمت قليلًا، وقال: «أتعرف ما كتبته مدينة يورك — كُتِب في سجلاتهم — عن معركة بوسوورث؟»

«لا.»

«كتبوا: «في هذا اليوم قُتِل ملِكُنا الصالح ريتشارد، أُصيبَت هذه المدينة بحزنٍ عظيم».»

كان صوت زقزقة العصافير عاليًا أثناء الصمت.

فقال جرانت أخيرًا بنبرةٍ جافَّة للغاية: «هذا ليس نعيَ مُغتصِبٍ مكروه.»

قال كارادين: «لا، لا.» ثم أخذ يُكرِّر: «أُصيبَت هذه المدينة بحزنٍ عظيم» ببطء، وأخذ يُقلِّب العبارة في ذهنه. واستطرد: «اهتمُّوا كثيرًا بما حدث لدرجة أنهم، حتى مع وجود نظام جديد يلوح في الأفق ومستقبلٍ لا يمكنهم توقُّعه، كتبوا في سجلات المدينة رأيهم؛ وهو أن ما حدث كان اغتيالًا، وعبَّروا عن حزنهم تجاهه.»

«لعلهم كانوا قد سمِعوا بالتمثيل الذي ارتُكِب بحق جثة الملك وشعروا بالاشمئزاز قليلًا.»

«أجل. أجل. فالمرء لا يُحبُّ أن يتخيَّل رجلًا أحبه وأكنَّ له الإعجاب مطروحًا مجردًا من ثيابه، ويتأرجح على ظهرِ مُهرٍ كحيوانٍ ميت.»

«لا يُحبُّ المرء أن يتخيَّل حتى عدوَّه بهذا الشكل. لكن رقة الشعور ليست صفةً يمكن للمرء أن يبحث عنها بين عُصبة هنري ومورتون.»

فقال برينت، مُتلفِّظًا بالكلمة كأنه يبصقها لمذاقها السيئ: «هه. مورتون!» واستطرد: «لم يكن أحد «حزينًا» حين مات مورتون، صدِّقني. أتعرِف ما كتب عنه المؤرِّخ؟ أقصد مؤرِّخ لندن. كتب يقول: «في زمننا لم يكن يوجد له مثيل يُقارَن به في كل شيء؛ رغم أنه عاش وسط كراهية العامة في هذه الأرض وازدرائهم الكبير تجاهه».»

التفت جرانت لينظر إلى الصورة التي رافقته لأيام وليالٍ عديدة.

ثم قال: «أتعرِف، مع كل نجاحاته ومع منصب الكاردينال الذي تولَّاه، أظن أن مورتون كان هو الخاسر في تلك المعركة مع ريتشارد الثالث. رغم هزيمة ريتشارد والتشهير به طويلًا، كان هو من خرج بحالٍ أفضل من بين هذين الاثنين. كان محبوبًا في عهده.»

فقال الفتى في رصانة: «هذا الرثاء ليس سيئًا.»

فقال جرانت وهو يُغلِق كتاب أوليفانت للمرة الأخيرة: «لا. ليس رثاءً سيئًا على الإطلاق.» «ما كان رجالٌ كثيرون سيَرغبون في أفضل من ذلك.» ثم سلَّم الكتاب إلى مالكه. وقال: «قلةٌ فقط من استحقُّوا هذا القدر.»

وحين غادَر كارادين، بدأ جرانت يُفرِز الأشياء الموجودة على طاولته؛ استعدادًا لعودته إلى المنزل في اليوم التالي. يمكن للروايات الأنيقة غير المقروءة أن تذهب إلى مكتبة المستشفى لتُدخِل السرور على صدورٍ أخرى غير صدره. لكنه سيحتفظ بالكتاب الذي به صور الجبال. وعليه أن يتذكَّر أن يُعيد إلى «الأمازونية» كتابَي التاريخ. بحثَ عنهما حتى يُعطيَها إياهما حين تأتيه بوجبة العشاء. وقرأ مرةً أخرى، للمرة الأولى منذ أن بدأ بحثه عن حقيقة ريتشارد، حكاية الكتاب المدرسي عن شرِّه وطغيانه. كانت القصة الشائنة ماثلةً أمامه بحروفٍ سوداء لا لَبْس فيها على صفحاتٍ بيضاء. من دون «لعل» أو «ربما». من دون تساؤلات أو تحفظات.

وبينما كان على وشك أن يُغلِق أكبر الكتابَين وقعت عينه على فترة حكم الملك هنري السابع، فقرأ: «كانت سياسة آل تيودور المستقرة والمعتبرة هي أن يتخلَّصوا من كل مُنافسيهم على العرش، خاصةً أولئك الورثة من آل يورك الذين كانوا لا يزالون على قيد

الحياة عند جلوس هنري السابع على العرش. وقد نجحوا في ذلك، رغم أن هنري الثامن كان قد تبقَّى له أن يتخلَّص من آخرهم.»

حدَّق جرانت في هذا البيان الصريح. هذا القَبول المُسالِم بعمليات القتل الكثيرة. هذا الاعتراف البسيط بعملية إبادة أُسرة.

لقد نُسِب لريتشارد الثالث القضاء على ابنَي أخيه، وكان اسمه مُرادفًا للشر. أما هنري السابع، الذي كانت «سياسته المستقرة والمعتبرة» هي القضاء على أُسرة بأكملها، فكان يُنظَر إليه باعتباره مِلكًا داهيةً بعيدَ النظر. ربما لم يكن محبوبًا جدًّا، لكنه كان ذا هدف ومُثابرًا بالإضافة إلى كونه ناجحًا جدًّا.

هنا استسلم جرانت. كان التاريخ يُمثِّل له شيئًا لن يمكنه أن يفهمه أبدًا.

كانت القيم لدى المؤرِّخين مختلفة اختلافًا كبيرًا وجَذريًّا عن أي قيم كان يعرفها، لدرجةِ أنه لم يكن يأمُل قطُّ أن يجتمع معهم على أي أرضية مشتركة. سيعود إلى سكوتلاند يارد، حيث كان القتلة قتلة، وما كان يسري على واحد كان يسري على قَدمِ المساواة على الآخر.

وضع جرانت الكتابَين معًا بطريقةٍ مُنمَّقة، وحين أتت «الأمازونية» بالخوخ المفروم المطهو أعطاها إياهما مع كلمات شكر وعِرفان. كان يشعر بالامتنان فعلًا تجاه «الأمازونية». لولا أنها كانت تحتفظ بكتب دراستها لما شرع في طريقه الذي قاده إلى معرفته بريتشارد بلانتاجانت.

بَدت «الأمازونية» مُرتبِكةً مُندهِشة من أسلوبه اللطيف، وتساءل جرانت في نفسه عما إن كان فظًّا للغاية أثناء مرضه حتى إنها لم تتوقَّع منه سوى الانتقاد. كانت هذه الفكرة مُهينة ومُخزية له.

قالت: «سنفتقدك»، وبدا كأن عينَيها الكبيرتين كانتا على وَشْك أن تذرفا. أضافت: «لقد اعتدنا وجودَك هنا. بل إننا حتى اعتدنا ذاك.» وحرَّكت مِرفقها في اتجاه البورتريه.

برزت في رأسه فكرة.

فسألها: «هلا تفعلين شيئًا من أجلي؟»

«بالطبع. أي شيء بوسعي فِعله.»

«هلَّا تأخذين تلك الصورة باتجاه النافذة وتنظرين إليها في ضوءٍ جيد لنفس المدة التي تستغرقينها لقياس نبض أحدهم؟»

«أجل بالطبع، إن كنت تريد مني أن أفعل ذلك. ولكن لماذا؟»

«لا عليكِ. فقط افعلي هذا من أجلي. سأحسب لكِ الوقت.»

فالتقطت الصورة وتحرَّكت نحو الضوء الآتي من النافذة.

راح يَرقُب عقرب الثواني في ساعته.

تركها مدة خمس وأربعين ثانية، ثم قال: «حسنًا؟» وإذ لم يجد منها إجابةً فورية، قال ثانيةً: «حسنًا؟»

فقالت: «غريب.» وأضافت: «حين تنظر إليها قليلًا تجد أنه وجهٌ لطيف حقًّا، أليس كذلك؟»


هنداوي